الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

زمن الوجود والعدم

«في زمن المآسي البشرية، يصبح التغني بجمال الشجرة جريمة». يوم قال برتولد برشت تلك العبارة، كان يدعو، بالطبع، إلى الأدب الملتزم، ويدحض نظرية «الفن للفن». لكن الالتزام قاد برشت إلى أن يكون أحياناً آنياً ومباشراً أكثر من اللزوم، وبالتالي لم تخلد أعماله التعليمية، أي السياسية، أو بالأحرى التسييسية، بل خلدت مسرحياته الكبرى الأقل تعليمية ومباشرة وآنية، والتي ألف معظمها في المهجر- والمهجر لم يكن الاتحاد السوفييتي، بل الولايات المتحدة الأمريكية. في الستينيات، كان جان بول سارتر يحظى بذروة الاهتمام عربياً، بحيث أنه حين زار مصر مع رفيقة دربه سيمون دو بوفوار استقبل بحفاوة كبيرة. لكن سارتر، كنموذج للمثقف الأوروبي، عبر عن حيرة غريبة فيما إذا سيظل مخلصاً لتأييده السابق لإسرائيل بدافع التعاطف مع اليهود الخارجين من أتون

الهولوكوست حسب قناعته، أم قد انتقل عن تجربة ووعي للتعاطف مع مأساة الشعب الفلسطيني المنفي عن أرضه بقوة السلاح والتجاهل الدولي غير المسبوق إزاء هكذا ظلم.

وما أن انحسر مدّ تأثير الوجودية حتى بدأ الماركسيون العرب يروّجون لبرتولد برشت، ويطرحون فكره الاشتراكي الملتزم بديلاً لسارتر، الذي كرس الدفاع عن الحرية في المقام الأول. بل وصل الأمر إلى التشكيك بيسارية سارتر ودو بوفوار، ووصمهم بالبورجوازية، في حين كانا يحاربان «وَهْمَ الاستقرار البورجوازي الزائف». في السبعينيات، إذن، صار برشت يتربع على القمة بالنسبة للمثقفين العرب.

الواقع، لم يكن أياً من سارتر وبرشت فيلسوفاً بقدر ما كان أديباً مبدعاً.

لم يكن برشت فيلسوفاً، لأنه كان شاعراً فوضوياً وفناناً مجدداً، له فضل ثورة الفن في مسرح النصف الثاني من القرن العشرين.

كذلك ثمة شك في كون سارتر نفسه فيلسوفاً رغم كتابه الفلسفي الشهير «الوجود والعدم»، بقدر ما كان يعتبر بالتأكيد مفكراً وأديباً، وبالتأكيد فإن بعض أعماله الإبداعية مثل «الغثيان» و«الطرواديات» و«الذباب» موازية لكتبه النظرية، إن لم تتفوق أحياناً كثيرة عليها. ربما كان سارتر مفسراً رائعاً لأعمال هيدغر، وبالأخص لفلسفة كيريغارد الوجودية وشرحها.

وربما كان له الفضل الأكبر في انتشار «الوجودية كمذهب إنساني»، وهو عنوان أحد أبرز كتبه، لكنه لايعتبر فيلسوفاً، بل مفكراً وأديباً.

ولكن، ما استدعى تلك المقارنة بين سارتر وبرشت أن جان بول سارتر كان أقرب ما يكون كأديب إلى النظرية الماركسية، بل كان يعتبر نفسه يسارياً وشديد القرب من الشباب، الذين تفجرت ثورتهم في فرنسا عام ١٩٦٨ بمجرد إقالة مدير السينماتيك لانغلوا من منصبه.

رغم ذلك، كان الشيوعيون يعتبرون سارتر خصماً مناوئاً، لا حليفاً يتباين عنهم قليلاً في وجهات النظر، ذلك لأن نظرتهم كانت الاشتباه والشك إزاء كل من لا يقف معهم مئة بالمئة، إذ يجدونه يضعف من دعاواهم، خصوصاً بالإصرار على تكرار طرح موضوع الحرية، وهو موضوع مؤرق لدول الستار الحديدي. ورغم أن سارتر كان مع الاشتراكية كفكر، لكنه كان على خلاف مع الشيوعية، تحسباً من النظام الشمولي، لأن سارتر كان مع الالتزام، وليس مع الإلزام. وأذكر في هذا السياق مسرحية رائعة لسيمون دو بوفوار بعنوان «الأفواه

اللامجدية»، تدور حول رفض أهل مدينة محاصرة صامدة أن يضحوا ببعض العجائز كي يصمدوا ريثما تصل نجدة وإمدادات إلى مدينتهم المحاصرة، لأن شرف الشهادة في عزة وكرامة هو ما يجعل لحياتهم قيمة ومعنى.

هذا الاختيار الحر والواعي والمسؤول هو محور الوجودية. لذلك، اختارت بوفوار وسارتر، كما اختار ألبير كامو في أعماله الهامة، (مثل «الطاعون» و«الغريب» و«حالة حصار» و«كاليغولا»)، أن يبقوا أحراراً من لا ينضوون تحت راية أي حزب، على الرغم من ميولهم التقدمية، وإيمانهم بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، ووقوفهم إلى جانب استقلال الجزائر ضد اليمين المتطرف. يمكن القول إنهم فضلوا أن يمسكوا العصا من منتصفها، وأن صفة الرصانة لم تكن مقتصرة على «مذكرات فتاة رصينة» بل كانت الرصانة والرزانة ديدنهم، بحيث تجاوزتهم ثورة شباب ١٩٦٨م، بحيث أنها ما لبثت أن أفلتت من تأثيرهم لتبحث عن رموز أخرى أكثر تطرفاً. ضمن هذا السياق، نستطيع أن نجد عدداً من الفنانين والشعراء الماركسيين العظام ممن يعيشون خارج الاتحاد السوفييتي آنذاك، أمثال بابلو بيكاسو وسلفادور دالي وأندريه بريتون ولوي أراغون، قد حذوا حذو سارتر، فكانوا على قرب من الاشتراكية، لكنهم اختاروا الانتماء إلى حرية التعبير الفني خارج أطر تنظير أقرانهم المنضوين تحت لوائها بشكل مباشر.

يذكرني هذا السجال بمبدعين سبقوا الماركسية وكانوا مبشرين رواداً بالوجودية، مثل تولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف وإبسن ولوركا وسواهم. هؤلاء، آمنوا بمبادئ مشابهة للمبادئ الاشتراكية، وسعوا إلى النتائج نفسها، شريطة بقائهم أحراراً. لكن سارتر يبقى أبرز من طرح فكرة ربط الحرية بالمسؤولية، وعدم تركها منفلتة ومطلقة.

هناك مسرحية بديعة لكامو بعنوان «العادلون» حول شاب منضو في حزب يكلف بشرف مهمة اغتيال سياسي مهم، لكن ضميره لا يطاوعه على أن يذهب طفل بريء ضحية من أجل تحقيق هدفه، فيحجم، ويصبح مداناً. هكذا، ربما كان هؤلاء الوجوديون يعودون بنا إلى مقولة هنريك إبسن التي تكرس فردية الفرد: «كل رأي جماعي يقع في خطأ»، والتي عبر عنها في مسرحيات مثل «عدو الشعب» و«بيت الدمية» و«الأشباح». فهل يكون الحديث عن جمال الشجرة، في زمن المآسي، جريمة؟ ربما. ولكن ربما يكون الدفاع عن الأدب الرديء أدبياً جريمة لا تغتفر أيضاً، بغض النظر عن محتواه التقدمي؟

إن المضمون لا يبرر رداءة الشكل وتهافته الجمالي. إنَّ الجمال قضية تستحق الاحترام بحد ذاتها. لا يستطيع المرء إلا أن يعجب بأعمال تقدمية، إنما جميلة، في أعمال أدبية روسية ويوغسلافية وتشيكية وهنغارية.

ولا يستطيع، بالمقابل، إلا أن يعجب بأعمال أدبية رفيعة، حتى لو لم تكن ماركسية المحتوى. إن التحوّل نحو الانفتاح بعد انهيار المعسكر الشيوعي لا يلغي روعة وأهمية وخلود تلك الأعمال الأدبية العظيمة من مدرسة «الواقعية الاشتراكية»، ولا يقلل من قيمتها بالنسبة للأجيال التالية، نظراً لأنها تمتلك موهبة التغني بجمال الشجرة، مع قدرتها على تناول المآسي الحساسة في المجتمع. هذا لا يختلف في شيء عن إنجازات روائيين غير روس، مثل فكتور هوغو وأميل زولا وجوستاف فلوبير وسواهم.

بالمقابل، لم يستطع دعاة الشيوعية أن يلغوا من تاريخ الأدب إنجازات كتاب متمردين، مثل بوشكين وبولغاكوف وسولجنتسين وباسترناك وفرانز كافكا. حول هذه الفكرة كتب روجيه غارودي كتابه الرائع «واقعية بلا ضفاف»، ملقياً الضوء على تقدمية مواقف بعض الفنانين الذين نفاهم «الجدانوفيون» من فردوس الماركسية/ الليبينية الموعود. في الألفية الثالثة، أعتقد أن روائياً تشيكياً مثل ميلان كونديرا، أو روائياً ألبانياً مثل إسماعيل كاداريه، أو روائياً جنوب أفريقي مثل اندريه برينك، يستحقون المنافسة بجدارة على جائزة «نوبل» بجدارة، مثل زميلهما الروائي العربي نجيب محفوظ من مصر العربية، ومثل زميلهما وول سوينكا النيجيري، ومثل أثول فوغارد الجنوب-أفريقي، لأنهم جميعاً يشتركون في سمة الدفاع عن الحرية، لكنها ليست حرية الفوضى، بل الحرية المشروطة بالمسؤولية، والبعيدة عن «دوغمائية» الانضواء تحت لواء حزب، والتي عبر عنها الأديب الألباني إسماعيل كاداريه، والأديب البرازيلي باولو كويللو، والأديب التشيكي ميلان كونديرا بالذات عبر أكثر من رواية ناقدة، بل لاذعة، في واقعيتها غير الاشتراكية.

كلمة العدد

شاعر العروبة الذي أيقظ جمرة الشعر

د. علي القيّم
رئيس التحرير

أكثر من صديق وأديب وشاعر، همس في أذني: أنكم في «المعرفة» تعيدون نشر قصائد للشاعر العربي الكبير سليمان العيسى.. وكان ردّي: ما العيب في ذلك، فمن حق أجيالنا أن تتعرف على جوانب من نتاجات وإبداعات وإشراقات و«ثمالات» و«همسات» ومراحل الكتابة عند هذا الشاعر الاستثنائي الذي أثرى حياتنا الثقافية والأدبية والفكرية على مدى أكثر من سبعين عاماً، وما زال مشرقاً وحيوياً ومتواصلاً مع كل نبضات وخلجات قلوبنا وأفئدتنا من المحيط الأطلسي، حتى الخليج

العربي، ونحمد الله، أن يده الخيّرة ما تزال قادرة على الكتابة، والتواصل مع أحداث ومتغيرات عصرنا.

صحيح أن الخيبات تلاحقت، وأحلامنا التي بشّر بها شاعرنا الكبير قد تكسّرت، وبقيت «أضغاث أحلام»، ولكن ظلّ عباءة شاعرنا ما زال موجوداً ليحتوي السنوات، وينتصر على نمطيّة الشيخوخة، صحيح أن النبرة تخفت، ولكن الحكمة تحّل محلّها، لتفتح نوافذ للأمل بعد كل خيبة، مرّة بعد مرّة..

الشعر عند سليمان العيسى، مقيم في معناه ومبناه، يقاوم التشظّي والتبعثر، ويسعى إلى خلق حالة من الوئام والانسجام مع الذات والوطن والعصر والحياة.. إنه ما زال، والحمد لله، يصارع الزمن، ويصهر اللحظات الباقية فيه، ويقول أشياء تجعلنا نحسّ بوجودنا على هذه الأرض.. ما زال يواصل الرحلة، ويسجّل ما يلحّ عليه..

فالكتابة بالنسبة له فعل حياة، هاجسها يعادل الوجود:

«يا دار عبلة.. إني دمعة طَفَرتْ
ورحتُ في شهقة الصحراء أرتحلُ
طُفولتي في يدي..
أذرو براءَتَها
على الطريق.. فعُمري مُورقٌ خَضِلُ
وتوقظ الخيمة الزرقاء أغنيتي
فاللحن بيني وبين الدهر مُتصّل»

لا تبحثوا عن سليمان العيسى إنه «التاريخ والأزل».. المتبصّر بالجذور الهاربة، التي في كل فجّ ضاربة، والمنقّب عن الينابيع التي تولد من صمت الحجر.. إنه أزلي الشجو «صامتاً حيناً.. وحيناً مُنشداً».. إنه يغنّي موال حضارتنا العربية، ويكتب بالدم، ويغسل وجه الحرف، كرومه بالندى والجمر تُعتصر.. إنه صديق الفراشات والندى، يسكب عطره حيثما يريد، ولا تموت الكلمة:

«إنها في البدء كانت..

وستبقى الشاعرة
إنها الدّهر.. أكانت ظافرة
في عُباب الصخب الهادر أم منهزمة
إنها الضوء.. تتحدى العتمة
منذ أن كانت وكان..
إنها برد الزمان
لاتموت الكلمة».

الكلمة عند سليمان العيسى بنت الحياة، ورق الورد، تجعل الصحراء معشوشبة، منها ينهمر الضياء.. منها الحلم الأعذب، ومن خلالها عشقنا الشمس والحريّة، وعرفنا أن الشعر هو الإنسان.

❀ ❀ ❀

منذ عام النكسة في حزيران ١٩٦٧م، اتجه سليمان العيسى نحو الطفولة وواصل حياته الشعرية مع الصغار، يغني معهم ويرافقهم في مدارسهم وفي حفلاتهم، وطرح شعاره المعروف، الذي يقول:

دعوا الطفل يغنّي
بل غنوا معه.. أيُّها الكبار!

وعندما سئل: لماذا شعر الأطفال؟ هل هو هروب من الكبار؟ أجاب: الحق ليس هروباً ولا عزوفاً، وإنّما هي تجربتي القومية، تجربتي الغَنيّة، تجربتي الإنسانية نفسها، أحاول أن أنقلها إلى الصغار بلغة غير اللغة التي تخاطب بها الكبار..

الطفل بالنسبة إلى سليمان العيسى هو الحلم.. هو المستقبل.. هو امتدادنا جميعاً على هذه الأرض، فلم لا نتجه إليه؟ وأطفال اليوم هم الرجال والنساء الذين سيملؤون الساحة غداً أو بعد غد.. لذلك واصل رحلته مع الأطفال، فكتب لهم قصائد وأشعاراً رائعة لحنّها كبار الملحنين في الوطن العربي، وأصبحت أناشيد ومسرحيات غنائية يرددها أطفال الوطن، ويحفظها الكبار قبل الصغار.

سليمان العيسى، عَشق الأرض العربية، لم يفرّق بين مدينة وأخرى من المحيط إلى الخليج، فبيروت عنده مثل دمشق وصنعاء ووهران وطرابلس والقاهرة، وهو يرى في كل أفق عربي من سناه كوكباً، وفي كل مدينة يقول عنها أنها الأحلى والأعذب، وأنه واحد من عشاقها، ومن حبّها لا يتعب، وأنها وردة الدنيا، وبوابة الألق السخي، وسيدة القصيدة والجمال، وسفر الضياء، وعنقاء الزمان، ووعد المواسم والمطر، فيها تضحك الشمس.. والقمر.

في كل لقاء مع شاعرنا الكبير، كان يقول:

اذكُروا أنّي عشقتُ الأرضَ،
أحْببتُ الحياةْ
وترشّفْتُ ثمالات الغروبْ
وأنا أبحثُ عن أُولى زغاريد الصباحْ
اذكُروا أنيَ كالأطفالِ غنّيتُ،
وطاردتُ الفَراشاتِ طويلاً،
وتسلّقْتُ الشجرْ
وقطفتُ التينَ والرمّانَ من بُستانِ جَدّي، والقَمرْ
كان جَدّي عاشقاً للقمحِ والرمّانِ،
والأرض التي تُعطي الثَّمَرْ
اذكُروا أنّي وإيّاها نَسجنا
مثلما شاءَ الهوى أيّامَنا
وزرعنا خلفَ أسوارِ الدجى أحلامنا
وجعلنا الحبَّ قنديلَ خُطانا
وسُرانا..

سليمان العيسى، في كل ما كتب، ونشر من دواوين شعر ونثر، لم يكتب حروفاً يابسة على الورق، ولم يجعلنا نتثاءب ونحن نقرأ ما يكتب، يقول:

أنا القصيدة.. أنا الشعر..
أنا الدم الذي يركض في عروقكم،
منذ كان الدم، وكانت العروق،
لم أكن لتقرؤوني في ساعة ضجر قبل النوم.
لم أُخلق لأجلب لكم النوم
أنا القصيدة، ابنة النخوة، والحب والأمل،
والفروسية، والطموح وأحلام الخلود.
هذه أجنحتي..
بعض أجنحتي التي تعودت أن أطير بها،
منذ ملحمة جدي العظيم جلجامش..
إلى آخر مهرجان شعر، أقيم في أرض العرب،
لم أُخلق لأتحجَر في صفحات كتاب..

الشعر عند شاعرنا الكبير، هو الغاية.. هو المثل الأعلى، وهو الصوت الذي يترقرق حيناً كينابيع الفردوس، ويزأر حيناً كالعاصفة.. هو القصيدة. التي توقظ الناس من سباتهم.. إذا ولد طفل.. استقبلته أبيات من الشعر، وإذا ما رحل أحد منّا عن هذه الدنيا، ودّعناه بأبيات من الشعر، وإذا ما أقيمت الأفراح، والليالي الملاح، فأجمل ما تزدان بالأغاني والأشعار..

حين يكتب شاعرنا، يستعد الحطب اليابس للماء، وتورق الدنيا بعينيه، وتهمي السماء مطراً على يديه.. الكلمة لديه تتحول إلى طاقة، وإلى فعل.. الكلمة ليست مجرد شكل لفظي يتألف من حروف وإيقاعات صوتيّة.. إنها جزء لا يتجزأ من وجودنا، من حقيقتنا، من سلوكنا اليومي.. الكلمة أقوى من قوى الاستهلاك اليومي التي تتعرض لها، فهي تحتفظ دائماً ببراءتها، وبقدرتها على أن تجدد عطاءاتها.. الكلمة مخلوق متمرد، حين تصدر عن مخلوق متمرد، هي عندئذ، كالأنثى المتوحشة القادمة

من غابات النفي، كالتجربة التي تملك من المشاعر ما يملأ الدنيا.. لكنّها لا تعطي حبّها لأحد قبل أن يعرف شكل رئتها، ولون نبضها جيداً، وسليمان العيسى عرف جيداً مفاتيح اللغة وكنوزنا وتمسك بها لذلك فاز بقلب هذه «الأنثى المتوحشة الرائعة».

لقد تشبّث بالينابيع والجذور والصخور، وبالقرية الخضراء والتنور، والكوخ الذي آوى أصالتنا، وقاوم كل بؤس الأرض، وصنع منها قصة حب لا تنتهي.. في ريفنا الأخضر كانت أناشيده ومواويله قصائد المنثور والزعتر..

سليمان العيسى، أيها الشاعر الجميل، والفارس العنيد الذي حمل القافية العربية قنديلاً ينير به حالكات الزمان، وأعوامه الثقال الطوال.. أيها الضوء المبكّر البعيد القريب.. أيها الفارس النبيل الذي كتب ملاحمه بالقلم، وغنّى العروبة ووقف لها عمره وشعره، وهي بالنسبة إليه ليست عبساً وذبيان، والبسوس، وداحس والغبراء، كما كانت تصورها لنا كتبنا الغبية.. وما تزال.. العروبة كما قلت عنها مراراً: نسيج حضاري هائل.. ضارب في أغوار التاريخ، تشابكت فيه ملايين الأصول والفروع، ليعطي الإنسانية أكرم ما أعطاه شعب على وجه الأرض..

أيها الشاعر الرائع الذي أيقظت جمرة الشعر، لتمدّنا كل يوم بنسغ جديد، يا كتاب المجد، يا من حمل القمر بين قبضتيه، وصفع الخطر واقسمت بالربيع «لم يمت الشجر».. يامن قلت:

أنا السراب..
وحسبي أن من ولدوا
على سرابي.. رأوا فيه طريق غدِ
كنتم أنا.. لم أكن إلا مواجعكم
في عبسة اليأس أو في بسمة الرَّغد
تركت خلفي سراديب الدّجى هذراً
ورحت أعصب رأسي بالضحى الغرد.

صورة الأم
في روميات أبي فراس الحمداني

❁
عمر الدقاق

في تاريخ العرب الحافل، وفي غمار أدبنا العربي الأصيل، شخصيات بارزة جمة تجلت في سيرها ملامح العظمة، وعاشت متألقة في ذاكرة الأمة. ولعل أرفعها منزلة، وأبعدها أثراً في النفوس، ندرة من الأعلام الذين اجتمع لديهم من عناصر الإبداع وسمات التفرد ما لم يجتمع لأحد آخر سواهم. وفي طليعتهم أبو فراس الحمداني(1) والمعتمد بن عباد الأندلسي وأسامة بن منقذ.

ومن الطريف المعجب أن نجد قواسم مشتركة وأوجه شبه عديدة في سير هؤلاء الأفذاذ.

❁ أستاذ في جامعة حلب، عضو مجمع اللغة العربية.

من ذلك أنهم جميعاً امتازوا بأبهة الملك وعزة الإمارة، وتوافرت فيهم عراقة النسب ورفعة المنزلة، كما أنهم تحلوا بالبطولة والبسالة، وبالعنفوان والفروسية.

وعلى صعيد آخر، قدّر لهؤلاء الثلاثة أن يشتهروا في عالم السياسة، وأن يكونوا شاهدين على عصرهم، حين جعلوا من أنفسهم دروعاً ضد أعداء أمتهم، المتربصين بالعرب والمسلمين. فأبو فراس حارب الغزاة من الروم البيزنطيين في شمال الشام، وابن عباد تصدى للفرنجة الأسبان في الأندلس، وابن منقذ وقف في مواجهة الصليبيين في ربوع حماة وشيزر. كذلك كتب على هؤلاء أيضاً أن يكونوا هدفاً لنوائب الزمان ونكبات الدهر، وأن تصير حياتهم في نهاية المطاف إلى مأساة، وأية مأساة...

ولعل أبرز ما يؤلف بين هؤلاء الأعلام أخيراً، أنهم جميعاً شعراء مبدعون، أغنت قصائدهم أدبنا العربي، وانطوت أشعارهم على مضمون مؤثر ومذاق متميز. وذلك كله هو ما جعل لأبي فراس وللمعتمد ولأسامة تلك الهالة المحببة التي شغفت بهم العرب وغير العرب، وأبقت صورهم متألقة في ضمير الأجيال عبر العصور.

وفي ديوان العرب، الحافل بروائع الشعر، ثمة مجموعات أثيرة من القصائد الجميلة السائرة التي اشتهرت باسم هاشميات الكميت وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية وروميات أبي فراس وسيفيات المتنبي، وحجازيات الشريف الرضي وروضيات الصنوبري ولزوميات المعري وأندلسيات شوقي...

أما روميات أبي فراس، وهي أجمل أشعاره، وأعذبها أسلوبا وأحفلها بالعاطفة، وأسيرها على الألسن، فتنطوي على جملة من الموضوعات المتواشجة والملتحمة دوماً بذات الشاعر وحياته. فيها تصوير لمعاناة الأسير ووحدته في غربته، وفيها فخر واعتزاز بسجاياه وعراقة قومه، وفيها عتاب حار لمليكه، وحرص دائب على استعطافه واسترضائه، وفيها تأملات وحكم طافحة بالشكوى والمرارة تجاه جور الزمان وتنكّر الصحب ولؤم الناس... ومثل هذه الموضوعات والمشاعر قد نجد لها أو لبعضها شبيهاً أو مثيلاً لدى عدد من الشعراء الذين كانوا عرضة لصروف الحدثان ومحن الأيام. غير أن ما لا نكاد نجد له نظيراً في أشعار العرب هو وجود حيز ذي شأن لصورة الأم، أم الشاعر أبي فراس في قصائده التي نظمها خلال احتجازه أسيراً في بلاد الروم، وقد بلغت ست قصائد روميات من بين سائر رومياته، اثنتان رائيتان (من وزن الوافر ومجزوء المتقارب)، واثنتان أخريان لاميتان (من وزن الطويل والمنسرح)، وقصيدة يائية (من مجزوء الرمل). ثم مقطعة صغيرة على روي الباء(من البحر الطويل). وهذا الكم من الأشعار التي تتمحور حول الأم، فضلاً عما انطوت عليه من غنى عاطفي، هو الذي جعل لقصائد أبي فراس خصوصية محببة، وتفرداً طريفاً يرقيان به إلى منزلة رفيعة في الأدب العربي.

ومـــا من ريب في أن لهـــذا التميز أسبابه في سيرة الشاعر الحمـــداني وفي شعره. فأبو فراس بات يتيم الأب وهو طفل في الثالثة من عمره بعد مصـرع والده. وكان على أمه أن توليه مزيداً من الحنان، عسى أن تخــف عنه وطأة فقده عطف الأب. ومثل هذا الوضع، بطبيعة الحال، هو الذي استدعى مزيداً من تعلق الولد بوالدته، والوالدة بولدها. حتى إن هـــذه الأم ملأت على ابنها كل عالمــه، وحرصت على أن تســـد في نفسه فراغاً عاطفياً كان لابد من سده.

وهـــذا التكون الذاتي في بنـــاء شخصية أبي فراس خلال طفولته وصباه هو الذي يفسر تفجر عاطفتـــه المختزنة في نفسه نحـــو أمه. على إذا الغـــرار من غزارة الشعر وتلهـب الشعور. فحين غـــدا أبو فراس في الثلاثين مـــن عمره راتعاً في ريعـــان الشبـــاب، مقبـــلا على مباهـــج الحياة، «أدركته حركـــة الأدب، وأصابته عين الكمال»[٢]، وكان أن كمن لـــه القدر، وأوقعه في الأسر، ورماه وراء القضبان. وهكذا لذعته حرق الفراق، وكوته الام الغربـــة. وحينئذ شق علـــى الابن الأسير أن يجد نفســـه بين عشية وضحاهـــا نزيل السجن، بعيداً عن الأم والأهل، نائياً عن الوطن والديار. فانكفأ على ذاته، يستدعـــي صورة أمه العجوز، ويعيش معها في مخيلته، وهي الأم الرؤوم التي لم يكن لها من أمـــل في حياتها سواه، كما لم يكن له من سند في حياته سواها.

هـــي ذي الآن في منبـــج، تـــتراءى له - على البعد - قابعة في دارهـــا، منطوية على أحزانها، تعد الأيام منتظـــرة إياب فلذة كبدها إليها، آملة أن تكتحـــل بمرآه عيناها، وأن تحتضنه يوم المنى ذراعاهـــا. وأغلـــب الظن أن هـــذه الحال، حال الوالدة العطوف على ولدها، المشغوفة به، جعلت منهـــا شخصية قلقـــة مشفقة، فهي تـــدرك أن ولدها مـــن أهم أعمدة دولة بنـــي حمدان، وأنه والي منبج وحران، حيـــث يعيش على مقربة من التخوم، والأعداء يتربصـــون بوطنه وقومه. كما كانت الأم تدرك في الوقـــت نفسه أن ابنها قائد عسكر، ولابـــد أن يخوض غمار المعارك، ويواجه في كل حين خطر الموت، لأن هذا هو قدره. فهي لذلـــك لا تني تعيش تحت وطأة هـــذا الهاجس، وتتوجس خيفة مما تخبئه له الأيام. أما هو فقد كان، بمـــا فطر عليه من حساسية مرهفة، يدرك حقيقة ما تنطوي عليه نفس أمه الجائشة. وآية ذلـــك أنه قال مجيباً أحـــد خلصائه[٣] الذي كتب إليه يوصيه بالصبر:

لقيت مـن الأيـــام كـل عجيبـة
وقابلنـي دهـري بوجـه قطـوب
وقــد علمـت أمـي بـأن منيتـي
بحـد سـنان أو بحـد قضيـب

وكان طبيعيـــا أن تثير هـــذه الشجون قريحة الشاعر في الأسر، وتدفعه إلى أن يصور في أشعاره بؤس حاله، ويشكو سوء مآله. ومما زاد هذا القائد السجين مرارة وأسى، أنه أخذ يعاني، في جملة ما كان يعاني، آلام جرح رغيب في جسده، من جراء سهم أصابه في ذلك اليوم المشؤوم، حين انغرست بقية نصل في فخذه. ودام على هذه الحال زهاء

سنتين ونصف، ولم يتم استخراج باقي النصل من بدنه إلا بعد أن شق عليه ست مرات حتى برئ منه. وفي هذا الصدد قال ابن خالويه مشيراً إلى قصيدة مؤثرة من الروميات الذائعة[4]: «... وقد ثقل أبو فراس من الجراح التي نالته وهو أسير، وكتب بها إلى والدته يعزيها»[5]:

مصابي جليل، والعزاء جميل
وظني بأن الله سوف يديل
جراح تحاماها الأساة مخوفة
وسقمان، باد منهما ودخيل

ولو كانت جراحاً وحدها لهان الأمر، ولكنها كما قال:

جراح وأسر واشتياق وغربة
أحمّل، إني بعدها لحمول

وتحت وطأة مصابه الجليل، وهو على تلك الحال في حصن (خرشنة) الموحش، لم يكن عليه سوى أن يتحمل ويتصبر، وهو الحمول الصبور.

الأيام تتوالى، والليالي تطول، والشاعر الأسير خلالها يتأرجح بين مد الأمل وجزر اليأس:

تطول بي الساعات وهي قصيرة
وفي كل دهر لا يسرك طول

وفي بحران ذلك الليل الطويل وظلماته الحالكة، حيث النجوم تبدو وكأنها مسمرة في السماء، لا تحول ولا تزول، وحيث لا أنيس ولا جليس، سوى الوحدة والوحشة. كانت تطل على الغريب السجين من وراء الحجب صورة والدته الغالية الرؤوم، فيأنس بمرآها، ويسعد بمحيّاها. ولكن أي عيش كانت تعيشه؟. إنه يراها الآن بعين الخيال، لاتهدأ لها زفرة، ولا ترقأ لها دمعة:

وإن وراء الستر أماً، بكاؤها
عليّ، وإن طال الزمان، طويل

إن حالتها تدعو إلى الإشفاق، وما عليه، وهو في أسوأ حال، كحالها، إلا أن يناجيها بأسى، ويناشدها التذرع بالصبر:

فيا أمتا، لا تعدمي الصبر، إنه
إلى الخير والنُّجح القريب رسول
ويا أمتا، لا تحبطي الأجر، إنه
على قدر الصبر الجميل، جزيل
ويا أمتا، صبراً، فكل ملمة
تجلّى على علاتها وتزول

إنه هو الصبر، إذ ليس ثمة في تصور أبي فراس من معين على نوائب الدهر سواه. وإن ورود كلمة الصبر ثلاث مرات في هذه الأبيات الثلاثة يعني أن الشاعر الأسير بات يشعر أنه لم يعد له حول ولا قوة، فلم يجد بديلا عن ذلك إلا الصبر، إذ ما من دواء تجاه حدثان الدهر سواه. كذلك نجد في تكرار لفظ أمي، أو أمتا في الأبيات نفسها ثلاث مرات أيضا. وفي مستهل كل بيت، ما ينم على حميمية ملحة في نفس أبي فراس تجاه أمه الرؤوم منذ أن كان وليداً بين ذراعيها.

ويتبدى لنا، من خلال هذه القصيدة اللامية الطافحة بالمشاعر القاتمة والمفعمة بالمرارة والأسى، أن أبا فراس، برغم ما هو فيه من هم مقيم وأسى دفين، شديد الحرص على أن يفتح أمام هذه الأم المعنّاة كوة التفاؤل، ويمنّيها بقرب

الخلاص. ولكن ربما تراءى لأبي فراس أن الصبر وحده قد لايكون ناجعاً مجدياً، إذ الإيصاء به ضرب من النصح، أو طرف من الوعظ، وما كل امرئ قادر على التجمل به. ولذلك قرّ في ذهنه أن الأسوة الحسنة خير ما يعين على مواجهة الحياة، ولا سيما حين تتألق أمام المرء، وهو في ظلمات المحن، نماذج حية لأناس بعينهم كانوا أفذاذاً في تحدي المصاعب، من مثل بعض النساء المؤمنات الراشدات في فجر الإسلام. وما أجدر أم الأسير الحانية، بأن تهتدي بأم قوية صالحة، مثل أسماء بنت أبي بكر الصديق، عسى أن تجد في وقفتها الرائعة مع ابنها عبد الله بن الزبير، يوم حوصر في مكة، قدوة صالحة، فقد آثرت له الموت بعزة على الحياة بذلة(١):

أما لك في ذات النطاقين أسوة

بمكة، والحرب العوان تجول

أراد ابنها أخذ الأمان فلم تجب

وتعلم، علماً أنه لقتيل

تأسّي كفاك الله ما تحذرينه

فقد غال هذا الدهر قبلك غول

ويمضي أبو فراس في رسالته الشعرية إلى أمه على هذا الغرار، فيضرب لها أمثولة طيبة أخرى من سير عظيمات النساء العرب جديرة أيضا بأن تحتذى. إنها مأساة امرأة من السلف الصالح كتب عليها أن تمتحن بأقسى ما تمتحن به امرأة في الحياة. لقد حضرت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول (ص) يوم (أحد) الدامي، وكانت امرأة باسلة وشاعرة رقيقة، فوقعت عيناها على أخيها حمزة مقتولا في أبشع حال، بعد أن عمد وحشي الحبشي إلى بقر بطنه وشق أحشائه، بتحريض هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، التي راحت تلوك كبد سيد الشهداء، إمعانا منها في الحقد والتشفي. وقد كره الرسول (ص) يومذاك أن ترى صفية أخاها على تلك الصورة المؤلمة، فناداها ابن الزبير أن تنتحي، فزجرته وأقبلت على حمزة حتى رأته، وذرفت عليه أحر الدموع، وأنشدت فيه أشجى الأشعار. أجل، هذا هو النموذج الأمثل للمرأة المتجلدة التي يحض الشاعر أمه على أن تكونه:

وكوني كما كانت «بأحد» صفية

ولم يشف منها بالبكاء غليل

ولو رد يوما «حمزة الخير» حزنها

إذاً ما علتها رنة وعويل

وتمضي الأيام من دون أن تحمل للشاعر الأسير ولأمه الصابرة أي جديد... ولايجد أبو فراس بداً من أن يعاود تدبيج رسائله وقصائده من دون هوادة. إنه ينعطف من حنايا الغابر إلى مواقع الحاضر، لعل أمه المعذبة تطمئن إلى سيف الدولة، ابن العم والأمير، والقادر والمجير:

وما دام سيف الدولة القرم باقيا

فظلك فياح الجناب ظليل

عساه، وقد أحسنت ظني بفضله

يجود بتخليصي لكم وينيل

وبذلك يبقي أبو فراس على كوة الأمل مفتوحة، وباب الخلاص مشرعاً. ومن المرجح أن هذه القصيدة اللامية من أوائل قصائده التي

يذكر فيها أمه، إن لم تكن أولاها. وآية ذلك أن الشاعر الأسير يتحدث فيها عن جراحه النازفة التي خلفتها المعركة في جسده، حين غاصت بقية نصل في فخذه، ولم يكن قد برئ وعوفي.

* * *

عليّ أن أخشى ما كان يخشاه الشاعر الحمداني في قصائده التالية وهو الفارس البطل والقائد الباسل، أن تلوكه ألسن الناس، وأن يظنوا به الظنون، فيروا فيه استكانة وخوراً، وأنه خاف الموت يوم المعركة، وآثر النجاة والحياة، كما أنهم قد يظنونه الآن ضائقاً بحياة السجن، متهالكاً على طلب الفداء. ولكن. لا، ليس شيء من ذلك في جبلته وطبعه. وإذا كان قد بدر منه في سابق أشعاره ما ينبئ عن تشبثه بالحياة، ولهفته على الفكاك من الأسر، فما ذلك منه إلا حرص على إسعاد تلك الوالدة الحزينة، ورحمة بشيخوختها، وإزالة الكرب عنها. هذا هو ما يود أبو فراس الأبي أن يعلنه على رؤوس الأشهاد في قصيدة أخرى من رومياته[7]:

لولا العجوز بمنبج
ما خفت أسباب المنية
ولكان لي عما سألت
من الفدا نفس أبية
لكن أردت مرادها
ولو انجذبت إلى الدنية

كان هذا هو دأبه مع أمه القابعة في ركن دارها بمنبج، يرسل إليها مع الريح في كل غداة تحيات مفعمة بالحب والشوق، أليست هي المرأة الصالحة الفاضلة، والورعة التقية:

فيها التقى والدين مجموعان في نفس زكية

وأغلب الظن أن الشاعر الأسير نظم قصيدته هذه في مرحلة متأخرة وهو خلف القضبان فهي تنطوي على قدر من المشاعر القاتمة لم يكن له وجود بارز في سائر أشعاره من قبل. فآمال أبي فراس في مبادرة سيف الدولة المنشودة لفدائه قد تضاءلت، وران عليه كثير من مشاعر اليأس والإحباط، فلم يعد يجد ملاذاً له في محنته إلا الله.

وفي غمار هذا الاكتئاب الثقيل تطير قوافي أبي فراس المعهودة إلى أمه دون أن تحمل إليها بعض الأمل والرجاء. إن ما لديه من الترياق لم يؤت أكله، ولكنه مع ذلك لا غنى عنه، فليعاود وصفه لأمه العليلة المؤمنة. إنه الصبر مرة أخرى، والله المستعان[8]:

يا أمتا، لا تحزني
وثقي بفضل الله فيه
يا أمتا، لا تيأسي
لله ألطاف خفيه
كم حادث عنا جلاه
وكم كفانا من بليه
أوصيك بالصبر الجميل
فإنه خير الوصيه

هذا الدواء الأوحد المعهود، أو العلاج المأمول المنشود، طال عليه الأمد وقارب النفاد، من دون أن تلوح في الأفق بارقة في انفراج المحنة

وانكشاف الغمّة. ويبدو أن أبا فراس الذي دأب على توصية أمه بالصبر، بات في أسوأ حال، بعد أن طال تجرعه لهذا الدواء المر. فاقد تعاطاه وتعاطاه، ولكن من دون برء ولا شفاء. والآن، لا عليه، وقد نفد هذا الصبر أو كاد، سوى أن يستسلم لأساه الدفين، وهمه المقيم، وليدع عينيه تسحان بالدمع الغزير، حنيناً إلى ربوع قومه، وشوقاً إلى أفلاذ كبده وذراعي أمه(٩):

لأيكم أذكر ... وفي أيكم أفكر
وكم لي على بلدتي ... بكاء ومستعبر
ففي حلب عدتي ... وعزي والمفخر
وفي منبج من رضاه ... أنفس ما أذخر
ومن حبه زلفة(١٠) ... بها يكرم المعشر
وأصبية كالفراخ(١١) ... أكبرهم أصغر
يخيل لي أمرهم ... كأنهم حضّر
فحزني لا ينقضي ... ودمعي ما يفتر

هذه القصيدة الرائية تنطوي على إشارات ذات شأن، إذ تصف ما آلت إليه حال أبي فراس، وأيضاً حال أهله الأقربين في هذه المرحلة المتأخرة من أسره. فهذا المطلع «لأيكم أذكر» خطاب بصيغة الجمع موجه إلى الذين محضهم وده وحبه من أسرته وخلصاء صحبه. وهذا الإجمال الذي يدل في الوقت نفسه على قدر من التعميم ينم على حال شديدة الوطأة من مشاعر الهم والقلق والحيرة والضيق. فالأحبة كثر، وفيهم، بطبيعة الحال، أمه الأثيرة إلى قلبه. ولكن من هم الذين عليه أن يذكرهم، ومن هم الذين يتفكر فيهم، وكلهم لديه غال عزيز؟ وفي هذا المنحى من الإشارة والإلماح جمال لا يتأتى في أسلوب المباشرة والإفصاح. وقد تابعه أبو فراس فيما تلا من أبيات القصيدة حين ألمح أيضاً بأن في حلب من هو عدته وعزته ومفخره، ويعني سيف الدولة. والشأن نفسه في ذكره للغالي المقيم في منبج الذي يعد رضاه أنفس ذخر للولد البار بأمه.

ولعل الجديد، أو غير المعهود في هذه القصيدة السلسة المجزوءة البحر، أن أبا فراس، بعد أن ذكر أمه وأميره، عمد إلى الإعراب عن شوقه إلى أولاده ولهفته على رؤيتهم، ولا سيما أنهم مازالوا كالأفراخ، كبيرهم صغير. إنه يراهم بعين الخيال، يرتعون ويمرحون وكأنهم ماثلون أمامه. وإذا كان هذا هو حال أحبته المقربين الذين ضمهم جميعاً إلى قلبه، أمّاً، وابن عم، وأبناء، على بعد المزار، وطغيان الشوق، فلا عليه أن يحزن على نأيهم حزناً وارياً، وأن يذرف على فراقهم دمعاً غزيراً.

* * *

الأعوام تمر، والأسر يطول. والزمن يفعل فعله في تلك الأم، فتشتد عليه وطأة المرض، كما

يفعل فعله في نفس الابن البعيد، فيغوص في لجج الكآبة، وتغلب عليه مشاعر اليأس والقنوط. لقد سدت أمامه منافذ الخلاص، ولم يجد له متنفساً من ضيقه سوى الأشعار يبث من خلالها زفرات المرارة والأسى، ولوعة الشوق والفراق.

يقول ابن خالويه صفيّ أبي فراس ومعلمه وجامع شعره، بصدد نظمه لاميته المؤثرة الشهيرة [١٢]: «ولما طال الأمر على والدته، خرجت من منبج إلى حلب. وراسلت سيف الدولة»، بعد أن عزت في سبيل فكاك ابنها كل وسيلة. فالرياح أخذت تجري بما لا تشتهي السفن. إذ «وافق ذلك - كما يقول- ابن خالويه ان البطارقة قد قيدوا في حلب، فقيد أبو فراس في الأسر [١٣]». إنها المعاملة بالمثل في عالم السياسة بلغة أيامنا هذه، ورأت الأم المعناة أبداً «أن الأمر قد عظم، فاعتلت من الحسرة، وبلغ ذلك أبا فراس [١٤]»، فحزن واغتم، ونفث ما في صدره من زفرات، وما في قلبه من حسرات:

يا حسرة ما أكاد أحملها

آخرها مزعج وأولها

عليلة بالشآم مفردة

بات بأيدي العدا معللها

تمسك أحشاءها على حرق

تطفئها، والهموم تشعلها

إذا اطمأنت - وأين - أو هدأت

عنت لها ذكرة تقلقها

وتتراءى -على البعد- للأسير المشوق أمه القلقة المؤرقة، وهي تلوب عبر الدروب دون أن يقر لها قرار، أو يطمئن لها بال:

تسأل عنا الركبان جاهدة

بأدمع ما تكاد تمهلها

يامن رأى لي الدروب شامخة

دون لقاء[١٥] الحبيب أطولها

يامن رأى لي القيود موثقة

على حبيب الفؤاد أثقلها

❁ ❁ ❁

يا أيها الراكبان: هل لكما

في حمل نجوى يخف محملها

قولا لها. إن وعت مقالكما

وإن ذكري لها ليذهلها

يا أمتا. هذه منازلنا

نتركها تارة وننزلها

يا أمتا هذه مواردنا

نعلها تارة وننهلها

وإذ يجلو أبو فراس صورة أمه التاعسة على هذا النحو المؤثر، لا يلبث أن ينعطف - كدأبه في نهاية قصائده المشابهة - إلى إثارة أصل المشكلة:

أسلمنا قومنا إلى نوب

أيسرها في القلوب أقتلها

ففي هذا البيت تعبير مرير عن شعور الخيبة والأسى، بعد ما آلت إليه الأحوال من التردي. وفيه أيضا- ولعل هذا هو بيت القصيد- تعريض خفي بسيف الدولة الذي بدا لأبي فراس أنه تناسى قضيته، وتقاعس عن بذل الفداء له.

ومــع ذلك، فأبــو فراس كان يــدرك ما كان عليــه الوضع السياسي من تــأزم وتعقيد، ويوقن أيضــاً أن سيــف الدولة هو القــادر -إذا شاء- علــى إخراجه وإخراج أمه من محنتهما معا. وإذ تكون بيد الأمير الحمــداني وحده مفاتيح الحل والعقد، فلا على أبي فراس أن يراوح في أشعاره إلى سيف الدولة بين الجرح والتعديل، إذ الترفّق في مثل هذا المقام الحساس حكمة وتعقل. وعلى ذلك يجنح الشاعر الأسير إلى معاتبة مليكه وإلى استعطافه معاً، من دون أن يضن عليه بما يتحلى به من كريم السجايا والشيم، عسى أن يكون بعد كل ذلك في القوس منزع، وفي الأمل شعاع:

يــا سيــدا مــا تــعــد مكرمة
إلا وفي راحــتــيــه أكــمــلــهــا
بــأي عــذر رددت والــهــة
عليك دون الــورى معوّلها
جــاءتــك تمتــاح رد واحــدهــا
ينتظر الناس كيف تقفلها
إن كنت لم تبذل الفداء لها
فلم أزل في رضــاك أبذلهـا

وفي ضــوء ما تقدم، بوسعنــا القول إن هذه القصيــدة الذائعة تمتــاز من سائــر الروميات بطولها النسبي، وبكون معظم أبياتها تنصب على أم أبي فراس التي التحمت قضيتها بقضيته التحاما وثيقــاً، كل ذلك من خلال أبيات مفعمة بأرق المشاعر، حافلة بأدق المواقف. على أن هذه القصيــدة الجميلة بسلاستها وعذوبتها، تعد من وجهة أخرى وثيقة تاريخيــة ذات شأن، إذ تلقي ضوءاً علــى تلك المرحلة المثيرة والمضطربة في حيــاة الأسرة الحمدانية. ولطالما كانــت أشعار العــرب عوناً للمؤرخــين، وسندا لهــم في كتابة أسفارهــم، وتدوين أحــداث عصرهم، إذ الشعر ديوان العرب.

❁ ❁ ❁

ومــرَّ حين، حدث بعده ما لابد منه. لقد حل الأجل المحتوم، فماتــت الأم العليلة كمداً ويأساً. وفجــع الابن الصابر بالنعي الأليم، وهو ما يزال رهين الأسر نزيل السجــن، نهاره كليله وصباحه كمسائه. ولم يبق عليه - كدأبه في مغتربه- سوى أن ينفث الزفرات اللاهبة، على أجنحة القوافي الدامعــة. وبفيض من مشاعر البــر والإحسان، والإجلال والوفــاء، راح الشاعــر الحزين يرثي فقيدته الراحلة، داعيا لهــا بالسقيا، مستمطرا عليها الرحمة[16]:

أيــا أم الأســيــر، سقــاك غيث
بـكـره مـنـك مـا لـقـي الأسـيـر
أيــا أم الأســيــر، سقــاك غيث
تحير لا يقيم ولا يسير
أيــا أم الأســيــر، سقــاك غيث
إلى من بالفدا يأتي البشير
إذا ابــنــك ســار في بــر وبحر
فمن يدعو له أو يستجير
حــرام أن يبيت قــريــر عين
ولــؤم أن يلم بــه الســرور
وقــد ذقــت المنــايــا والــرزايــا
ولا ولــدٌ لــديــك ولا عشير

وغـاب حبيبُ قلبك عـن مكان

ملائكـة السـماء بـه حضـور

* * *

ليبكك كـل يـوم صمـت فيـه

مصـابـرة، وقـد حـمي الهجير

ليبكك كـل يـوم قمـت فيـه

إلى أن يبتـدي الفجـر المنير

ليبكك كـل مضطهـد مخـوف

أجـرتـيـه[١٧] وقـد قـل المجير

ليبكك كـل مسكين فـقير[١٨]

أغـثـتيـه، ومـا في العظـم زير

أيـا أمــاه، كـم هَـمٍّ طـويل

مضى بـك لم يـكـن منـه نصير

أيـا أمــاه، كـم سـر مصـون

بقلبـك، مـات ليس لـه ظهـور

أيـا أمـاه، كـم بشرى بقربي

أتـتـك، ودونهـا الأجـل القصير

إلى مـن أشتـكي ولمـن أناجـي

إذا ضاقـت بمـا فيها الصدور

بـأي دعـاء داعيـة أوقـى

بـأي ضيـاء وجـه أستـنير

بمـن يستـدفع القـدر أوقـى

بمـن يستفتـح الأمـر العسير

هـذه المرثية الدامعة التـي كانت من أواخر روميات أبي فراس، من أرق ما نظمه شاعر في مناجاته لأمه. إنها بكائية حارة ومؤثرة، طافحة بأشجى المشاعر. لقد شعر أبو فراس إثر رحيل أمه بفداحة الخطب، فصور بلوعة بؤس حاله، وما آل إليه أمره من إحساس بالوحشة بعدها.

وقد افتقد بموت هـذه الأم الحنون كل ما كانت تكن له مـن عطف وحنان، فأخذ يبكيها بحرقة، ويأسى على جمال سجاياهـا، وحسن فضائلها، وشدة تقاها وطيب نفسها. إنـه الوفاء الجم، والمحبة الخالصة، والحزن الواري.

ومن المعهود في مثل هذه الأشعار التي تعبر عن العواطف اللاهبة، وتصور حالة الفجيعة أو الصدمة أن يتردد فيهـا العديد من التساؤلات، ويتوالى فيها الكثير من صيغ الاستفهام. وهذا يعكس إلى حد كبير ما يضطـرم في النفس من مشاعر الهم والقلق، وبواعث الحيـرة والاضطراب. من هذا القبيل ورود «كم» التكثيرية أو الخبرية عدداً من المرات في أبيات القصيدة: «كم همّ، وكم سر، وكم بشرى....» كذلك ورود صيغ استفهام أخرى كثيرة مثل: «إلى من أشتكي، ولمـن أناجي، وبأي دعاء، وأي ضيـاء، وبمن يستدفع القدر، إلخ...» حتى بلغ عـدد هذه الصيـغ في القصيدة اثنتي عشرة مرة.

وثمة ملامح أسلوبيـة أخرى تتبدى في هذه المرثية النائحة، حيـث تتوالى في أبياتها عبارات كثيرة مكـرورة، كأنها صرخات قصيرة لاهثة تند عن نفس جائشـة فجعها مصاب جلل. وفي هذه الحال من الأحزان الواريـة التي تستبد وطأتها في النفس المنكوبة، يغدو التكرار اللفظي ظاهرة تعبيرية ملازمة للشعور، ومعادلاً موضوعياً موازياً للعاطفـة. وقد عهدنا هـذا التكرار في بعض ما سبـق إيراده من أشعار أبي فراس في أمه، وأيضاً خلال كثير من البكائيات أو النواحات التي تصور

حدة العاطفة واحتدامها في النفوس، ولا سيما ما نظمته الأمهات الثكالى، أو سائر من فجعوا بأعزتهم في الحياة، ومن أبرز من تتجلى في أشعارهم هذه الظاهرة الأسلوبية الخنساء خلال مراثيها لأخيها صخر. وعلى هذا الغرار ثمة عبارات عديدة تتردد في مطالع جملة من أبيات القصيدة وعلى نحو من التوالي. فقد استهل أبو فراس نجواه بعبارة «أيا أم الأسير» ثلاث مرات، وعبارة «ليبكك» أربع مرات، ثم «أيا أماه» ثلاث مرات، وهكذا.. مما يدل على شدة وقع النعي ووطأة الحزن وغلبة التأثر.

ويبدو واضحاً من ألفاظ المرثية وصورها، وما ينطوي عليه مضمونها من مشاعر الأسى والمرارة، وما يسود أسلوبها من عبارات التساؤل والتكرار أن أبا فراس نظم قصيدته، وجرحه بوفاة أمه ندي. وفي نهاية المطاف، وبقدر وافٍ من التسليم بقضاء الله وقدره، ختم أبو فراس رثاءه لأمه وهو يودعها:

نسلّى عنك أنا عن قليل

إلى ما صرت في الأخرى نصير

أجل. إن العزاء للمحبين المفجوعين بأحبتهم أنهم لاحقون بهم عاجلاً أو بعد حين. وأبو فراس الذي قيض الله له أخيراً الفكاك من إساره المضني، مالبث- وكما قال في آخر قصيدته - أن بدا كمن ينعى نفسه، فإذا هو بعد أمد قصير، قد صار إلى ما صارت إليه أمه قبله. وبذلك ضمت جسديهما أكوام التراب، بعد أن باعدت بينهما صروف الدهر.

هكذا قضي الأمر، وطوى الزمان صفحة ابنٍ بارٍّ معنًى، وشاعر رقيق مبدع. مات أبو فراس، الوفي لأهله وبلاده، الحاني على أمه وأولاده. لقد أغمض عينيه إلى الأبد أمير فارس أنزلته الأيام عن ظهرها، وهو في ربيع العمر، وجراحه تنزف بين يدي ابنته اليافعة، وهو يبثها آخر أشعاره، مع آخر أنفاسه، راثيا نفسه(١٩):

زين الشباب أبو فراس لم يُمَتَّعْ بالشباب

❁ ❁ ❁

ومن المعهود في معطيات النقد الأدبي - قديمه وحديثه- أنه لاغنى للشاعر عن وجود حافز يحفزه إلى النظم، أو باعث يثير في نفسه الرغبة في التعبير. إذ إن ما يحرض القريحة، ويدفعها إلى الإبداع هو شدة المعاناة وحرارة التجربة، وهذا يشمل جميع أغراض الشعر. من حيث تلهب مشاعر الحب والشوق، والإعجاب والبغض والإشفاق والحزن.. ولعل مشاعر الألم والمرارة، والإحباط واليأس، أقرب إلى أن تكون القاسم المشترك في معظم ما خلفته لنا قرائح الشعراء من روائع الشعر. ولسنا ندري كيف يغدو حال الإبداع لو خلت نفوس الشعراء من بواعث الألم التي استبدت في قرائح الخنساء والمجنون، وأبي فراس وابن زيدون، وأبي الطيب وأبي العلاء، ثم الشابي وجبران.

وإذا لم يكن بوسع نظرية الألم أن تفسر انبثاق جميع مقومات الإبداع، إلا أنها قادرة على تعليل الكثير من عناصره ونماذجه، على صعيد الشعر والموسيقى والتصوير، وسائر الأعمال الفنية

بوجه عام. ومن قبل قال الشاعر الرومانسي الفريد دوموسيه: «لا شيء يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم».

هكذا كان حال أبي فراس في حياته وفي شعره، حين كتب عليه أن يتجرع مرارة الانكسار، وذل الإسار، والغربة عن الديار. لقد صهرت نفسه تلك المحن والآلام، فكان لتراث العرب من كل ذلك، هذا الشعر البديع، إذ إن الوتر لاينطق إلا إذا جرح.

الحواشي

١- هو الحارث بن سعيد بن حمدان. ولد في الموصل سنة ٣٢٠هـ، ٩٣٢ م من أب عربي وأم رومية. وكناه والده أبا فراس، وهي سمة الشجاعة وكنية الأسد. قتل أبوه وهو طفل في الثالثة من عمره، فرعاه الأمير الحمداني سيف الدولة، وهو ابن عمه وزوج اخته، ثم ولاه منبج وحران. جرح في معركة مع الروم البيزنطيين ووقع في أسرهم سنة ٩٥٩م. وهو موف على الثلاثين من عمره، وقضى في الأسر بضع سنين إلى أن أفتدي وفك أسره عام ٣٥٥ هـ، ٩٦٦م. وقد توفي سيف الدولة بعد ذلك بعام ونيف سنة ٣٥٦ هـ،٩٦٧م. أما هو فقتل في معركة في ظاهر حمص بنتيجة صراع داخلي على السلطة سنة ٣٥٧هـ. ٩٦٨م. وهو في السادسة والثلاثين.

٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي،٦١:١، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٧م.

٣- هو أبو الحسن محمد بن الأسمر.

٤- ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق سامي الدهان ٢:٢٥، بيروت ١٩٤٤م. ويتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ١:٨٠، القاهرة ١٩٤٧م.

٥- ديوان أبي فراس ٢:٣١٢- ٣١٨، ويتيمة الدهر٦١ : ١.

٦- سميت أسماء، أو لقبت بذات النطاقين، لأنها في رأي الأقدمين صنعت للنبي (ص) ولوالدها أبي بكر الصديق الذي لزمه يوم الهجرة إلى المدينة، زاداً يطعمانه، وجعلته في نطاقين حول خصرها، وفي رأي آخر، أنها لم تجد ما تشد به الطعام، فشقت نطاقها لهذا الغرض.

٧- ديوان أبي فراس الحمداني ٢:٤٣٣-٤٣٥، ويتيمه الدهر، الثعالبي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ٦٥ : ١، القاهرة ١٩٤٧م.

٨- القصيدة كاملة في ديوان أبي فراس الحمداني ٢،٢٠٦-٢٠٧.

٩- ديوان أبي فراس ٢-١٠٠، ويتيمة الدهر ١:٦.

١٠- زلفة: قرابة ومنزلة حسنة. وفي يتيمة الدهر«ومن حبها» أي أمه....

١١- أصبية بفتح الأول، وصبية وصبيان وصبوة وصبوان، كلها جمع صبي، والصبي من لدن يولد إلى أن يفطم.

١٢- القصيدة كاملة في ديوان أبي فراس، ٢:٣٢٩، وهي واردة في يتيمة الدهر ٧٤/١.

١٣- ديوان أبي فراس ٢:٣٢٩.

١٤- ديوان أبي فراس ٢:٣٢٩.

١٥- تسأل هل من سبيل لاجتياز هذه الاراضي المرتفعة والطرق الوعرة الطويلة... وفي البيت دلالة جغرافية على هذه المنطقة من شمالي بلاد الشام التي تليها بلاد البيزنطيين أو ما يعرف ببر الأناضول.

١٦- انظر الأبيات وسائر القصيدة في ديوان أبي فراس ٢:٢١٦ - ٢١٨

١٧- لغة ضعيفة لدى بعض القبائل ومثلها أغنتيه في البيت الذي يليه، والسائد دون ياء.

١٨- الزير: الدقيق من الأوتار، ولعله يريد أن العظم رقيق والجسم واه ضعيف.

١٩- يتيمة الدهر، ١:٨٨.

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

د. ملكة أبيض ❁

يعدُّ القرن العشرون في الوطن العربي قرن الأدب الثوري بامتياز. ذلك أنه شهد حركات المقاومة: مقاومة التسلط العثماني أولاً، ثم الصراع مع الاستعمار الأوروبي بجميع أشكاله فيما بعد، ومواجهة الاستيطان الصهيوني وما ارتبط به من عمليات إبادة للشعب العربي الفلسطيني، واحتلال لأراض عربية مجاورة. وخلال هذا الصراع، وهذه المواجهة، كانت الكلمة المخلصة الواعية تثير الشعور، وتُفتِّح الوعي، وتدفع إلى مواصلة النضال.

لقد شهدنا ذلك في المشرق العربي في كتابات شعراء وأدباء أفذاذ من أمثال الشاعر القرويّ، والأخطل الصغير، وحافظ إبراهيم، وعمر أبو ريشة، وسليمان العيسى، وصدقي

❁ كاتبة ومترجمة وأستاذة التربية في جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

إسماعيل، وهاني الراهب، وحيدر حيدر... كما شهدنا في المغرب العربي الأدب المكتوب باللغة الفرنسية لشعراء وروائيين كبار أمثال كاتب ياسين، ومالك حداد، ومحمد ديب، ومولود فرعون، ومولود معمري.. وذلك من خلال ترجمته إلى اللغة العربية.

ويسعدني -أنا وزوجي الشاعر سليمان العيسى- أن نكون من الأوائل الذين عملوا في تعريب ذلك الأدب. فقد ترجمنا ديوان «الشقاء في خطر» لمالك حداد، ورواية «نجمة» ومسرحيتي: «الجثة المطوقة»، و«الأجداد يزدادون ضراوة» لكاتب ياسين.

في تقديمي لديوان سليمان العيسى «صلاة لأرض الثورة»، ذكرتُ أن وراء اتخاذ القرار ببدء هذه الترجمة كانت زيارة الروائي والشاعر الجزائري مالك حداد عام ١٩٦١م إلى سورية لاطلاع الأشقاء السوريين على أوضاع الثورة الجزائرية وحاجتها إلى دعمهم المادي والمعنوي، قلت:

لقد التقى مالك حداد أبناء الإقليم الشمالي في دمشق وحلب، وتحدث إليهم عن المعجزة الجزائرية، وعن دور الأدباء الشبان فيها. فكان إخوانه -وجلهم لا يجيد الفرنسية- يصغون إليه بكل جوارحهم.. كانوا يقرأون كلماته في عبارات وجهه، ويقاطعونه بالتصفيق والهتاف؛ فلا يملك إلا أن تخضلّ عيناه بالدموع، ويعلّق قائلاً: إن مأساتي تتجلّى لي الآن بشكل أعمق. إني أقف بينكم عييًا لا أعرف كيف نتفاهم!

لقد ذاق ابن قسنطينة التشرد والغربة مذ كان طفلاً.. ولكن غربته هذه تهون إذا ما قيست بغربته الثانية.. بمنفاه الثاني -كما يسميه- إنه اللغة الفرنسية، وسيلته الوحيدة للتعبير عن نفسه.. عن كل ما يضطرم في صدره من حب لبلده وثورة وغضب لاحتلاله.

إن مالك حداد ورفاقه كاتب ياسين، ومحمد ديب، ومولود فرعون، ومولود معمري.. الناطقين بالفرنسية، يعيشون في منفى هذه اللغة، وشاء القدر أن يحملوا مسؤولية التعبير عن آلام الجزائر وآمالها، وثورتها التي لم تهدأ منذ وطئت قدم الاستعمار البغيض هذه الأرض الطيبة.

لقد عملت فرنسا بكل ما أوتيت من وسائل على أن تقتلع الجذور العربية من أرض الجزائر.. وتزوّر كل شيء فيها حتى التراب.

وبدأت باللغة.

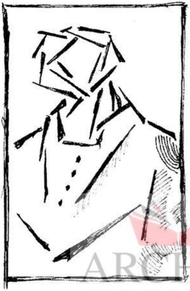
شنّتها حرباً ضروساً على اللغة العربية، فحرَّمتها على كل شفة ولسان، وفرضت اللغة الفرنسية فرضاً على كل جزائري.

ويعتذر مالك لصديقه: لا تلمني يا صديقي إذا لم يطربك نشيدي. لقد شاء لي الاستعمار أن أحمل اللكنة في لساني.. أن أكون معقود اللسان.. لو كنت أعرف الغناء لتكلمت العربية.

ثم يقرأ من ديوان صغير كان يحمله أبياتاً مؤثرة تتحدث عن معنى خسرانه اللغة العربية:

«أبي يا أبي!

لماذا حرمتني تلك الموسيقا المنسوجة من لحمي ودمي؟



انظر إليّ
إلى ابنك..
ابنك الذي يلقن أن يقول في لغة غريبة
تلك الكلمات الحلوة التي كان يعرفها
عندما كان راعياً...
يا إلهي!
ما أشد وطأة الظلام في عينيّ هذه الليلة!
أماه.. يا مه!
هل يمكن أن يكون اسمك ma mère؟
لقد فقدت برنسي، وبندقيتي، وقلمي..
لقد حملتُ اسماً أشد زيفاً من مظهري».

ويهز ابن أنطاكية رأسه ويُطرق في ألم عميق:

لقد فرّ هو الآخر من منفى اللغة التركية.. لقد اجتاز الحدود وهو فتى صغير. و اجتاز معها داره، وبستانه، وأهله..

إن مالك يتحدث باسم غرباء العربية.. باسمهم جميعاً.. أيكون غريباً بعد ذلك أن ينطلق سليمان العيسى من هذا اللقاء الخاطف فيكتب مجموعته الجديدة «صلاة لأرض الثورة»، في خمسة عشر يوماً فقط؟

أما أنا فقد انطلقتُ من هذا اللقاء إلى ترجمة الديوان الصغير الذي أهدانا إياه مالك حداد وهو بعنوان «الشقاء في خطر»، وكانت تلك بداية عملي في ترجمة نصوص من الأدب الجزائري إلى اللغة العربية.

لقد شدّني إلى هذا الأدب أنه أدب ملتزم. يقول مالك حداد في «**الشقاء في خطر**»:

«نحن ملتزمون... قد يشغل غيرنا عبث الحياة، وقد يفلسف بعضهم القلق والسأم.. أما نحن -أبناء الشعب الجزائري الذين فتحنا عيوننا يوم ٨ أيار ١٩٤٥م على مأساة شعبنا- فلم نستطع أن نحذو حذوهم، لقد اخترنا طريق الثورة الذي اختاره شعبنا.. الثورة على الجيش المحتل الذي يركلنا بأقدامه، ويُلقي بآبائنا وأشقائنا صرعى أمام أعيننا.. الثورة على «المعمّرين» الذين سلبونا أرضنا، واستثمروا كرومنا وبرتقالنا... الثورة على المرتزقة مديري المعامل والورش الذين يُعملون فينا سياطهم ويعطوننا بالمقابل أجراً لا يسد الأفواه الجائعة التي نعولها...

لقد اهتم الأدباء الجزائريون بأوضاع شعبهم فوقفوا عندها، وانطلقوا باحثين منقّبين، يمعنون النظر في كل جرح، وينصتون إلى كل زفرة. وعادوا بذاكرتهم إلى الوراء.. إلى أيام طفولتهم التعيسة.. إلى شقاء آبائهم وأجدادهم، فاكتملت الصورة لديهم.. صورة الوطن الطعين.. صورة الشعب الأبيّ الذي تملأ صدره الآمال، ويشط به الطريق إليها.

إن هؤلاء الأدباء مع الإنسانية المعذّبة كلها، ولكنهم يبدأون من عذابهم الخاص.

يقول مالك حداد:

«أبداً «بغلمة»(١) و«الجرجرة»(٢)، ولا عليك أن تكتب بعد ذلك ما تشاء.. أورادور(٣) مثلاً، أو أوكرانيا»(٤).

إنهم ليسوا ضد الشعب الفرنسي.. ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك.

فالملايين من الفرنسيين أفراد كادحون مثلهم..

إن مالك حداد يتحدث عن فرنسي كهل يعمل في صنع الأحذية حتى ساعة متأخرة من الليل. وخلال ذلك يداري جوعه بكسرة من الخبز المدهون بالجبن. وهو يدق مسماراً في الحذاء.. إن الشعب الفرنسي هو هذا الكهل المجهد..

وإذا ما فهم التاريخ على هذا النحو، فلن يكون هناك تصفية حسابات..

يقول مالك حداد في ذلك مخاطباً الشاعر الجزائري:

«.. لا تفضح فرنسا بأغانيك.. ولكن إفضح أولئك الفرنسيين الذين لم يحترموا مواطنهم الكهل الكادح، والكتّاب الفرنسيين الأحرار الذين دافعوا عنه وعنك!

إن الاستعمار وحربه الوحشية ليسا غير «مرض عصبي». فرض علينا فرضاً.. وأنت أيها الشاعر، لست إلا الفارس المخاطر الذي يطارد وعل الشمال البليد المتوحش ويطرده من الغاب.. ليفرض سيادة الغزلان..».

أنت يا صديقي الشاعر إنسان في خدمة البشر.. أنت أكبر من أن تكون طائفياً، متحزباً، ضيق الأفق..

الشاعر أكبر من أن يتحزب.. إنه يحلّق فوق وطنه كنسمة من نسمات التحرير..

أما كيف اندلعت الثورة في الجزائر، فمالك حداد يصف ذلك بلغة شاعرية جميلة:

«.. وذات يوم أطل ٨ أيار

أيحتاج الإنسان أن يدفع هذا الثمن كله لكي يفهم؟

لقد شاهدت عيون رفاقي تقدح بالغضب..

شاهدت عيون رفاقي تبللها الدموع..

رفاقي.. ناسجي العلَم الوطني الكبير

علم الجزائر

وها هو ذا ينتصب الآن كالريح القوية

شامخاً.. واسعاً.. كالتاريخ

آه!

يجب أن تكون لدينا فضائل النحل

لنستحق العسل

ولنغني.. أيها الرفاق!

.. الموت والأسطورة ينهمران على وطني كالمطر..
إن سنبلة واحدة تكفي لتغني حقول القمح..
ولحظة واحدة تكفي ليهبط الليل..
وتكفي لحظة أيضاً.. ليولدَ النهار».

هكذا أعلنت الثـورة، والتحق الثوار بالجبل يقارعون المستعمر:

«.. إنهم يمضون في الأسطورة
والأسطورة تفتح لهم ذراعيها
والآن لقد تجسّدوا روحاً كبيرة
لقد أصبحوا وطني
لن أرى بعد اليوم رفيقي الجزّار
ولا رفيقي معلّم القرية
إني أستميحهم عذراً
لبقائي بعدهم على قيد الحياة
إني أشدُ يتماً من ليلة بلا قمر..».

هــذه مقتطفات من الديـوان الصغير الذي نقلناه إلى أبنـاء اللغة العربية.. وهو بمثابة بيان لهذا الأدب.

كمـا أن روايـة «نجمـة» لكاتـب ياسـين، ومسرحيتيه «الجثة المطوّقة» و«الأجداد يزدادون ضـراوة» تشكل نمـاذج راقية من هـذا الأدب، حظيت بشهرة واسعـة عالمياً، من قبل أن تشتهر جزائرياً أو عربياً.

ولنبدأ بنجمة فهي الثيمة المشتركة في الروائع الثلاث.

ليست نجمة كائناً خيالياً،
إنها وطن.. وأي وطن!
إنهـا وطــن الفلاحــين البؤســاء.. الذيــن تتقلص أرضهم تحت أقدامهــم، وأقدام أبنائهم وأحفادهم.. فإذا هــي تلفظهم وتستعيض عنهم بسادة جدد يتبخترون فوقها بالبناطيل الضيقة، والقبعات العريضة.

وأين هم الشباب في نجمة؟

إنهم شباب ضائع يصيبه اليأس من الوقوف أمام مكاتب الاستخدام من دون جدوى.. ويضطر إلى التسكع أمام أرصفـة المحطات والموانئ علّه يتصيـد مسافراً يحمل لــه أمتعته، أو يرشده في التعرف على أسواق المدينة.

إنها بلد تصل فيه البطالة حداً يجعل الشاب المثقف يرقص إذا ما قبله أحد رؤساء الورش - الأجانب طبعاً- ليعمل في حفر الأرض وتسويتها. فإذا ما التحـق بالعمل استقبلـه رئيس الورشة بلكمـة تترك دمـه يسيل على الأرض من دون سبب اللهم إلا أن يكون إفهـام هؤلاء أن اللقمة لا يحصل عليها أهل البلـد إلا بخفض الرأس للسيد الأجنبي.. ولهـم الخيار بعد ذلك، إذا ما أرادوا رفع الجبـاه، في الموت جوعاً، أو المقام في السجون..

وما أكثرها في نجمة!

قد يقول قائل: لماذا نغلـق أبصارنا من دون المشاريـع التي بناها السـادة لتشغيل العاطلين؟ بل ما لنا نتجاهـل المدارس التي أنشأوها لتعليم الأطفال؟

وليستمع إذاً إلى هذه المقاطع:

«... منـذ دخـول لاموريسيـير لم يغيِّر هذا الحي مــن سير حياته شيئــاً: التجارة.. ومكاتب الأعمال.. والتسوّل.

أمَّا الورشات الكبيرة التي وعد السادة بتشغيلها فقد كانت مثار اهتمام السكان كحلم كانوا ينتظرونه ليؤسسوا بيتاً أو يشتروا قميصاً.. ولكن الورشات الموعودة اقتصرت على بناء عدد من الأبنية الضخمة، وعدد آخر من المعامل بشكل فوضوي.. واستمرت البطالة في أغنى الولايات الثلاث، قسنطينة، كما كانت..

والمدارس التي أنشأها السادة ضمت أوّل ما ضمت مدلّليهم الصغار، ثم تجاوزتهم قليلاً إلى أبناء بعض وجهاء الوطنيين، وبعض العملاء.

ويتفنن السادة في إذلال هؤلاء الأطفال العبيد، فيحرِّم عليهم التعطيل في أعيادهم، والتلفظ بلغتهم، ويجري إشعارهم دوماً بحقارتهم وضعتهم، وبأنهم من طينة غير طينة السادة.

... لقد مضى ما ينوف على مئة وثلاثين عاماً منذ فقد العبيد أرضهم، وفقدوا معها حريتهم ومكانتهم. فصمد كثيرون، وانهار كثيرون... ومنذ ذلك الحين، ماتت أجيال.. ونشأت أجيال. فإذا ما أجلْتَ الطرف حولك عجبتَ لما ترى..

ترى فريقاً استمرأ الهوان لطول ما هان، وانطوى على عبوديته يجترّها في صمت، بينما أناخ فريق ثان ظهره للسيد فامتطاه، وراح الاثنان السيد السائس، والعبد المطية يَعُبَّان خمرة النصر، ويلتهمان خيرات الوطن المسلوب: للسيد الزبدة، وللمطية الفضلات. والفريق الأول ينظر ولا يرى، أو بالأحرى يتصنع العمى والصمم والبكم، كالتمثال الصيني، سواء بسواء...

وما يلبث أن يظهر في الحلبة فريق ثالث، يمتلئ قلبه هوىً بنجمة، ويهزه إيمان عارم بقوى شعبه الضائعة، تلك القوى التي يكمن الخلاص فيها، إذا ما جُنِّدتْ وعُبِّئَتْ ويهمس في سره:

ها هم ساكنو المدن يسيرون كالدواب المقرونة إلى رزقهم اليومي دون أن يلتفتوا يمنة أو يسرة..

وها هم العمال يساقون إلى حتفهم بركلات الأقدام..

وها هم الفلاحون في الهضاب يجرجرون أسمالهم ويهوون بأذرعهم على الصخر ليستنبتوه بعد أن سُرق السهل..

هؤلاء هم الشعب! لماذا لا أنفخ لهم في الصور، وأبعث فيهم الثورة والتمرد؟ لماذا لا أحشدهم جمعاً هادراً يطأ العبودية بأقدامه إلى الأبد؟ وكان يوم ٨ أيار ١٩٤٥م!

... كان النهار صحواً..

وكنت ترى الفلاحين، والعمال، **والتجار يتوافدون من كل ناحية..**

واحتشد جمع هائل من الناس..

وراحوا يهدرون:

كفانا وعوداً

١٨٧٠، ١٩١٨، ١٩٤٥م

واليوم ٨ أيار..

ومرَّ الكشافة في المقدمة

ثم الطلاب..

وأخذت اللافتات تتزاحم..

وانطلق النشيد على شفاه الأولاد:

من جبالنا يرتفع

صوت الرجال الأحرار..
ومن وراء القنطرة..
تنطلق رصاصة..
يطلقها أحد رجال الأمن، فتصيب العَلَم..
وينهال الرصاص..
وتموج اللافتات..
لقد جرّدوا المتظاهرين من أسلحتهم في المسجد..
وتسلّح الشعب..
بالكراسي..
بالزجاجات..
بأغصان الأشجار التي قُطعت في أثناء الطريق.
اللافتاتُ تتحطم..
ويقمع الشعب في تظاهرته الهائلة الأولى».

نعم.. لقد قُمِع الشعب.. لقد أباد السادة خمسة وأربعين ألفاً من المتظاهرين، وتجاوز عدد القتلى في تظاهرة واحدة أضعاف الضحايا التي قدَّمها الوطنيون المغاربة في الحرب العالمية الثانية ليبعدوا عن السادة شبح البعبع النازي المخيف.

لقد ودَّع هؤلاء النازية خارج بلادهم ليجدوها لهم بالمرصاد على أرض وطنهم تفتح لهم شدقيها وتسحق منهم من تسحق أثناء التظاهرات، ثم تُعدِم من تُعدِم بعدها..

هكذا احتفل الجزائريون بيوم النصر..

هكذا انقلب يوم النصر إلى يوم للدماء والدموع في الجزائر!

ولكن رماد الدماء والدموع لم يلبث أن حنا على وَمَضاتٍ من النار، وراح يرعاها طوال تسع سنوات حتى علا ضرامها عام ١٩٥٤م فوق جبال الأوراس، وراح يمتد حتى شمل الوطن بأسره.

وفي عام ١٩٥٦م رأت «نجمة» النور.

كتبها شاب جزائري فُصل من المدرسة إثر اعتقاله في تظاهرات ٨ أيار وهو فتى في السادسة عشرة من عمره، وراح بعد مغادرته السجن يهيم على وجهه، ويجوب بلاداً عديدة بينها فرنسا، والعربية السعودية، والسودان، والاتحاد السوفييتي؛ ويزاول -حين يتيسر له العمل- أعمالاً متنوعة. فهو حيناً صحفي، وآخر عامل في المرفأ، أو أجير في مزرعة، أو بنّاء، أو مساعد كهربائي. ويعيش في ضنك البطالة حين تسدّ الأبواب في وجهه، ولكنه -طوال تلك الفترة- لا ينقطع عن كتابة القصائد الثورية، ونشرها في الصحف والمجلات في فرنسا والجزائر.

إن رواية «نجمة» إبداع متميز، بشهادة الغربيين قبل العرب.

إنها - بحسب ما جاء في مقدمة الطبعة الفرنسية - شيء جديد.. إنها شاهد على حياة شعب..

فهناك رموز تنتشر على صفحات الرواية يعكس كل منها جانباً أو عنصراً في حياة هذا الشعب: الجزائر الوطن «نجمة»، جدّ الشعب الجزائري «قبلوت»، شباب المقاومة الجزائرية «الأخضر، وحسن، ومصطفى..»، الجزائريون المتعاونون مع الفرنسيين «طاهر»، الفرنسيون الذين وقفوا إلى جانب المقاومة الجزائرية «مارغريت»، وهكذا.. على أن الرواية ليست وثيقة أو صورة منسوخة

عن الواقع، كما أن الكاتب ليس موضوعياً بالمعنى الحرفي للكلمة:

فنجمة عملية خلق وإبداع.. إنها قطعة من الشعر الخالص.

وهذا الكلام ينطبق على المسرحيتين «الجثة المطوقة» و«الأجداد يزدادون ضراوة».

إن كاتب ياسين يتحدث فيهما عن المقاومة والشهادة والسجن.. كما يتحدث عن المتخاذلين والخونة..

لقد استلهم المسرحية الأولى من أحداث ٨ أيار.. من الانتفاضة العارمة وانقضاض المستعمر عليها بكل شراسته.

وأما الثانية فإنه ربط فيها بين هذه الانتفاضة والجذور القبلية للشعب الجزائري.. إنه يتمثل الأجداد فيها قوة هائلة تملأ سماء الجزائر وأرضها.. روحاً هائمة قلقة لا تجد الراحة، وكأنها قتيل توانى أحفاده عن الثأر له، فإذا به ينقلب عقاباً يحوِّم فوق رؤوسهم، يحاصرهم ويسدّ عليهم الآفاق، ويستصرخ فيهم المروءة والشرف.

لم أفاجأ حين أعلمتني الهيئة العامة السورية للكتاب برغبتها في إعادة طباعة المسرحيتين اللتين طبعتا أصلاً لدى وزارة الثقافة السورية عام ١٩٦٢م. ففي وضع هذا الأدب بين أيدي أجيالنا الناشئة متابعة لفكر النهضة العربية واستمرار لرسالته التي حملها في العصر الحديث.. تلك الرسالة التي تمثلت في مقاومة الاستعمار. والتحرر من كل أشكاله.. وأتمنى أن يجري تدريسه في مدارسنا، على غرار ما نفعل بالأدب المكتوب أصلاً باللغة العربية.

الهوامش

١- غلمة: بلدة جزائرية في قطاع قسنطينة.
٢- الجرجرة: سلسلة جبال في الجزائر.
٣- أورادور: بلدة فرنسية صغيرة، قام الألمان فيها بمذبحة رهيبة في الحرب العالمية الثانية.
٤- أوكرانيا: إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي التي تحملت أكبر قسط من دمار الحرب العالمية الثانية.

المراجع

- مالك حداد، الشقاء في خطر، ترجمة ملكة أبيض، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- كاتب ياسين، نجمة، ترجمة ملكة أبيض، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- كاتب ياسين، الجثة المطوقة والأجداد يزدادون ضراوة، ترجمة ملكة أبيض، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٢م.

نقّاد الرّواية في سورية البداية الأولى

❁
د. سمر روحي الفيصل

لم يكـن شاكر مصطفى[1] يعمل في الحقل الأدبيّ حـين كلّفته جامعة الدّول العربيّة عام ١٩٥٧م بتقـديم عدد من المحاضـرات على طلبة قسم الدّراسات الأدبيّة في معهد الدّراسات العربيّة العاليّة في موضوع القصّة في سورية، بل كان مثقّفاً ذا تفكير قوميّ، معروفاً باختصاصه في حقل التّاريخ. ولكنّ نشأته الأدبيّة، ومشاركاته السّابقة في الحياة الثّقافيّـة السّورية،[2] واهتمامـه بكتابة المقالات والقصص القصـيرة، وإصداره مجموعتين قصصيّتين، هما: (في ركاب الشّيطان، بيني وبينك)،[3] أهّلته للمحاضرة في موضوع (القصّة) الذي لم يسبق لأحد آنذاك الكتابة عنه. وكان لدى معهد البحوث والدّراسات العربيّة[4] خطّة

❁ ناقد وأديب سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

مفادها تكليف الأكاديميّين العرب بالمحاضرة في الأجناس الأدبيّة الخاصّة ببلدانهم بغية التّعريف بها، والإحاطة بطبيعتها، وتشجيع الدّارسين على الإقبال عليها. وكان لهذا المعهد فضل إصدار كتب رائدة في الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة العربيّة، منها بالنّسبة إلى سورية: كتاب شاكر مصطفى (محاضرات عن القصّة في سورية حتّى الحرب العالميّة الثّانية) عام ١٩٥٨م، وكتاب جميل صليبا (اتّجاهات النّقد الحديث في سورية) عام ١٩٦٩م، وكتاب حسام الخطيب (الرّواية السّوريّة في مرحلة النّهوض) عام ١٩٧٥م.

من المفيد، قبل تحليل فعاليّة نقد الرّواية عند شاكر مصطفى، الإشارة إلى أنّ مصطلح (القصّة) لم يكن محدّداً في خمسينيّات القرن العشرين، بل كان مصطلحاً واسعاً يضمّ القصّة القصيرة والرّواية معاً. وزاد شاكر مصطفى كتابه اتّساعاً، حين أدخل فيه المسرحيّة، إذ خصّص الفصل الخامس من القسم الأوّل من قسمي كتابه (محاضرات عن القصة في سورية) للمسرحيّة في سورية. وهو فصل مفيد لمؤرّخي المسرح الرّاغبين في معرفة أبي خليل القبّاني، وطبيعة مدرسته التي تجلّت في اسكندر فرح، وعبد الهادي الوفائيّ، ومحمّد بن خالد الشّلبيّ، ويوسف شاهين، فضلاً عن المسرحيّ المعروف داود قسطنطين الخوري. ولكنّ مكان هذا الفصل المفيد يجب أن يكون في كتاب آخر خاصّ بالمسرحيّة في سورية؛ ولذلك أبعدته من التّحليل، وأبعدتُ معه الفصول الخاصّة بالقصّة القصيرة؛ لانصرافي، هنا، إلى نقد الرّواية ليس غير، وإنْ كنتُ ميّالاً إلى أنّ أسلوب التّحليل عند شاكر مصطفى واحد في الرّواية والقصّة والمسرحيّة.

هذا يعني أيضاً أنّني وضعتُ جانباً ترجُّح شاكر مصطفى بين استخدامه مصطلح (القصّة) للدّلالة على القصّة والرّواية والمسرحيّة مرّة، واستخدامه المصطلح نفسه للدّلالة على القصّة القصيرة وحدها مرّة أخرى، واستعماله مصطلح (القصّة) في أثناء إشارته إلى (الرّواية)[٥] مرّة ثالثة. ذلك أنّ التّرجُّح دليل على عدم استقرار مصطلح (القصّة) في خمسينيّات القرن العشرين، وعلى أنّ شاكر مصطفى نفسه لم يُدقّق في المصطلح الذي استعمله في عنوان كتابه. والدّليل على عدم تدقيقه، هو استعماله في الفصلين اللذين خصّصهما للرّواية قسمين لتحليل القصّة القصيرة، سمّى الأوّل: (الأقصوصة التّهذيبيّة)، وعالج فيه بعضاً ممّا كتبه رزق الله حسّون وجرجس شلحت والياس عبده القدسي،[٦] وسمّى الثّاني: (القصص التّاريخيّ)، وعالج فيه بعض القصص التي كتبها علي الطّنطاوي وصلاح الدّين المنجّد.[٧] ولا مكان لهذين القسمين في فصلين يتحدّثان عن الرّواية، فضلاً عن الإيحاء بالتّطوُّر فيهما، وهو إيحاء مستَمَدّ من استعمال شاكر مصطفى مصطلح (الأقصوصة) في الأوّل، ومصطلح (القصّة) في الثّاني، ولا مكان لهذا الإيحاء أيضاً في فصلين يتحدّثان عن الرّواية.



أمّا اختلاط مصطلح (المسرحيّة) بمصطلح (الرّواية) فليس له عندي تعليل واضح مقبول. إذ إنّ شاكر مصطفى استعمل مصطلح (المسرحيّة) استعمالاً سليماً دقيقاً في الدّلالة على هذا الجنس الأدبيّ الحواريّ، وهَجَر مصطلح (الرّواية) الذي كان يُستَعمَل حتّى أربعينيّات القرن العشرين للدّلالة على المسرحيّة، مكتفياً باستعمال المصطلح القديم في الخبر الذي نقله عن الوالي العثمانيّ.(٨)

هل يدلّ ذلك كلّه على أنّ مصطلح (القصّة) الذي ورد في عنوان كتاب شاكر مصطفى لم يكن مصطلحاً دقيقاً، بل كان مصطلحاً عامّاً يلائم ما كان معروفاً في خمسينيّات القرن العشرين من استعمال لهذا المصطلح؟. أعتقد أنّ التّفسير دقيق مقبول على هذا النّحو، وإنْ كان من المفيد التّذكير بأنْ ترجُّح شاكر مصطفى في استعمال المصطلحات نبع أيضاً من أنّ النّقد الأدبيّ العربيّ لم يكن حتّى خمسينيّات القرن العشرين قد اهتمّ بالتّحديد النّقديّ لمفاهيم المصطلحات التي يستعملها النّاقد. ولعلّ هناك تعليلاً آخر، هو أنّ شاكر مصطفى رغب أوّل الأمر في الكتابة عن (الأدب في سورية) ثمّ عدل عن ذلك، وانصرف إلى القصّة والرّواية، ولكنّه ترك في كتابه ما كان كتبه عن المسرحيّة. وقد يكون شاكر مصطفى فصَّل القول في المسرحيّة، ولكنّ حجم الكتاب (ص٥٨٤) زاد عن الحدود المعتَمَدة في معهد الدّراسات فحذف منه غالبيّة ما كان كتبه عن المسرحيّة، مبقياً الفصل الذي يدلّ على بداية المسرح في سورية عند أبي خليل القبّاني ومدرسته؛ لأهمّيّته في ترسيخ الحديث عن الدّلالة الكلّيّة على بدايات الصُّعود البرجوازيّ التي حرص شاكر مصطفى، في أمكنة كثيرة من كتابه، على

توضيحها وقرْنها بالقصّة والرّواية، وخصوصاً اتّصال هذه البرجوازيّة بالحضارة الغربيّة، وانعكاس ذلك في نشأة الأجناس الأدبيّة الجديدة وتطوُّرها، وتطلُّعها إلى التّعبير الأدبيّ عن حياتها الحديثة وما تضمُّه من مشكلات. يؤيِّد ذلك أيضاً أنّه عبَّر صراحةً عن أنّه سيصنع ملحقاً للكتاب يضع فيه بعض ما لخّصه من النّصوص السّوريّة الضّائعة،[٩] ولكنّه لم يفِ بوَعْده؛ لأنّ ضخامة الكتاب، في حدود ما أرجِّح، لم تسمح له بذلك. ويؤيِّد الأمر نفسه استعماله عبارة (تمّ الجزء الأوّل) في نهاية الكتاب، وهي عبارة تُصرِّح بأنّ هناك جزءاً ثانياً قادماً، ولكنّ هذا الجزء لم يأت، ولم يُحدِّثنا أحدٌ عن مضمونه.

يساعدني الحديث السّابق على القول إنّه بقي من كتاب شاكر مصطفى، وليس له كتابٌ غيره في النّقد الأدبيّ، خمسة فصول تتحدّث عن الرّواية، اثنان منها يتحدَّثان عن الرّواية في سورية قبل الحرب العالميّة الأولى، وثلاثة فصول تتحدّث عن الرّواية السّوريّة نفسها بين الحربين العالميّتين. وهذه الفصول الخمسة هي الحصيلة الكلّيّة لنقد الرّواية عند شاكر مصطفى. وهي، أيضاً، متن حديثي عن إسهامه النّقديّ. ذلك أنّني لم أعثر على نقد للرّواية قدَّمه شاكر مصطفى خارج كتابه عن القصّة. أمّا عبارة (تمّ الجزء الأوّل) التي ذكرها في نهاية كتابه، وأشرتُ إليها قبل قليل، فهي دالّة على واحد من أمرين: الأوّل، ما أشرتُ إليه من أنّ أصل الكتاب قد يكون كبيراً، طُبع منه جزء أوّل، وكانت النّيّة طباعة جزء ثان، ولكنّ الظّروف لم تُعن على ذلك. والثّاني، أنّ شاكر مصطفى كان ينوي متابعة الحديث عن القصة في سورية، ولكنّ ظروف عمله لم تتح له فرصة تنفيذ وعده. وإنّني ميّال إلى الأمر الثّاني؛ لأنّ أبواب النّشر لم تكن عصية على رجل معروف مثل شاكر مصطفى، ولو كان لديه جزء ثان من الكتاب لكان من الهيّن أن يدفع به إلى إحدى دور النّشر. وما هو أكثر غرابة ألا يطبع شاكر مصطفى كتابه مرّة ثانية، على الرّغم من أنّ نُسَخه نفدت قبل سنوات طويلة من وفاته عام ١٩٩٧م، وأصبحت عزيزة في المكتبات العامّة والخاصّة. لعلّ هناك سبباً لا نعرفه حال دون أن يُعيد شاكر مصطفى طباعة كتابه، أو يسمح لدور النّشر بإعادة طباعته.

أوّلاً: الإجراءات النّقديّة

يصعب القول إنّ شاكر مصطفى اتّبع منهجاً نقديّاً محدّداً في أثناء نقده الرّواية السّوريّة. وما ثقافته القوميّة التي منحته رؤيا عربيّة كلّيّة قريبة من الاتّجاه اليساريّ، وإشاراته إلى علاقات السّوريّين المتنوّرين المنتمين إلى الطّبقة البرجوازيّة في القرن التّاسع عشر بروح العصر وثقافة الغرب الوافدة، وتحديده نشأة الأجناس الأدبيّة الحديثة في سورية، إلا الإطار الثّقافيّ الأدبيّ العامّ الذي وجّه خطواته، وحفزه إلى الالتزام بإجراءات نقديّة محدّدة تفي، في اعتقاده، بالحاجة إلى تحليل الرّواية وبيان قيمتها الفنّيّة، دون أن نغفل

عن أنّ نقده الرّواية السّوريّة نَقْدُ رائد مُؤسِّس لا سابقة له في سورية، وأنّ جهده التّحليليّ توزّع بين القصّة والرّواية والمسرحيّة، وهي أجناس أدبيّة لا يصلح لنقدها منهج واحد، ولا يفيها حقّها اللّجوء إلى إجراءات نقديّة محدّدة لا تتغيّر ولا تتبدّل، فضلاً عن أنّ استعمال المناهج النّقديّة في تحليل الرّواية لم يكن معروفاً في زمن تأليف الكتاب، ولم تكن الحاجة إلى المناهج ملحّة آنذاك في بيئة أدبيّة تراثيّة لم تكن اعترفت بعدُ اعترافاً ناجزاً بالأجناس الأدبيّة الحديثة، وخصوصاً الرّواية. وسيكون من الدّقّة أن ألاحظ، في أثناء حديثي، حرْص شاكر مصطفى على الالتزام بعدد من الإجراءات النّقديّة في أثناء نقده الرّواية السّوريّة. ولسوف أقسم هذه الإجراءات قسمين، أُخصّص الأوّل للإجراءات العامّة، وأجعل الثّاني خاصّاً بأحكام القيمة.

١- الانتقائيّة:

ليست الانتقائيّة سُبّةً، بل هي إجراء نقديّ لا بدّ منه قبل الإقدام على التّحليل في أيّ حقل أدبيّ تكثر فيه النّصوص، وتتباين مستوياتها. وثمّة افتراض عامّ في الانتقائيّة، هو أن يختار النّاقد نصوصاً يراها ممثّلة الحقل الأدبيّ الذي تنتمي إليه النّصوص، استناداً إلى ذائقته النّقديّة. وهذا يصدق جزئيّاً على ما فعله شاكر مصطفى، إذ إنّه اختار الرّوايات من مرحلتين في الحياة الأدبيّة السّوريّة، ولكنّ حرّيّة الاختيار المتاحة له لم تكن كبيرة؛ لأنّ عدد الرّوايات السّوريّة في المرحلتين اللّتين اختار منهما لم يكن كبيراً. ذلك أنّه انتقى من مرحلة ما قبل الحرب العالميّة الأولى ثمانية نصوص روائيّة، وأغفل ثلاثة نصوص، بينها نصّ واحد مهمّ، هو رواية (أمراض العصر الجديد) لرفيق رزق سلوم التي صدرت عام ١٩٠٩م. واختار من مرحلة ما بين الحربين العالميّتين حتّى عام ١٩٤٦م عشرة نصوص روائيّة، وأغفل نصوصاً دالّة على طبيعة المرحلة، أبرزها روايتا خير الدين الأيوبي: قصر الجماجم (١٩٤٤م)، والسلوان الكاذب (١٩٤٥م)، وأخرى عاديّة، كما هي حال روايتي خليل هنداوي: (صفحة من حياة باريس) و(إرم ذات العماد).

هذا كلّه يعني أنّ شاكر مصطفى اختار ثماني عشرة رواية من الرّوايات السّورية التي صدرت خلال ثمانين سنة بين ١٨٦٥م و١٩٤٦م، وأنّ الرّوايات التي اختارها لم تكن الرّوايات الأكثر شهرة ودلالة على طبيعة المرحلتين المذكورتين في الحياة الأدبيّة السّوريّة، بل كانت الرّوايات التي توافرت له، واستطاع الحصول على نُسَخ منها قبل تأليفه الكتاب. ولعلّ جانباً من الجوانب الإيجابيّة غير النّقديّة في عمل شاكر مصطفى يرجع إلى هذا الأمر. ذلك أنّ غالبيّة الرّوايات التي تحدّث عنها كانت في تلك الفترة مفقودة، أو شبه مفقودة، ومن ثَمّ عمل كتابه على المحافظة على تدوين خطوطها العامّة الكبرى، تعريفاً بمضمونها، وتذكيراً بها، وتحديداً لمكانتها في زمنها وبين مثيلاتها. ولو استقصى شاكر

مصطفى الرّوايات السّوريّة. ولم يلجأ إلى الانتقاء، لحفظ للمكتبة الرّوائيّة السّوريّة زاداً معرفيّاً روائيّاً أكثر اتّساعاً وشمولاً؛ أو قُل: لو فعل ذلك، ولم يلجأ إلى الانتقاء، لحفظ للأجيال القادمة، وللمكتبة الرّوائيّة، زاداً قادراً على حفز الباحثين إلى البحث عن النّصوص المفقودة؛ حفاظاً على الذّاكرة الرّوائيّة من أن تنسى أصولها الأولى ونصوصها الرّائدة، وعلى تاريخ الرّواية السّوريّة من أن يفقد حَلقة من حلقاته كامنة بين بداياته الأولى وشروعه في النّهوض الفنّيّ في ثلاثينيّات القرن العشرين وأربعينيّاته.

٢- التّعريف بالرّوائيّ:

أعتقد أنّ موضوع (التّعريف بالرّوائيّ) شغل شاكر مصطفى؛ لأنّه وضع نفسه موضع النّاقل للمعرفة التي يجهلها قرّاؤه. ولهذا السّبب حرص على العادة السّائدة آنذاك بين رصفائه العاملين في حقل الدّراسات الأدبيّة، وخلاصتها أن تبدأ الدّراسة بالتّعريف بالعَلَم. وهذا ما فعله شاكر مصطفى، إذ بدأ تحليل الرّواية بتقديم ترجمة لصاحبها، يُحيط فيها بولادته ووفاته وتلقّيه العلم، ويخلص من هذه التّرجمة إلى توضيح سبب كتابة الرّواية، أو الظّروف التي أحاطت بكتابتها. كما فعل في نهاية ترجمته حياة فرنسيس مرّاش، إذ قال: (كتب فرنسيس مرّاش قصّته درّ الصّدف أثناء حرب السبعين المعروفة... ومعنى ذلك أنّ كتابتها كانت في صيف، أو خريف، تلك السّنة الانقلابيّة، وأنّه كمثقّف بالثّقافة الفرنسيّة كان متّصلاً بالحرب، يتألّم لكوارثها عن بعد).[10]

وتنتهي التّرجمة أحياناً بشيء يتعلّق بظروف أخرى غير ظروف كتابة الرّواية، كما هي حال الظّروف التي ارتبط بها موضوع نَشْر إحدى حلقات رواية (أنيس) لنعمان القساطلي. فقد قال: (كان النعمان يرسل رواياته أجزاء من دمشق ((يقصد أنّ القساطلي كان يرسل روايته من دمشق إلى بيروت للنّشر مجزّأة، بحيث يكتب الجزء ويرسله بوساطة البريد)).[11] وقد اتّفق مرّة أن فُقِدت بعض الأجزاء من رواية أنيس. فانحى بالتّعريض في صلب الرّواية وفي آخرها على دائرة البريد).[12] ومن الواضح أنّ الظّروف التي ذكرها شاكر مصطفى في خواتيم تراجم الرّوائيّين تُعين الباحث على معرفة ظروف كتابة الرّواية، أو ظروف نشرها، وهما أمران يفيدان العاملين في علم نفس الإبداع، فضلاً عن توضيحهما البيئة الأدبيّة والثّقافيّة العامّة التي أحاطت بكتابة البدايات الرّوائيّة السّوريّة.

من الواضح أنّ هناك تبايناً في حجوم التّراجم التي قدّمها شاكر مصطفى للرّوائيّين السّوريّين. ففي حين تراه يكتفي بصفحة ونصف الصفحة حين يترجم لفرنسيس مرّاش،[13] تراه يُفصِّل القول في أثناء ترجمته معروف الأرناؤوط، فيذكر أصله الألبانيّ، وتربيته الأسريّة، والمدرسة الإسلاميّة التي تلقّى العلم فيها، ورحلاته، وولوعه بالمسرح والتّرجمة والتّاريخ، وظروفه الشّخصيّة، وأساتذته، وطموحه، ومؤلّفاته.[14]

بحيث طالت ترجمة الأرناؤوط فأصبحت أربع عشرة صفحة. قد يكون إعجاب شاكر مصطفى بما كتبه الأرناؤوط سبباً في إطالة التّرجمة التي كتبها عنه، وقد يكون هناك سبب آخر، ولكنّ الثّابت في الإجراءات النّقديّة العامّة عند شاكر مصطفى هو كتابة ترجمة للرّوائيّ قبل الحديث عن روايته. وشاكر مصطفى صاحب أسلوب في التّرجمة، واضح، محدَّد، بعيد عن الاستطراد. ولا يؤثّر في هذا الحُكم ما نراه عنده أحياناً من إيراد لتفصيلات غير مهمّة، وإغفال لتفصيلات أخرى مفيدة. فقد اكتفى بكلمات حين ذكر أنطون الصّقّال (١٨٢٤، ١٨٨٥م) والد ميخائيل الصّقّال، فقال: (ولد الرجل في مالطة من أب عرفناه من قبل ترجماناً وكاتب قصص).[١٥] وهذه الكلمات غير كافية في الإشارة إلى أنطون الصّقّال الكاتب الأديب الشاعر القاص الذي قال فيه موسى بيطار: (كان شاعراً مجيداً وناثراً له ديوان شعر وروايتان، يعرف الكثير من العلوم الهندسيّة والفنون العصرية... يتقن تكلماً وكتابة أربع لغات).[١٦] وقال فيه ابنه ميخائيل: (كان ناثراً محسناً بارعاً فصيحاً، قويّ الحجّة، مسموع الكلمة، صادق الرّواية، رزين المجلس... صيّاداً ماهراً وموسيقيّاً... ومهندساً).[١٧] بيد أنّ الطّابع العامّ للتّراجم التي كتبها شاكر مصطفى بقي متّسماً بالقدرة على تقديم تراجم تفي بغرض التّعريف بصاحب الرّواية، في محاولة من شاكر مصطفى للتّمهيد لتلخيصه الرّواية نفسها.

٣. تلخيص الرّوايات:

حَرَص شاكر مصطفى على تلخيص الرّوايات السّوريّة بعد التّعريف بأصحابها، وقد اتّخذ التّلخيص عنده شكلاً من شكلين: الأوّل تلخيص في شكل نقاط، تضم كل نقطة فصلاً من فصول الرّواية، كما فعل في تلخيصه رواية (درّ الصّدف في غرائب الصُّدَف). والشّكل الثّاني تلخيص الرّواية تلخيصاً سرديّاً متّصلاً، كما فعل في تلخيصه غالبيّة الرّوايات التي درسها في كتابه، ومنها رواية (فتاة إسرائيل) لعبد المسيح الأنطاكيّ، ورواية (غابة الحقّ) لفرنسيس مرّاش.

بيد أنّ تلخيص الرّوايات ليس له طُولٌ معيَّن عند شاكر مصطفى. فقد يكتفي بأربع صفحات كما فعل في تلخيصه رواية (طارق بن زياد) لمعروف الأرناؤوط، أو خمس صفحات تقريباً، كما فعل في تلخيصه رواية (درّ الصّدف في غرائب الصُّدَف) لفرنسيس مرّاش، أو ستّ صفحات كما فعل في تلخيصه رواية (الفتاة الأمينة وأمّها) لنعمان القساطليّ. قد يطول التّلخيص عنده فيصبح عشر صفحات، كما فعل في تلخيصه رواية (سيِّد قريش) لمعروف الأرناؤوط، أو أربع عشرة صفحة، كما فعل في تلخيصه رواية (عمر بن الخطّاب) لمعروف الأرناؤوط نفسه. بيد أنّ اختلاف حجم التّلخيص لا يعني أنّ التّلخيص نفسه يفتقر عند شاكر مصطفى إلى معيار واضح محدَّد يمكن اعتماده والاستناد إليه. ذلك أنّني

أعتقد أنّ شاكر مصطفى استند إلى معيارين، بدلاً من المعيار الواحد، في أثناء تلخيصه الرّوايات السّوريّة:

المعيار الأوّل، هو رغبته في التّعريف بالرّواية قبل الحكم عليها. وهذه الرّغبة نابعة من اعتقاده أنّ قرّاءه لم يطّلعوا على الرّواية، وأنّه من المفيد لتواصلهم معه في أثناء نقده هذه الرّواية، أو تلك، أن يطّلعوا على الخطوط العامّة، أو الحوادث الأساسيّة، لها. وقد تنبع الرّغبة في تلخيص الرّواية من تقليد نقديّ عربيّ عريق. هو تلخيص مضمون النّصّ الشّعريّ قبل الحُكم عليه. وقد لجأ النّقّاد العرب، على اختلاف بينهم في ذلك، إلى هذا الإجراء النّقديّ ليربطوا القارئ بالنّصّ المنقود. واتّضح هذا التّقليد في الدّراسات الأدبيّة العربيّة التي صدرت في النّصف الأوّل من القرن العشرين. ولعلّ شاكر مصطفى تأثر بها، أو اقتنع بجدواها، أو كان لها في نفسه أثر حميد.

والمعيار الثّاني، هو معرفة شاكر مصطفى بأنّ غالبيّة الرّوايات السّوريّة التي يتحدّث عنها مفقودة، أو في حكم المفقودة. قال في ذلك: (لخّصتُ الرّواية ((يقصد: درّ الصّدف في غرائب الصُّدَف)) تلخيصاً فيه بعض الطّول. وسأتبع الطّريقة نفسها في تلخيص القصص القديم كلّه، وسأنشر ما أستطيع منه في ملحق الكتاب؛ لأنّ جميع ذلك الإنتاج ضائع أو كأنّه. وما قد يوجد من مصادره فمجلّات نادرة، أو مهترئة، أو في المكتبات الخاصّة، وهي عزيزة المنال).[18] وقال عن روايات نعمان القساطليّ الثّلاث (الفتاة الأمينة وأمّها، مرشد وفتنة، أنيس وأنيسة): (وقد تعمّدتُ تلخيصها الواسع. إذ يندر أن تعثر عليها يدٌ. حتّى إنّه لم يُشر إليها، ولا إلى صاحبها، أيُّ باحث).[19] وهو نفسه عانى من ذلك معاناة شديدة. وبذل كثيراً من الوقت والجهد كي يحصل على نُسَخ من الرّوايات السّوريّة. وكي يعود إلى المجلات الّتي نشرتها مسلسلة في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، كمجلّات الجنان (بيروت)، والمنار (القاهرة)، والمقتبس (القاهرة ودمشق)، واللّطائف (القاهرة) وغيرها.

إذا كانت الرّوايات السّوريّة التي لخّصها شاكر مصطفى مفقودة، أو شبه مفقودة، عسر على القرّاء في الحاضر والمستقبل أن يعودوا إليها، ويطّلعوا على مضامينها. ولذلك رأى شاكر مصطفى من واجباته الأدبيّة والنّقديّة أن يُعرِّف بهذه الرّوايات بوساطة تلخيصها، وأن يَعُدَّ هذا التّلخيص إجراءً تحليليّاً لا بُدَّ منه في أثناء نقد هذه الرّوايات. ففي التّلخيص تدوين للخطوط الرّئيسة للرّوايات السّوريّة، حتّى إذا ضاعت نهائيّاً بقي كتابه دالاً على مضمونها. وربّما أضمر شاكر مصطفى وراء التّلخيص رغبة أخرى، هي تشجيع الباحثين على إعادة تحقيق هذه الرّوايات، ووضعها بين أيدي القرّاء. وقد تحقّقت هذه الرّغبة، إنْ صحّ توافرها لدى شاكر مصطفى، جزئياً بعد ذلك بعقود حين نهض حيدر حاج إسماعيل،[20] ثمّ: جابر عصفور.[21]

بإعادة نشر رواية (غابة الحقّ) لفرنسيس مرّاش، وموسى بيطار بإعادة نشر رواية (لطائف السّمر في سُكّان الزُّهرة والقمر) للصَّقَّال...

هناك، أحياناً، سبب خاصّ قاد إلى التّلخيص، لم يُخفه شاكر مصطفى، بل صرّح به في بعض هوامش كتابه. كقوله عن رواية (خديجة أمّ المؤمنين) لعبد الحميد الزّهراويّ: (تعمّدتُ التّلخيص الكامل للقصّة لأنفي وهماً يرى أنّها أوّل المحاولات القصصيّة في سورية).(٢٢) السّبب الخاصّ واضح هنا، هو أنّ شاكر مصطفى رغب في تقديم وجهة نظره في نصّ (خديجة أمّ المؤمنين)، هل هو رواية، أو مجموعة مقالات كتبها عبد الحميد الزّهراويّ، ونشرها أوّل الأمر في مجلّة (المنار) التي أصدرها محمّد رشيد رضا في القاهرة؟. وقد أجاب شاكر مصطفى عن هذا السّؤال بأنّ نصّ كتاب الزّهراويّ (ليس أكثر من بحث تاريخيّ عاديّ، قد سُرِد سرداً بأسلوب الحديث والمقالة).

مهما يكن الأمر فإنّ تلخيص الرّوايات ينمّ على أنّ شاكر مصطفى قرأ الرّوايات السّوريّة بإنعام نظر، ودقّق في أثناء القراءة في الحوادث الرّئيسة والشّخصيّات خصوصاً. ويبدو أنّه جرى على عادة تدوين التّلخيص خشية نسيانه، ورغبة في نشر الملخّصات في ملحق خاصّ في آخر الكتاب، لم يُتح له تنفيذه لأسباب سبقت الإشارة إليها.

ثانياً: أحكام القيمة

الواضح أنّ شاكر مصطفى حريص على تقديم مجموعة من أحكام القيمة في نهاية تلخيصه كلّ رواية من الرّوايات السّوريّة التي تحدّث عنها في كتابه. وهذا الحرص يدلّ على إيمانه بأنّ النّقد يجب ألّا يخلو من أحكام القيمة؛ لأنّ هذه الأحكام بعضٌ من تقويم نصّ الرّواية وتقييمه. وأرى من المفيد الإشارة إلى ميزات شاكر مصطفى في أثناء استعماله أحكام القيمة قبل الحديث عن طبيعة هذه الأحكام عنده. وظنّي أنّه لا يعسر على أيّ محلّل اكتشاف الميزات الأربع الآتية في أحكام القيمة عنده:

- الميزة النّقديّة الأولى البارزة التي قدّمها في هذا الحقل، هي تخصيصه حُكْمَ القيمة وعدم تعميمه له. فهو يُقدّم حكماً يخصّ الرّواية التي يدرسها، ولكنّه لا يلجأ إلى تعميم هذا الحكم، أو يوحي بصلاحيّته لرواية أخرى. فشكيب الجابري (يهمل وَضْعَ روايته في مكان محدّد، أو زمان معيّن)(٢٣) ومعروف الأرناؤوط في (سيّد قريش) اتّسع كثيراً، فكانت لديه امتدادات جانبيّة (دفع إليها طُول الفترة وتباين الأماكن ما بين القسطنطينيّة وبيزنطة ودمشق وبصرى ومكّة، وتغاير المجتمعات والشّخصيّات ما بين غسّان وبيزنطة وقريش، وهي أمور لا تخدم وحدة الرّواية إنْ لم تكن تعدو، بطبيعتها، على هيكلها)(٢٤).

- الميزة النّقديّة الثّانية في أحكام القيمة عند شاكر مصطفى، هي اهتمامه بالأحكام

الجماليّة، كقوّة الأسلوب، وبراعة الحوار، في رواية (درّ الصَّدف في غرائب الصُّدف)[٢٥] لفرنسيس مرّاش. وقوّة الحدث والخيال في روايات نعمان القساطلي الثّلاث (الفتاة الأمينة وأمّها، مرشد وفتنة، أنيس وأنيسة).[٢٦] والبراعة في البناء الفنّيّ في رواية (نهم) لشكيب الجابري: (إنّ أقوى ما في (نهم) تكوينها الفنّيّ. لم يلجأ الجابريّ إلى التّسلسل فقط، ولا التقط عقدة الرّواية في لحظة الأزمة، ولا قدّمها في مذكّرات، ولكنّه جاء بها في صور متفرّقة لا تكاد تدري؛ لقوّة العرض، أنّها صور فقط، وأنّها متفرّقة).[٢٧] أمّا رواية (سيّد قريش) فقد اهتمّ بها كثيراً، كما سأذكر بعدُ، فقال فيها: (لم تكن هذه الرّواية رواية واحدة، ولا روايات ثلاثاً بعدد الأجزاء، ولكنّها قصص عديدة، عجز عن أن يحتضنها الاحتضان القويّ المتماسك).[٢٨]

- الميزة النّقديّة الثّالثة هي بحث شاكر مصطفى عن الجدّة والقدم في بعض الرّوايات السّوريّة. فالطّابع التّقليديّ في رواية (درّ الصَّدف في غرائب الصُّدف) يظهر في العنوان المسجوع، كما يظهر في الصّور البيانيّة القديمة التي استخدمها في نصّ الرّواية. ويظهر أيضاً في مزج النّثر بالشّعر وبالأغاني، وفي الحكاية المنقولة عن شخص نقلها عن شخص آخر في نوع شبيه بالعنعنة والسّند، وفي الاهتمام بالمصادفات، وتفكّك الحبكة، وفي الرّحلات السّندباديّة: (رحلة التّاجر البغداديّ إلى الهند وهياج البحر...)، وفي صورة المرأة، والحبّ... ويظهر الطّابع الحديث للرّواية في الجرأة في صوغ النّصّ الطّويل بدلاً من القصير، ثمّ تقسيمه إلى فصول، واستعمال النّجوى الذّاتيّة والبوح النّفسيّ...[٢٩] أمّا روايات نعمان القساطليّ ففيها الموروث من (ألف ليلة وليلة). وفي رأي شاكر مصطفى أنّه (لا حاجة لإثبات الصّلة بين روايات القساطليّ وألف ليلة، سواء في طريقة القصص، أو في موضوعها. فالحبّ فيها ألف ليليّ، والبحّار والجزر والأسفار في أنيس هي من ذلك المعين الخصب. وتكاد أنيس لولا بعض الملامح الجديدة فيها أن تكون لوناً مجدّداً منقّحاً من قصص قمر الزمان وأمثالها. أمّا طريقة سرد الحكَم واستنتاجها فتأتي إلى الخاطر رأساً بحكَم بيدبا الفيلسوف).[٣٠]

- الميزة النّقديّة الرّابعة هي عدم إسقاط شاكر مصطفى الواقع الخارجيّ على الواقع الفنّيّ، وحرصه على أن تكون أحكام القيمة خاصّة بالرّواية ليس غير. فنصّ الرّواية عنده هو المتن، والمتن فنّيّ وليس نسخاً للواقع. وعلى الرّغم من أنّ شاكر مصطفى تحدّث عن صلة بعض الرّوايات السّوريّة بالواقع، كما فعل في أثناء حديثه عن رواية (نهم) لشكيب الجابريّ، فإنّ حديثه لم يغادر الظّروف العامّة التي أحاطت بالرّوائيّ أو بروايته. ولم يخطئ شاكر مصطفى فيطابق بين الواقعين الخارجيّ والفنّيّ؛ لأنّه كان يتمتّع بحسّ فنّيّ مرهف، دفعه إلى التّمييز بين السّياق الفنّيّ والسّياق الخارجيّ الحقيقيّ

التّقريريّ المباشر غير الفنّيّ. فنعمان القساطليّ في رواية (مُرشد وفتنة) يزجّ بنفسه في السّياق الرّوائيّ أحياناً معبِّراً عن ذلك بقوله: (لقد رأيتُ في جنوب فلسطين)، أو قوله: (ولقد كنّا في منزل القبيلة الفلانيّة).[31] وبقي كثير من التّحليل النّفسيّ في رواية (قدر يلهو) لشكيب الجابريّ منفصلاً غير مندمج في مناخ الرّواية، وليس متفاعلاً معه.[32]

تُشير الميزات الأربع إلى أنّ طبيعة أحكام القيمة عند شاكر مصطفى مستَمَدَّة من قوّة إحساسه الأدبيّ بما يجعل النّصّ الرّوائيّ جميلاً ماتعاً. ذلك أنّ قوّة الإحساس الأدبيّ هي التي تُهدينا، في العادة، إلى المتعة الجماليّة؛[33] لأنّها مرتبطة بالذّائقة، أو التّذوّق، وبخبرة النّاقد بطبيعة الجنس الأدبيّ المنقود. وإذا كانت خبرة شاكر مصطفى ضعيفة، إنْ لم نقل: خالية من تجارب تحليل الرّواية؛ لأنّ الرّواية السّورية نفسها كانت جنساً ناشئاً في أثناء تأليفه الكتاب في خمسينيّات القرن العشرين، فإنّ ظنّي يقودني إلى أنّ قوّة إحساسه الأدبيّ نابعة من معايير نَقْد جنس أدبيّ آخر، هو نقد الشّعر عند العرب كما انتهتْ إليه هذه المعايير، أو غُرستْ فيه بوساطة التّربية، وشكّلتْ ذائقته الأدبيّة. ويصدق، هنا، ما كان محمّد مندور قاله قبل عقود من أنّ (كلّ حُكم قيميّ لا بدّ راجع إلى حُكْم واقعيّ. فالنّاقد الذي يحتمي وراء ما يُسمّيه ذوقه الخاصّ إنّما يُحيلك في حقيقة الأمر على مجموعة من الآراء السّابقة المقرّرة التي تبلورت في نفسه).[34]

أقول بتعبير آخر: إنّ شاكر مصطفى لم تكن لديه تجربة نقديّة سابقة خاصّة بنقد الرّواية؛ لأنّ الرّواية السّورية نفسها كانت ناشئة؛ ولأنّ النّقد الرّوائيّ لم يكن قد ظهر بعدُ في الحياة الأدبيّة السّوريّة. ومن ثَمَّ كان من البديهيّ أن تتبع أحكام القيمة عند شاكر مصطفى من تجارب نقديّة سابقة، وأنْ تُشكّل ذائقته التي لجأ إليها في أثناء نقده الرّواية السّوريّة. ومن ثَمّ دلّت طبيعة أحكام القيمة عنده بوضوح على الأحكام الجماليّة العربيّة القديمة، وهي أحكام استعمل شاكر مصطفى بعضها؛ لأنّها مازالت صحيحة في نقد الرّواية. من أمثلة ذلك أنّه كان يبحث في الرّواية السّوريّة عن (التّماسك) و(التّناسب) و(الوحدة)، وهي مبادئ جماليّة عربيّة راسخة في النّقد العربيّ.[35] ولذلك رفض الاستطراد وحشو المعلومات عند القساطليّ، وفقر الخيال عند فرنسيس مرّاش، واتّساع الزّمان الرّوائيّ عند معروف الأرناؤوط، وحبَّذ تنوُّع العواطف عند شكيب الجابريّ، والحسّ الأدبيّ المرهف عند شكري العسلي. وإنّ أيّ تدقيق في الأحكام التي رفضها شاكر مصطفى، أو قَبِلها، يقود المدقّق إلى أنّ ذائقة هذا النّاقد ميّالة إلى التّماسك والوحدة والتّناسب؛ لأنّها عناصر الجمال أو علاماته بحسب تعبير روز غريّب. وقد استقرّت هذه العلامات في النّقد العربيّ القديم، وتسرّبت منه

إلى ذائقة شاكـر مصطفى التي انتخبت منها ما هو صالح للنّصّ الرّوائيّ الطّويل، وعافت عناصر أخرى، كالتّوازن، تصلح للشّعر وحدَه غالباً.

* * *

لا أشـكّ في أنّ شاكر مصطفى رائد في نقد الرّواية في سورية، بل الرّائد الأوّل في هذا النّقد. وللرّيادة إيجابيّاتها وسلبيّاتها كما هو معروف. وقـد لاحظنـا، ضمـن هـذه الرّيـادة، اهتمام شاكـر مصطفى بتلخيص الرّوايـات، والتّعريف بالرّوائيّين السّوريّين، وتقديم مجموعة من أحكام القيمة حول رواياتهم. وعلى الرّغم من أنّه استمدّ بعضـ معاييره النّقديّة من النّقد العربيّ القديم، واستنـد في بعضها الآخـر إلى ذائقته الخاصّة، فإنّه بقي، في أثناء حديثه عن النّصوص الرّوائيّة كلّها، حذراً غير عجل، دقيقاً غير متسرّع، عاملاً على إبـراز إيجابيّات النّصوص، متردّداً في أثناء تقديم سلبيّاتها؛ لأنّه يملك قيمة نقديّة باقية ما بقـي النّقد الأدبيّ، هي احـترام المنقود، وتقدير جهده، والانطلاق بعد ذلـك من أنّ النّقد وجهة نظر في النّصّ ليس غير.

الهوامش

١- ولـد شاكر مصطفى في حي الصالحيّة في دمشق عـام ١٩٢١م لأب فقير يعمل بقّالاً. وتوفي عام ١٩٩٧م. تلقى علومه في مكتـب عنـبر بدمشق، ثم نال دبلوم المعلمـين الابتدائي عام ١٩٤٢م، وتخرج في جامعة فـؤاد الأول حاملاً الإجازة في التاريـخ عـام ١٩٤٥م. وفي جامعة جنيف في سويسرا عام ١٩٧٠م حاملاً الدكتوراه. عمـل أستاذاً للتّاريخ في درعا ودمشـق، ومديراً لمعارف حوران، ومديراً لدار المعلمين، ومديراً للاذاعة السّورية (١٩٥٥م). ثم عمل أستاذاً جامعياً في عـدد من الجامعات العربية، كما عمل قائماً بالأعمال في السودان (١٩٥٧م). وسفيراً في كولومبيا (١٩٥٨م). وقنصلاً عامّـاً في البرازيل (بين ١٩٦١، ١٩٦٣م). ومديراً للشؤون السياسية في وزارة الخارجية (١٩٦٤م). ووزيراً للإعلام (بين ١٩٦٥، ١٩٦٦م). وعضـواً في مجمـع اللغة العربية في دمشق وبغداد، فضلاً عـن مناصب ثقافية رفيعة أخرى.. خلّف شاكـر مصطفى نحـواً من خمسين كتاباً، منها، غير ما ذُكر في المتن: الأدب في البرازيل (١٩٨٦م). الأندلس في التاريخ (م١٩٥٠). انظـر حولـه: سمر روحي الفيصل (د): معجـم القاصين العرب، صـ ٢٧٥، ٢٧٦. و: عبد القادر عيّاش: معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، ص٤٨٧ (دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م). وانظر أيضاً: عيسى فتّوح: أدباء من الذاكـرة، دار كيوان، دمشق ٢٠٠٤م، و: سليمان سليم البوّاب: موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين، مطبعة المنارة، دمشق ٢٠٠٠م، و: تراجم أعضاء اتحاد الكتّاب العرب في سورية والوطن العربي، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠م.

٢- ذكـر نبيل سليمان اهتمام شاكر مصطفى بنقد الشعر قبـل القصة، وإسهامه في كتابة المقالات، ومشاركاته في تحكيم مسابقـات مجلـة (النقّاد)، قبل أن يفصّل القول في كتابه عن القصة. انظر: نبيل سليمان: النقد الأدبي في سورية، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٠٨.

٣- أعادت وزارة الثقافة ودار البعث في دمشق طباعة كتاب (بيني وبينك) عام ٢٠٠٦م.

٤- كان المعهـد يُدْعَى: معهد الدراسات العربية العالية، ثم عُدِّلت تسميته، فأصبحت: معهد البحوث والدراسات العربية، كما أصبح المعهد تابعاً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي إحدى منظمات جامعة الدول العربية.

٥- شاكـر مصطفى (د): محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالميــة الثانية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهـرة، ١٩٥٨م، ص٨٧. في هذه الصفحة أشار إلى رواية (در الصدف في غرائب الصّدف) لفرنسيس مراش بقوله: (وهي قصة....).

٦- المرجع السابق، ص١٧٤ وما بعد.

٧- المرجع السابق، ص٤٥٠ وما بعد.

٨- المرجع السابق، ص١٨٨.

٩- قـال شاكر مصطفى: (سأنشر ما أستطيع منه في ملحق الكتاب؛ لأن جميع ذلك الإنتاج ضائع أو كأنه..). انظر المرجع السابق، ص٨٩.

١٠- المرجع السابق، ص٨٨.

١١- الزيـادة مني، وهدفهـا التوضيح، وهي تشـير، فضلاً عن تصريح شاكـر مصطفى المباشر في أمكنــة أخرى، إلى أنّ القساطلي كان ينشر كلّ جزء من أجزاء روايته عندما ينتهي من كتابته، ولا ينتظر فراغه من كتابة الرّواية كلها.

١٢- شاكر مصطفى (د): محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، ص٩٨.

١٣- المرجع السابق، ص٨٧.

١٤- المرجع السابق، ص٤٨٩ وما بعد.

١٥- المرجع السابق، ص١٤٠.

١٦- موسى بيطار: مقدمة (لطائف السمر في سكان الزّهرة والقمر)، منشورات احتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦م، ص٣٠.

١٧- ميخائيل الصقال: لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر، تقديم ودراسة: موسى بيطار، ص٦٦.

١٨- حيدر حاج إسماعيل: سلسلة الأعمال المجهولة، دار الريس، لندن، ١٩٨٩م.

١٩- شاكر مصطفى (د): محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، ص١١٨.

٢٠- المرجع السابق، ص٨٩.

٢١- فرنسيـس فتح الله مرّاش: غابـة الحق، تقديم ودراسة: جابر عصفور، دار المـدى، دمشق، ٢٠٠٢م. وقد نصّ موسى بيطـار في مقدمتـه للطائف السمر على أن جابر عصفور اعتمد الطبعـة الثالثة من (غابة الحق) التي أصدرها عبد المسيـح الأنطاكي عام ١٩٢٢م، ولكنه حذف مقدمـة الأنطاكي وكتب مقدمة بديلة منها. انظر مقدمة لطائف السمر، ص٣٣.

٢٢- شاكر مصطفى (د): محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية، ص١٦٠، الهامش١.

٢٣- المرجع السابق، ص٤٠٩.

٢٤- المرجع السابق، ص٥٣١.

٢٥-المرجع السابق، ص٩٤، ٩٥.
٢٦-المرجع السابق، ص١١٨.
٢٧-المرجع السابق، ص٤٠٨.
٢٨-المرجع السابق، ص٥٣٢.
٢٩-المرجع السابق، ص٩٣، ٩٤ (بتصرف).
٣٠-المرجع السابق، ص١٢١، ١٢٢.
٣١-الاقتباسان من المرجع السابق، ص ١٢١، نقلاً عن مجلة الجنان، مجلد عام ١٨٨٢م، ص١٢٧.
٣٢-المرجع السابق، ص٤٣٢.
٣٣-شوقي ضيف (د): في النقد الأدبيّ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م، ص٤٧.
٣٤-محمد مندور (د): في الميزان، القاهرة، د.ت، ص٩٣.
٣٥-روز غريّب: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢م، ص٢٢ وما بعد.

عالم إسماعيل فهد إسماعيل الروائي وتجربته الحداثية

*
نبيل سليمان

مــا زلت أذكر أنني ما إن انتهيت من قــراءة الرواية الأولى لإسماعيل فهد إسماعيل (كانت السماء زرقاء) حتى هتفت: هذه الرواية مثل غَزْل البنات. وغَزْل- بتسكين الزاي- البنات: حلوى ملونــة، خفيفة كالنسمة، ولا تكاد تلامس الحلق حتى تذوب وجْداً وقطراً ولذة. ولئن أكدت من بعــد رواية (المستنقعات الضوئية) ذلك الانطباع، فقــد أقلقتني بشخصية حميدة، ذلك المثقف الذي يتقن استخدام السكين، والذي ستجعله المصادفة قاتلاً، إذ يلبي استغاثة المرأة التي يذبحها شقيقاها، فيقتلهما، ولن أنسى

أن هذه الرواية، كسابقتها، قد دغدغت ما كنت أنطوي عليه من الوجودية التي شرعت تتمركس أو تفسح للماركسية، بعيد تخرجي من الجامعة عام ١٩٦٧م. وسوف تتكرر الدغدغة، وإن بدرجة أدنى أو مختلفة، لدى قراءتي لتمام رباعية إسماعيل بروايتي (الحبل) و(الضفاف الأخرى) وما

---

* أديب وقاص وروائي سوري.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

تلاهـا في سبعينيات القرن الماضي. بيد أن ما هو أهـم من تلـك الدغدغة كان قـد راح يشغلني في روايـات إسماعيل، وأوّل ذلـك هو بناء المشهد من مفـردات، يندر أن تكون أفعالاً أو أن تشكل جملاً. ومن ذلـك في رواية (الحبل) هـذا المثال: «حدوة الحصان. النجـار. المسامير. أمـه. أبوه. الحبل. الخشبـة الناتئـة. الصعود. النـزول. الدم. وجه أمه الملطخ بدماء كفـه» وكذلك: «العمل. الشرطة الكويتيـة. الشرطـة العراقية. الحبـل. المأجور. العرق. الحارسـ. رأس. الجامعة. التقاعد. المال. السجـن». وسوف يغدو هذا (اللعب) علامة فارقة لكتابة إسماعيل الروائية، وحيث تؤدي اللعبة مهمة أو أكثر. فهي ترمي بالمفردات التي تعنون ما سيدور في المشهد التالي أو الفقرة التالية أو الفصل التالي من أحداث أو حوار، أو ما سيمور من مشاعر. تلك مهمـة أولى، وثمة مهمة ثانية تتمثل في أن تلخص المفـردات ما سبق أن دار أو مارّ. وقد يكون على اللعبة أن تنهض بالمهمتين الأولى والثانية معاً.

إلى ذلـك سيدمـن إسماعيل فهـد إسماعيل تصديـر روايته بملاحظة أو مقدمـة أو إشارة أو كلمة. ففي تصدير رواية (الحبل) تحدد الملاحظة الأولى «أن الأحداث تدور عام ١٩٦٢م»، بينما تنصّ الثانية على أنه «من أجل زيادة الإيضاح ارتأينا أن نكتب السرد بحـروف بارزة، أما الحوار والتداعي فقد كتب بحروف عاديـة». والكاتب بذلك يسلك مسلك غسان كنفاني وعبد الرحمن مجيد الربيعي وغـادة السمان... أي مسلـك الموضة التي درجت آنئـذٍ بالتمييـز طباعياً بـين مستويـات الكتابة، والعناية خاصة بمستـوى اللاوعي أو اللاشعور أو التداعـي توخيا للحداثة وجريـا على نهج فوكنر وأضرابه. ومما يسجـل لإسماعيل فهد إسماعيل منذ رواية (الضفـاف الأخرى- ١٩٧٣م) ملاعبته للضمائـر الثلاثـة (المتكلم- المخاطـب- الغائب) معـاً في المقطع السردي الواحد. علـى أن آخرين سيلعبون هذه اللعبـة، كما سيلعبون لعبة الحروف البارزة والحروف العادية في طباعة الرواية.

غـير أن اجتماع هاتين اللعبتـين مع لعبة بناء المشهد مـن مفردات، هو ما سيبدأ برسم الحداثة الخاصة بروايات إسماعيل فهد إسماعيل، وهو ما سيتعزز بلعبة أخرى فأخرى كما سنرى. فإذا بالعالم الروائي لإسماعيل فهـد إسماعيل ينهض مدماكاً فمدمـاكاً، ورواية فروايـة. وفي مركزه ذلك الفرد المثقف اليساري المناضل في حزب سري أو منظمة سرية. وقـد كان إسماعيل بهذا وحده يبهرني كما يبهر جيلي ممن صدعـت هزيمة حزيران- يونيو ١٩٦٧م (ريعان شبابهـم)، فكيف إذا أضفنا غواية إسماعيـل الحداثيـة لمن كان مثلـي يخطو خطاه الأولى على درب كتابة الرواية؟

* * *

هـو ذا الراوي في رواية (الحبـل) يتحول من الكاتب اليسـاري الملاحق إلى لص. وهو ذا الحبل الممتد بين السماء والأرض مثل حبل غسيل أو مثل الحبل الملفوف على بطن هذا الشاب، بل مثل حبل طرزان الذي فتن طفولة ذلك الشاب. وبذلك يغدو الحبل رمزاً شفيفاً تنعقـد عليه حياة هذا الشاب الـذي لا يفتأ يحاول الحصول على عمل، فيكتبون

له: سياسي خطير، أي: لا عمل ولا سفر، فـلا مفرّ إذاً من الفرار إلى الكويت بلا جواز سفر. وثمة سيكون العربي الوحيد بين ثلاثة عشر رجلاً وامرأة يعملون في حفر مجاري أحـد شوارع الكويت. لكن الشرطة الكويتيـة تقبض عليه وتسلمه إلى الشرطة العراقية الحدودية.

بين نهـر العشار وجسـر أم البروم والمقـبرة وحـي الخندق، يتطـوح ذلك المناضل كما يتطـوح بين الشعر والثورة واليسـار. وكمـا يتطوح بـين الكويت والحدود. مما سيرويه وهو يزحف على بطنه ويلعب في الرواية لعبة الاسترجاع العتيدة والأثيرة لدى الكاتب منذ باكورته الروائية. ومثـل بطل روايـة (الحبل) مثل بطلـي الروايتين السابقتـين. ستكون لـه جبلّة جديـدة في الجزء الأخير من رباعية إسماعيل الروائية، أي في رواية (الضفاف الأخرى).

إنها جبلّة كريم البصري التي لا تكتفي بمناداة الأجـزاء الثلاثة السابقة مـن الرباعية، بل تنادي وربما بقوة أكبر. كـريم الناصري، بطل رواية عبد الرحمـن مجيد الربيعي (الوشـم). وهكذا ستبكر (الضفاف الأخرى) على الحداثة الروائية العربية بلعبة التناص، وبأقـل طبعاتها تداولاً حتى اليوم، أي بطبعـة التفاعـل النصيّ الذاتـي، كما بطبعة التفاعل مـع النص الروائي الغريـب، فضلاً عن طبعة التناص مع شبكـة النصوص غير الروائية، كالشعر أو التاريخ أو الجغرافية...



تصـدّرت روايـة (الضفاف الأخـرى) بكلمة المؤلـف التي يصف فيها رواياتـه الثلاث السابقة بالروايات القصيرة (النوفيلا)، ثم يعلن عن ضيف الحـدث: كريم البصري المستوحى «إلى حد ما من شخصية كريم الناصري بطل رواية الوشم للكاتب العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي». وكنت فيما كتبت عن هذه الرواية (جريـدة الثورة الدمشقية ٢٩/ ٦/ ١٩٧٤م) قـد لاحظت لعبـة الطباعة في (الوشم) كما في رواية غسان كنفاني (ما تبقّى لكم) أو روايـات إسماعيل فهد إسماعيـل. وقد نوّهت ببطولة المثقف اليساري المناضل بطبيعته الوجودية والماركسيـة والقومية، في تلـك الروايات وفي باقة مـن الروايات العراقية التي كنت قـد قرأتها للتو مثل (القلعة الخامسة) لفاضل العزاوي و(شقة في شـارع أبي نواس) لبرهـان الخطيب و(على الدنيا السلام) لذي النون أيوب و(المناضل) لعزيز السيد جاسم الذي تذيلت رواية الربيعي بكلمة له.

في الفضاء الأثير لإسماعيل فهد إسماعيل، فضاء البصرة من جنوب العراق، يتطوح بطل (الضفاف الأخرى) السجين السياسي السابق، والكاتب الذي يعمل في الصحافة إلى جانب عمله في مخزن أحد المصانع. وسيجمع العمل كما جمع السجن بين كريم البصري وبين رئيس السجانين السابق (الزاير) الذي كان واحداً من شخوص رواية (المستنقعات الضوئية) كما ينصّ الكاتب في (الضفاف الأخرى)، معلناً عن لعبة التفاعل النصي الذاتي، أي التناص بين أجزاء الرباعية الروائية، سواء عبر شخصية الزاير أم عبر شخصية كاظم عبيد الذي كان الشخصية المحورية لرواية (الحبل) ومنح في (الضفاف الأخرى) اسم كاظم «كنوع من التعويض». وكان الكاتب منذ البداية قد ذكر في الهامش أن إحدى شخصيات رواية (كانت السماء زرقاء) بات اسمها فاطمة في (الضفاف الأخرى) بدلاً من لقبها السابق (ذات الثوب الأزرق). والكاتب بكل ذلك، ينفذ ما تقدم في كلمته التي تصدرت الرواية: «الضفاف الأخرى محاولة لمتابعة بعض شخصيات الروايات الثلاث السابقة ضمن خط زمني واحد متطور».

انفصل كريم البصري عن زوجته وأحب الراوية التي تركت عملها في التعليم تلبية لطلبه في أن تكون ربة بيت وحسب، بينما يكتب هو القصة ويطوي مخطوطاته ويعزم على الهرب إلى إيران، ولا يني يصدعنا «أنا إنسان من نوع خاص. أحتاج إلى جو خاص. القراءة. التأليف». وعلى الرغم من هذه التناقضات، تلحّ الرواية على الغواية الثورية عبر المعمل والعمل والعمال، وخاصة عبر شخصية أحمد عبد الله، أو عبر التنظيم (الحزب- المنظمة) حيث «لا يتخلق الفرد بصور جيدة إلا من خلال التنظيم» أو عبر اندغام الفرد في الجماعة، حيث «المشاغل الفردية تمحي في مشاغل المجموع».

صاغت رواية (الضفاف الأخرى) زمنها في ستة أيام لتدع اليوم السابع فارغاً ومبهماً، فلا المكان محدد فيه ولا الأشخاص، فقط الحالة وهي: (الضفاف الأخرى) التي تعنونت الرواية بها. وبذا تتوّج الرواية مضارعتها لملحمة الخلق. وسوف يغدو مثل هذا الاختزال للزمن -بالأحرى مثل هذا التركيز- علامة فارقة أخرى لتجربة إسماعيل الروائية، كما هو شأن ظهور الحوار والسرد كأنما يصلان حديثاً مقطوعاً، وكما هو شأن مباشرة الحوار بين شخصيات الرواية، بلا مقدمات. وإذا كانت السمة المسرحية ستسم الحوار في تجربة الكاتب الروائية، فسوف يبلغ هذا الوسم البناء الروائي برمته، كأن يُفتتح أحد فصول (الضفاف الأخرى) على هذا النحو:

«المكان: غرفة السكرتيرة

الحالة: مشروع توظيف

المرفقات: ملف

الأشخاص: ١- فاطمة، ٢-الزاير.

يفتح الباب بهدوء. يدخل رأسه. فاطمة منكبة على المكتب. يدخل باحتراس. يقف في منتصف الغرفة. فاطمة ما زالت مشغولة...».

وبالطبع، يتصل بهذه (المسرحة) ما سبق ذكره من رسم مفردات للمشهد. حيث تغدو الكلمة برقية

مسرحيــة. كان نقــراً في الرواية نفسهــا «العمل، العمال، المصنــع، مشارف المدينة، السياج، الآلات، الضجيــج. ١٢٠٠ عامل...» ومن هنا تقبل الرواية علــى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة والعامل الفني أحمد عبد الله والإضراب و...

* * *

بعــد الرباعية، دفع إسماعيــل فهد إسماعيل بروايته (ملــف الحادثــة ٦٧). وبحماسة الشباب -كنــت قد بلغــت الثلاثين -كتبــت مراجعة لهذه الروايــة في جريدة الثــورة الدمشقيــة (٥/ ١٠/ ١٩٧٥م). وقد ضــمّ من بعد كتابي (سيرة القارئ- ١٩٩٦م) تلــك المراجعة. وبالأحــرى: تلك الحملة التي بدأت بالإشارة إلى أن إسماعيل فهد إسماعيل يمتح تجارب أبطاله مــن الواقع السياسي العربي في ستينيــات القرن العشرين. وكما يليق بالماركسي العتيد شخّصــت انتماء أولاء الأبطــال عامة إلى البورجوازيــة الصغــيرة، تمرداً علــى طبقتهم أو رفضاً أو تبريــراً أو ترسيخاً لها، مما يدفعهم إلى مواجهة السلطة القمعية والمرور بالتجربة الحزبية ومعاشرة المعتقلات... ومن هنا مضيت إلى الغلالة الرمزية الواهية وغير الشفافة، وهذا ما لازلت أراه فيما حاولــت تلك الرواية من الإحالة على هزيمة ١٩٦٧م عــبر ترقيم إضبارة الفلسطيني الذي يقتل فلسطينياً آخر. لكن ما تابعته في تجربة إسماعيل فهــد إسماعيل حتى الرواية المعنية، يبدو لي اليوم غير مبرر. كما إن مــا تلا من تجربة إسماعيل قد دحض مــا توقعته لها. فقد (زعمــت) أن الرواية الأولى، بــل والثانية، لإسماعيل قــد جاءتا خطوة جديدة ومتقدمة في الروايــة العربية. لكن الخط الروائي للكاتب ارتسم من بعد مستقيماً ومسطحاً. وقد فقد بهجته الأولى، واستحال «إلى تكرار مصّ من الخطــوة الجديدة ماءها. فغدت علامة جدب وفقــر، ومبعث تساؤل قلق عن مصير هذا الكاتب، وعن الحجم الحقيقي لمقدرته ولعبته الروائية...». وأردفــت ذلك بوقــوع الكاتب في غــرام الزخرفة الشكليــة، وبالتفنن في إبهار القــارئ، والوقوع في التبسيط، مستشهــداً بالمسرحة والترميز في رواية (ملف الحادثة ٦٧). وختمــت مقرراً أن «التجربة التــي بدأت واعدة ومغريــة وجديدة ذات يوم، قد استهلكت كافــة إمكانياتها لــدى الكاتب، وسريعاً جداً».

إضافــة إلى حماسة الشباب والمركسة العتيدة، ربمــا تكون الغــيرة دافعاً آخر لمثل هــذه الأحكام القاطعة التي لا تخلو من السذاجة. ولكن، أياً تكن الأسباب، فإن صلتي كقارئ بروايات إسماعيل فهد إسماعيل التالية ازدادت حرارة ومتانة وعمقاً، من دون أن يعني ذلك أنه ليس لديّ ما أختلف فيه مع هذه الروايــة أو تلك. وحسبي هنا أن أستعيد مما كتبت في أمس قريب عن ضغط الأيديولوجي على الفنــي في رواية (سماء نائيــة)، وفي المقام نفسه- وهــو ما ضمّه كتابي: جماليــات وشواغل روائية- ٢٠٠٣م)- نوهت بالاقتصاد اللغوي الذي اشتهرت بــه الكتابة الروائية- والقصصيــة إلى حد كبير- لإسماعيــل فهد إسماعيل، كما نوهت ببلوغ تجربة

الكاتب ذروتها في (سماء نائية)، وهي التجربة التي انتمت منذ بدايتها إلى الحداثي.

* * *

إذا كان العراق يبدو فضاءً روائياً أثيراً لإسماعيل فهد إسماعيل، ومنذ البداية، فالكاتب سيدأب على تنويع هذا الفضاء، فإذا لبيروت حصتها (رواية الشياح) وإذا بمصر تنافس الكويت على حصة أكبر، وإذا بالفضاء الفلسطيني المندغم بالفضائين اللبناني والمصري، يحضر متّقداً في رواية (النيل الطعم والرائحة) ومخاطباً يومنا السياسي فيما صورت الرواية من الإرهاب والاغتيال والديكتاتورية، وبالإهاب الحداثي دوماً.

عبر أيام الخميس والجمعة والسبت (منه)، أي من شهر ما من سنة ما، تأتي رواية (النيل الطعم والرائحة) في ثلاثة أقسام -لكل يوم قسم- لترسم هجرات الفلسطيني سليمان الحلبي من غزة إلى عمان إلى القاهرة إلى بيروت إلى عواصم عربية أخرى، إلى القاهرة أخيراً، حيث الحاضر الروائي المتعلق بمشروع الرجل لاغتيال صاحب الفخامة الذي لا تسميه الرواية، لكنها ترسمه على نحو يكفل لها حق الريادة لما ستعنى به الرواية العربية في العقد الأخير من رسم شخصية الديكتاتور.

فهذا الديكتاتور الرائد نشأ فقيراً، لكن حاله تغير منذ سنته الجامعية الثالثة إلى أن بات محامياً وشاعراً وكاتباً فمنظّراً للعهد الاشتراكي. وبالطبع، لايكاد هذا الديكتاتور (الصغير) يقارن بالديكتاتور الذي سيليه في روايات واسيني الأعرج وأبو بكر العيادي وفاضل العزاوي وغازي القصيبي وسالم حميش.. لكأنه ليس أكثر من مبشر بالديكتاتور (الكبير) القادم. غير أن تاريخ الديكتاتور الصغير يحيل على ما عاشت مصر من عشية زمن جمال عبد الناصر إلى ما تلاه، وكذلك هي الإحالة إلى ما عاشت بيروت من الحراك الفلسطيني الماركسي القومي. فأيام الرواية الثلاثة تنفتح على تلك العقود الثلاثة المصرية الفلسطينية اللبنانية، كما تنفتح على ما هو أبعد من تاريخ مصر، على زمن سليمان الحلبي الشاب السوري الذي اغتال كليبر.

لا تعيّن (النيل الطعم والرائحة) صاحب الفخامة في تاريخ مصر المعاصر، وهذا ما سيتواتر في الرواية العربية التي قدمت الديكتاتور، حيث تشتغل إستراتيجية اللاتعيين وحدها. لكن رواية إسماعيل تصل ما بين صاحب الفخامة والجنرال كليبر الذي اغتاله سليمان الحلبي الأول، كما تصل بين سليمان الحلبي هذا وبين سليمان الحلبي الثاني القادم من بيروت حين كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد شطرتها بين شرقية وغربية. وسيظل سليمان هذا يستعيد زمنه الأول في غزة وزمنه التالي في بيروت الغربية، بينما تمضي أيامه المصرية الثلاثة. وكما يتعلق زمن بيروت بإقبال يتعلق زمن القاهرة بشيرين. وعبر المرآتين ترتسم شخصية البطل الثوري سليمان على غرار أبطال روايات إسماعيل السابقين واللاحقين، من الثوريين.

فإقبال تلاحظ أن هناك ما هو غير طبيعي في شخصية سليمان، فيتساءل: «تقصدين أنني

شـــاذ»، لكنها تنفي، ثــم توضـــح: «ردود أفعالك، موقفك من الحيـــاة والأشياء، أسلوبك في التفكير، طريقتـــك في الاستنتاج، نهجك المـــتردد في اتخاذ قراراتك، مزاجيّتك المتحكمة في سلوكك». عندئذ يعقب سليمان *«معنى كلامك أنا: ولا شيء»*. وسوف يضيء شخصية سليمان أحد رفاقه في بيروت، وهو أبو خميس المهرب السوري الآفاق الغريب الأطوار الذي يخاطب سليمـــان: «أنتم المثقفون لا تعرفون أن تحترموا المرأة» لكن سليمان يصدح «أنا فدائي متفـــرغ» كما تصـــدح له شيرين العاملـــة في أوتيل شبرد حيث ينزل في القاهرة: «أنت غير الآخرين». وسيكافئهـــا علـــى هذا الامتياز الـــذي خصته به، بمثله. فيخاطبها «أنت غير الأخريات». وبحسب ما ترسم شيرين يبدو سليمـــان متعباً وصامتاً وحزيناً وشـــارداً. وستشتبك في الروايـــة قصتها (زواجها مـــن شاب خليجي وطلاقهـــا وولدها الذي لا تراه وتجربتها في مشفى الأمراض العصبية) بتكليف الاستخبـــارات لهـــا مراقبة سليمـــان، باشتات من قصة إقبال التي كانت ترفض الاغتيال كما ترفض الإرهاب، وتساوي بين التطرف اليميني والتطرف اليســـاري. وإذا كان حضـــور شخصيـــة سليمـــان الحلبي التاريخيـــة -ومعها شخصية كليبر- ينادي الحضـــر في التاريخ بلعبة التناصـــ، فاللعبة تنادي روايتي نجيـــب محفوظ (ثرثرة فـــوق النيل- خان الخليلي) وتنـــادي غسان كنفـــاني وصلاح جاهين إلى حضور رمـــزي في (النيل الطعـــم والرائحة). أما نـــداء اللعبة الأكبر فهو لمسرحيـــة ألفريد فرج (سليمان الحلبي)، فسليمان يلتقي مع مخرج العرض والممثل الذي يلعـــب دور سليمان الحلبي-وتقدمه شيرين باسم سليمان خاطر قاتل السادات- وتدور في الروايـــة مناقشات حـــول مسرحية ألفريد فرج كما يشار إلى مسرحية سعد الله ونوس (حفلة سمر مـــن أجل ٥ حزيران). *وليس هـــذا* إلا توكيداً على مـــا سبقت الإشارة إليه مـــن أن (المسرحة) علامة فارقة لتجربة إسماعيـــل الروائية الحداثية. وهنا لابد من التنويه بكتابي إسماعيل النقديين (الفعل الدرامي ونقيضه: دراســـة في أوديب سوفوكليس) والكلمة- الفعل في مسرح سعد الله ونوس)، وكذلك هو التنويه بالكتابة المسرحية لإسماعيل.

* * *

إلى أبعـــد ممـــا تقدم في روايـــة (النيل الطعم والرائحـــة) تذهب روايـــة (النيل يجـــري شمالاً: النواطـــير)، وذلـــك في لعبة التناص مع الجبرتي الذي تلقبه الرواية بمؤرخ الشعب، كما تلقب مراد بك ببطـــل الشعب. وقد نصّ الكاتب في مستهل الرواية على أنه «تشبثـــاً بالأمانة ومنعاً للالتباس، وبما أن الجبرتي شـــارك -مرغماً- في كتابة هذه الرواية، فقد جرى الاتفـــاق على أن يوضع كلامه بين هلالين تمييزاً له عما عداه: ونشداناً لتفاصيل دقيقـــة أغفل الجبرتي ذكرها، اقتضى الرجوع إلى المستشرق لوتسكي في كتابه الهادف (تاريخ الأقطار العربية الحديث)».

لقـــد تابع الكاتب عهده في بنـــاء المشهد حتى مـــن كلمة، كأن نقـــرأ «الفرنسيـــس. المعركة. عبد الرحمن المصـــاب. قسطنطين الحـــلاق. اللقمة. تفيدة. ضرورة التواجد اليومي في المشغل، وإلا فلا

لقمة له ولتفيدة، ولا غذاء أو دواء لعبد الرحمن». كما قدم الكاتب نابليون كشخصية روائية، غير أن الإنجاز الأكبر للكاتب في هذه الرواية كان في تعدد لغاتها، حيث كان للجبرتي لغته، ولمنشور نابليون لغته، كما يظهر في مفتتح عدد من الفصول. كما كان لإسماعيل اللغة المضارعة للغة الجبرتي- كأن نقرأ: «كان زمناً ولا كل الأزمان، فلا أمان ولا اطمئنان». وكانت لإسماعيل فهد إسماعيل لغته المعهودة في الحوار بين الشخصيات، سوى أنه هذه المرة ندر أن ترك الجمل معلقة. وبالإضافة إلى ذلك كانت للكاتب لغة أخرى تتخفف من التوتر المعهود، وتتوشى أحياناً بالسخرية، وتسترخي فيها الجمل وتطول، كأن نقرأ: «يقال، والعهدة على الجبرتي، إن أي أمير من هؤلاء الأمراء قادر على تسيير، ومن ثم تجهيز جيش صغير أو كبير إلى حد ما، لو اقنعته ضرورات صراعاته، أو تحالفاته، لا فرق». أو كأن نقرأ: «مما لا يروى عن الجبرتي أن المحتشدين في القاعة الكبرى من القصر العيني وهم بسبيلهم لفض اجتماعهم، استدركهم اقتراح قدمه شيخ ازهري نصف مغمور: ليس أفضل من الدعاء لفض هذا اللقاء».

في لعبة أخرى مع التاريخ تشبك بينه وبين الراهن، تمضي رواية إسماعيل فهد إسماعيل (الكائن الظل) إلى أخبار اللصوص وأشعارهم في الأدب العربي القديم، فيستل مثلاً قصة حمدون بن حمدي اللص البغدادي الذي قُتل توسيطاً، ولنتابع ما كان قد توقف من مشروع زواجه جراء غدر صاحب الشرطة به والإجهاز عليه. وقد أدركت هذه اللعبة للغة الرواية تعددها، وإن يكن بدرجة أدنى مما تحقق في رواية (النيل يجري شمالاً: النواطير)، بينما يضارع التعدد اللغوي في رواية (يحدث أمس) ما تحقق منه في هذه الرواية.

وقد افتتحت رواية (يحدث أمس) بإشارة من المؤلف -كالعهد غالباً في افتتاح الرواية- إلى أنها «ليست تسجيلية. ولأنها كذلك أجازت لنفسها اختلاق بعض المسميات والوقائع بما يناسب مرونة الزمن الروائي». ويعجل هذا الافتتاح باللعب حين ينصّ على أن «الزمن الفعلي للأحداث عامة زمن عظيم ولا شك. وليس ببال هذه الرواية أن تسئ إليه». وقد عادت الرواية إلى خمسينيات القرن الماضي حين غادر بطلها سليمان يوسف العراقي إلى الكويت، وصار فيها المدير العام لشركة صيانة انابيب البترول. وبعد سبع سنوات يعود الرجل إلى قريته باب الهوى من سوار البصرة، فإذا بصرخة (قف) تستقبله. وإذا بالمعتقل ينتظره، فالثورة كانت قد قامت في ١٤/ ٧/ ١٩٥٨، وأمن الثورة يشتبه بهذا العائد حاملاً عملات شتى وجواز سفر.

يجمع المعتقل بين سليمان وحاكم سلطان القادم من قرية بدر شاكر السياب (جيكور) ومعهما هادي جواد الذي لم يحمه عمله مع أمن الثورة، لأن ابنه صادق من زوجته الإيرانية يخدم مجنداً في الجيش الإيراني، وهادي يحمل الجنسيتين العراقية والإيرانية. ولئن كان سليمان محور الرواية، فقد أفسحت لقصتي المعتقلين الآخرين. وعبر سرد هذه القصص تنوعت لغات الرواية. فعندما تشرح سر تسمية قرية سليمان بـ(باب الهوى) تنحو منحى

الكتابة الجغرافية (ص ٢٥- ٤٤- ٤٥ مثلاً). وعندما تسترجع الرواية نشأة سليمان -مطوّلاً- تنحو اللغة الروائية منحى إخبارياً، كما في مطلع الفصل الخامس (ص ٨٠ وما بعدها) حيث تأتي تبعية والد سليمان للباشا هاشم النقيب الذي ابتنى قصره في باب الهوى، كما يأتي رفض سليمان لهذه التبعية وعمله عند سواه، ثم استرداد الباشا له، ورحيله إلى شركة الباشا لصيانة أنابيب البترول في الكويت. وستكون للرواية عباراتها المميزة التي توجز (رسالتها) كقولها بسنّة التغير أو بأن لكل زمان معطياته، وكسؤالها «ما هو الخطأ؟» وذلك بصدد اعتقال سليمان الذي سيفرج عنه أخيراً، بحسب خاتمة الرواية تحت عنوان (حدث تلك الليلة) سوى أن الصرخة الحاقدة (قف) ستنفذ في أذني سليمان كفوهة مدفع رشاش بين عينيه، فتورث قدرية الاعتقال الغامضة التي تجعل التاريخ يجرّ نفسه في هذه العبارة التي تفتتح الفصل التاسع عشر «ما حدث أمس يحدث اليوم».

***

إذا كانت كل رواية من روايات إسماعيل فهد إسماعيل تحمل قدراً أو أكبر من علامات الحداثة الروائية الخاصة بهذا الكاتب، ففي كل رواية ترجع علامة من ذلك، أو أكثر. هكذا بدا الحفر في التاريخ في رواية (النيل يجري شمالاً: النواطير) بينما بدت المسرحة مميزة في (ملف الحادثة ٦٧). وكما بدا التكثيف الزمني في الأيام الثلاثة لرواية (النيل الطعم الرائحة) سيبدو في رواية (الطيور والأصدقاء) حيث يستغرق (سهرة) مملة يقاوم فيها الرجل الملل بالتداعي وبالغرق في دخيلته بينما تستمرئ المرأة انبهارها بالغناء. وعلى نحو أبهى يأتي هذا التكثيف في رواية (خطوة في الحلم) التي تستغرق حفلة راقصة (سهرة أيضاً)، وعبرها تقدم حيوات السارد وزوجته وصديقه الفنان التشكيلي وزوجته ورجلي المباحث. وقد وسم الكاتب هذه الرواية بـ(مشروع رواية) وجعل لها مقدمة مقتطفة من قصيدة (مقدمة) للشاعر السوري سهيل إبراهيم. ومن هذه المقدمة تنداح المتناصات الشعرية في الرواية. مثلما انداحت في روايات شتى للكاتب، فازدانت بأسماء أمل دنقل وعلوي الهاشمي وعبد الكريم كاصد وسواهم. كما ازدانت بمتناصات غير شعرية، منها من ذكرناه الجبرتي، ومنها في رواية (خطوة في الحلم) ما كتب مصطفى أبو لبدة.

تنطوي العلامات الخاصة بالحداثة الروائية لإسماعيل فهد إسماعيل تحت عنوان (التجريب)، وتتقاطع مع التجربة الروائية الحداثية العربية عامة، وهذا ما تؤشر إليه لعبة التناص في روايات إسماعيل مثلاً، كما يؤشر إليه فعل تيار الوعي، أو التعدد اللغوي... ومن هنا كان لإسماعيل فهد إسماعيل موقعه المميز في صدارة المشهد العربي طوال العقود الأربعة الماضية، وبغياب سباعيته (إحداثيات من الزلة)، فكيف إذن لو حضرت؟

حلب في دراسة لآخر قنصل أوروبي

✿
إعداد وترجمة: د. محمود حريتاني

تقع حلـب على طرق المواصـلات، في منتصف الطريق بين الفـرات والبحر المتوسط. ارتفاعهـا عـن سطح البحر ٣٨٠ متراً علـى هضبة في أسفلها يجري نهـر قويق، وينبع من مرتفعـات بلدة عنتاب «تركية» إنهـا في موقعها هذا تشكل منذ العصـور القديمة الطريق الطبيعية لهجرات الشعوب المتتالية، وبالوقت نفسه فريسة سهلة للغالبين الطامعين.

إذا رجعنـا إلى حوليات التاريخ فإننا نرى في نصوص الألف الثانية اسم «حلبا» عاصمة قديمة لملكة مزدهرة. وحتى اليوم فإن الوثائق المكتشفة تؤكد قدم حلب وهي موضوع لوحة مسماريـة من الأرشيف الملكي في مدينة حاتوشا[١] «بوغازكوي» نقشت باللغة البابلية. فضلاً عما ورد في مكتشفات إيبلا التي كشفت مؤخراً وتعود إلى ٢٢٥٠ قبل الميلاد. ولدى قراءة نص معاهدة أبرمت بين ملك خطي مورشيل الثاني ١٣٣٦ق.م وابن أخيه ريميشارما ملك حلب من

✿ باحث وآثاري من سورية.

قبل موتاولي الأول، الملك الكبير للحثيين، ويمكن تاريخه حوالي الألف الثاني قبل الميلاد.

إن الإمبراطورية الحثية التي وجدت قبل الاف السنين كانت تشكل تحالفاً لممالك من بينها حلب.

وإن التاريخ لم يذكر المساعدات الهامة التي قدمتها حلب في معركة قادش ١٢٩٦ ق.م وبفضل المصاهرة بين الأمراء قام سلم بين حاتوسيل الثالث ورمسيس الثاني، وأن ابنة ملك الحثيين قد أصبحت من نساء فرعون.

أما النصوص المصرية في الألف الثاني قبل الميلاد، تذكر وجود حلبا التي وقعت ضمن أطماع الحثيين. وقد أكدت برديات «لايد» إتلاف منتجات حقول حلب.

إن فترات احتلال المصريين لم تكن طويلة، لقد أسس نابولاسر الكلداني الأصل في عام ٦١٢ السلالة البابلية الجديدة، وأصبحت بابل مركز التجارة العالمي في ذلك الوقت، وعادت لحلب أهميتها.

حوالي القرن السابع قبل الميلاد، تدفق الفرس من هضبة إيران نحو الجنوب والغرب واحتلوا الشرق الادنى ومصر واليونان، وإن ملكهم كسرى ٥٢٣-٥٢٩م كانت سياسته في الاستيعاب احترام العروق والحضارات والثقافات، وتبنيها من قبل الشعوب المغلوبة، فترة الحرية هذه سوف تزول من قبل قائد شاب تلميذ أرسطو هو الإسكندر ابن فيليب المكدوني، وعلى رأس ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف فارس قرر انتقام اليونانيين من الاهانات التي أنزلها الأخمينيون باليونان. لقد هاجم داريوس وانتصر عليه في معركة ايسوس[٢] (٣٣٤ق.م) ناشراً في حلب مزايا الحضارة الهلنستية [٣].

بعد موت الإسكندر في ١٢ حزيران ٣٢٣ ق.م في بابل، برزت بعض الفوضى نتيجة أطماع قواده، والتي أدت إلى التعويض عن نظامه المستقر وثقافته الرائعة، وحسب تقاليد المدن المكدونية، فإن سلوقس نيكاتور أعطى حلب اسم «بيرويا» [٤].

بعد قرنين من الزمن وأمام عدم تعاون ملوك والمؤتمرات التي قام بها القواد، أدت إلى حالة من الفوضى أتاحت للفرق الرومانية بقيادة بومبيي، وباستقبال من الشعب المعجب بالسلم الروماني، الدخول إلى سورية بلا «قتال» وبعد ازدهار، فترة السلوقيين حسب راي غوبينو، جاءت روعة حكم الرومان، ففي عام ٦٥ قبل الميلاد، تغلب على «الميتريدات»[٥] واتجه إلى سورية، ولما لم يكن فيها ملك شرقي، عمل منها مقاطعة رومانية[٦]. إن الحكم الروماني في حلب فرض طبقته الراقية وأساطيره، ولم ير أمامه البرابرة وإنما مدينة اليونانيين، فقد كانوا واقعيين بامتياز، فكانوا إداريين ومنظمين وعسكريين، لقد خلقوا في البلاد نظاماً وأمناً، كما أكدوا الاتصالات والتجارة حين شقوا الطرق العريضة وبلطوها، لقد عمَّ الازدهار بفضل «السلم الروماني» فقد بنيت مدن جديدة ووصل عدد سكان سورية إلى سبعة ملايين في القرن الثاني الميلادي فقد

ازدهرت التجارة واعتبرت وديان نهر الفرات ونهر العاصي بين خزائن الحبوب للامبراطورية، وكانت منطقة ما بين النهرين خصبة جداً ليقول عنها «سترابون»[٧] إن المثل يصل إلى ثلاثمئة مثل في حقل الشعير. لقد خزنت كميات كبيرة من الحبوب في آبار صخرية واسعة. لقد كانت حلب بالنسبة للرومان نعمة آسيا وتنتج مواد الرفاهية وخاصة العطور العربية، وأرجوان فينيقية وحرير الصين وأجواخ ما بين النهرين والأحجار الكريمة الفارسية.

الرومان الواثقون بسيطرتهم، أتاحوا التعايش مع السلالات الحاكمة من سكان البلاد، عائلة أذينة في تدمر والأنباط في البتراء وهيرودوس يهوذا، كلهم كانوا من السلالات الإقطاعية.

لقد منحوا السوريين صفة المواطنين الرومان وأعتقوا الأرقاء الآتين من سورية وسهلوا الهجرة إلى روما. لقد كان التأثير السوري قد وصل إلى أعلى المستويات لدى المسؤولين. وحوالي عام ١٨٧م تزوجت ابنة كاهن عبادة الشمس في حمص ايلا غابل، جوليا دومنا قائد الفيلق الروماني في سورية سبتيم سيفير، والذي أصبح بعد ست سنوات يتربع على عرش قيصر.

لم تتأخر المسيحية عن الانتشار في حلب، ومنذ ٣٢٥م أوستاش أسقف بيرويا قد تربع على عرش أسقفية أنطاكية. وفي الثامن من آذار عام ٣٦٣م، وخلال مرور الإمبراطور في حلب مطارداً الفرس، ضحى ثوراً أبيض على المذبح الرئيسي في معبد قلعة حلب. وأسف على اعتناق أكثرية سكان حلب لديانة الناصري.

في ٣٧٨م نظم أسقف حلب (أقاق) مجمع بيرويا في فترة اختلاف الجدال المذهبي الذي تطور في إقليم متعصب بشدة، وأن مجمعات أفسوس[٨] ٤٣١م وكالسيدوان[٩] ٤٥١م، وقد رفضوا مبدأ أنسطوروس (النساطرة) وأصحاب الطبيعة الواحدة[١٠]. ولما كانت حلب بعيدة عن هذه الأمور فقد استمدت بتجارتها الحية والمستفيدة من ثراء بيزنطة وأعيانها وثقافتها، لقد امتلأت المنطقة بالكنائس الجميلة والأديرة حيث المدن الميتة[١١]: قلعة سمعان بشكل خاص وماتزال تعكس إشعاعها.

في عام ٥٤٠م قاد كسرى جيشاً فارسياً وهاجم سورية، وقد كلفت المدن السورية ميناس أسقف حلب للتفاوض مع الفرس وتوقيع معاهدة، ولكن المفاوضات توقفت، وأحرقت مدينة حلب، لأنها لم تدفع الجزية التي فرضت عليها وهي ألفا كيلو من الفضة.

في ٦٣٠م أعادت الملكة بوران الفارسية إلى الإمبراطور هرقل خلال وجوده في حلب خشبة الصليب التي أخذها الفرس في ٦١٤م لدى احتلالهم القدس.

تقليد راسخ خلال ثلاثة عشر قرناً يعود إلى القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين، ببناء كاتدرائية بيرويا وهي حالياً المدرسة الحلوية، ثم بناء قناة حيلان[١٢].

إن النزاع المذهبي والمصالح الخاصة في

الأمور الدينية المحلية والتعصب الأوتوقراطي[١٣] الذي استبدت به بيزنطة؛ كانت العوامل الرئيسية التي حضرت للهجوم العربي، وخلال خلافة عمر ابن الخطاب، دخل أبو عبيدة حلب وأنهى الحكم البيزنطي وانتهت تسمية بيرويا.

كفل الحكم العربي الأمان لجميع السكان في حلب وأبقى على التحصينات، وحافظ على الكنائس مقابل دفع الجزية. تغيرت بعد قرن من الزمان، شروط معيشة الحلبيين قليلاً، وما عدا الجزية التي فرضت على كل فرد بالغ حسب الطبقة الاجتماعية بين دينار واحد وديناران أو ثلاثة دنانير، وعملت الدولة على حفظ النظام وإصلاح الطرق والجسور، وقد تأمنت المياه وإعاشة الجيش وساهم أسقف حلب والموظفون القدماء بذلك. لم يهتم العرب المسلمون، في بادئ الأمر بالأمور الإدارية قدر اهتمامهم بالأمور العسكرية.

بعد فترة من التلاؤم مع الأوضاع المستقرة، وإخضاع القبائل ظهر تطور الشعب الفخور بثقافته القديمة، شهدت حلب ثلاثة قرون متتالية من ازدهار غير مسبوق، وكانت أجمل مراحل تاريخها. حكمت سلالة من ٩٤٤م إلى ١٠٠٩م تنسب إلى علي حفيد حمدان وهو ينتسب إلى أهم القبائل العربية لبني تغلب ولد في منطقة الموصل في الثاني عشر من حزيران ٩١٦م لقبه خليفة بغداد باسم سيف الدولة.

احتلت حلب من الأخشيديين وكان حاكمها محمد أخشيد بن طغج، وكان دخوله إلى حلب في التاسع والعشرين من تشرين الأول ٩٤٤م.

لقد ارتفعت حلب إلى مرتبة عاصمة للحمدانيين تضمُّ سهول سورية الشمالية ومنطقة أنطاكية وتخوم جبال طوروس وقسماً من أعالي ما بين النهرين، وتمتعت حلب بمرحلة رائعة في عهد سيف الدولة الذي أضعف الروابط التي تربطه بالخليفة، والتفت طيلة حكمه لقتال البيزنطيين، وفي كل عام، حين يجتاز جبال طوروس التي أصبحت ممرًّا له، تتوغل جيوشه في الأراضي البيزنطية. لقد رعى وأحاط نفسه بالعلماء والشعراء كالفارابي والمتنبي، كما اهتم بأبي العلاء المعري الذي أغنى مكتبة حلب بعشرين ألف مجلد، أليس هذا المفكر الكبير هو مؤلف رسالة الغفران والتي أوحت بالكوميديا الالهية؟

لم تطل أيام النجاح والرخاء لدى سيف الدولة فقد تبعتها أيام الخراب والدمار، فأمام تعبه في غزواته التي لم تثمر، استعادت بيزنطة الغزو وعلى رأس جيشها نقفور فوكاس[١٤] الذي دخل حلب في ٢٣كانون الأول عام ٩٠٢م «ولم تضاهها غنيمة غنية ما حصل بيد البيزنطيين فقد نهبت كنوز أسواقها التي لا تعد ولا تحصى» (شلومبرجة[١٥]: ملحمة بيزنطية). لم يطل حصار وتدمير المدينة سوى ثمانية أيام، وفي حلب دُمر نصفها، نقل سيف الدولة سكان قنسرين (كالسيس)[١٦] ولم تكن إلا ضاحية فقيرة لحلب، أمام هزيمته وفقدان ولديه وإصابته بفالج نصفي والتي شلته عن

الحركــة، توفي الأمير في التاســع من شباط عام ٩٦٧م[١٧]، وحــين دفن وضعــت رأسه تحت لبنة ضمت غبــاراً وعرقاً كان يصيبه بعد كل معركة، كما وضعــت القماشــة التي يستعملهــا المسد لتفريــك الجسم[١٨]. خلف سيف الدولة ابنه «أبو المعــالي» أميراً على حلــب ولم يتأخر عن استعادة بازيليــكا سمعــان العمــودي[١٩]، بينما حوصرت الكنائــس والأديــرة وهرب الرهبــان أو قتلوا أو بيعوا عبيداً.

كان حكم أبي المعالي ابــن سيف الدولة غير طبيعي، ففــي كانــون الأول ٩٦٩م، ظهر نقفور فوكاس مرة ثانية أمام أسوار حلب، ودام حصاره للمدينــة سبعة أيــام. وأعاد سيطرتــه وعبودية بيزنطة.

بعــد انقضاء ثلاث وعشريــن سنة من حكم سعــد الدولــة مات مشلــولا (وقد أحب كثيرا واحدة من نسائه الأربعمئة) كما ذكرت الروايات التاريخية.

بــين ٩٩١م و١٠٨٦م حوصرت حلب ٢٢ مرة علــى الأقل، وكانت سنــوات دموية وقحط حتى وصلــت علــى حافة الضيــاع، ولهــذا استدعى الحلبيون زنكي أتابك[٢٠] الموصل والذي استطاع أن يأخذ حلب في عام ١١٢٨م.

هو أمير شجــاع وصلب، لقد طلب إلى وزيره تهيئــة حملة عسكرية وقــال (إذا أخذت حلب لا يبقى أي شيء للإسلام في سورية). خلال عشرين عاماً، قــاد شخصيّاً الصراع ضد الفرنجة ولدى موته في عام ١١٤٦م كانت حلب في مأمن من أي غزو خارجي.

ابنه نــور الدين محمود والــذي خلفه وارثاً مملكة هادئــة، واستطاع أن يحتل دمشق في عام ١١٥٤م ومصر بفضل مبعوثه صلاح الدين. لقد كانــت إدارته أكثر جدوى بالنسبــة لمدينة حلب؛ أمناً وعمراناً. فقد قام بأمور كثيرة وبنى: جوامع ومدارســ ومستشفى[٢١] وأوجــد محيطاً لحيوية أدبيــة وفنية وهذا ما جعل ابــن العظيمي مؤرخ الحــروب الصليبية يقول (لقــد عامل الحلبيين بأسلــوب خلق لديهم واجب الاعــتراف بالفضل حتى آخر الزمان، والرحمة الإلهية بفضله).

وحين قرر نــور الدين أن يعمــل ضد قائده صلاح الدين بسبــب مصر، والذي لمس طموحه، مــات في دمشق عام ١١٧٥م تــاركاً من سيخلفه وكل أحلامــه: لابنــه الشاب الصالــح إسماعيل وبلغ عمره أحد عشــر عاماً، ولكن ابن عمه في الموصل احتل جميع ممتلكاته، وخاصة في ما بين النهرين وأخــذ صلاح الديــن سورية عدا حلب التي كانت تقاوم.

خــلال ذلك خطب الأتابــك ذو الاثني عشر ربيعــاً في الحلبيــين يذكرهــم بأعمــال جيدة لأبيه، ذاكــراً نكران صلاح الديــن وبكى (وبكى الحاضــرون أيضــاً ومنحوه أملاكهــم وحياتهم، وخرجوا جميعهم، بحيث لم يستطع صلاح الدين حتى الوصول إلى الأســوار) (شلومبرجة ملحمة بيزنطية).

بعد مــوت الصالــح إسماعيــل، حرق صلاح

الديــن المسافات مــن مصر وفتح مــدن ما بين النهريــن التي بقيــت متعلقة بالسلالــة الزنكية واحتل حلب عام ١١٨٣م.

كان صلاح الدين أميراً حيوياً جديراً وكريماً وهــو ابن أيوب الكردي، أمضــى حياته في قتال الصليبين وحاز علــى تقديرهم. وبعد موته عام ١١٣٧م- ١١٩٣م تــرك أخــاً هو الملــك العادل وسبعة عشــر ولداً، قامت بينهــم خلافات على الحكم بقيت نصف قرن.

إن مــا بناه صــلاح الديــن[٢٢] من تحصين جعــل حلب عصية على كل معتد[٢٣] وإن «أرنو دو شاتيون» الفارس الصليبي سجن فيها لمدة سبعة عشر عاماً[٢٤].

استمرت غــزوات الصليبيين ونهبهم لمناطق محيطة بحلب أجبرت في عام (١١٥٣م) القاضي «أبو حسن» الخشاب دعــوة المؤمنين للصلاة في كنيسة سانــت هيلانة التي اصبحــت فيما بعد جامع الحلوية.

أحد أولاد صلاح الدين الملك الظاهر غازي هــو شخصية مميزة وضــع حدّاً لهــذه الحالة المبهمــة، فقد أعلــن نفسه سلطانــاً على حلب، وادّعــى سلطانه على كل من مصــر ودمشق، إن سلطنــة حلب التي تضــم كل سوريــة الشمالية مــن طوروس إلى حماه، تشــكل واحدة من أقوى الــدول القائمة في الشرق الإسلامي فعلى صعيد السياســة الدوليــة قامــت علاقــات وثيقة مع صليبيي أنطاكيــة ومع البندقية ومع أمراء تبريز ومع سلاجقة قونية.

مع وفاة غازي عــام (١٢١٥م) أعلنت ملكية ابنــه الصغير محمــد وكانت الوصايــة لطغريل، عبد تركــي، استطاع بحسه السليــم واستقامته وإخلاصــه أن يؤكد وحدة الدولة؛ جاء بعده ابنه الصغير الناصــر يوسف الثاني، وبمــا أن جدته ضيفــة خاتــون كانت وصية المملكــة فقد بقيت الأوضاع على حالهــا ضمن الحدود التي قررها أبــوه وجده: وبما أنه صغــير ولم يحسن التصرف بمسؤولياتــه فقد دفع البلاد خلال خمس عشرة سنــة من حكمه إلى البلبلة والفوضى، ورغم ذلك لاخــذه الأمر بمجموعه، يمكــن أن نعتبره نصراً ومجــداً في تاريخ حلــب، فوجــود حاشية ملكية دائمة ومترفــة، أدى إلى تدفق المتملقين والسادة والسفراء على حلب، غــير أن وجود جيش باسل ساعد على قيام حياة اقتصادية واجتماعية.

خلال نصف قــرن حقق الأيوبيــون أعمالاً عمرانية مميــزة، وإن الأعمال التــي قامت بها السلالتان الزنكية والأيوبية تكاملتا بشكل جيد. جــاءت بعدها فترة كــوارث، إذ إن هولاكو حفيد جنكيز خان المغولي المخيف، وبعد أن داس بأقدام خيله خلافة المعتصم وأنهــى بالضربة القاضية السلالــة العباسية، خلال سيــره المخيف عبر ما بــين النهرين وسورية، احتل حلب عنوة في الرابع والعشرين مــن كانون الثاني عام ١٢٦٠م وأباحها للنهب والقتل والحريق.

توجه نحو الجنوب واحتل دمشق، لكنه لاقى الهزيمــة في معركة عين جالــوت في الثالث من

أيلول ١٢٦٠م والتي هزمه فيها بيبرس صاحب الشخصية القوية والمميزة والذي استطاع أن يفخر بصده لجيوش المغول المتكررة.

لقد ألحق سورية بمصر، وخسرت حلب استقلالها، وأصبحت عرضة لشطط الحكام.

في هذا الوضع الفوضوي الذي عاشته حلب عام ١٤٠٠م هاجم تيمورلنك على رأس جيش سيئ السمعة ورفيق طريقه حافظ عبرو من مدينة هيرات[٢٥] افتتن بثروات حلب، ألم يكتب (لا يوجد في أي مكان آخر أجمل من الزجاج فيها، وحينما يدخل المرء إلى السوق(البازار)[٢٦] لشرائها لا يريد أن ينتهي إلى الخروج من البازار) لكن لا يمكن إيقاف أطماع العسكريين. كل شيء قد حوصر. وقد نقل عمال وفنانون إلى سمرقند عاصمة امبراطوريته الواسعة (إن أهرامات من الجماجم لرؤوس مقطوعة قد عرضت في الساحات العامة. وقد لجأ أكثر من ألفي شخص إلى مبنى مشهد الحسين وهم يشاهدون حريق المدينة الكبير).

بعد أن دمر تيمورلنك حلب اتجه إلى الأتراك، ولكنه هزم في معركة أنكور[٢٧] عام ١٤٠٢م فترك البلاد نهائياً.

بعد ثلاثين عاماً أتى الحلبيين من طيب خاطرهم، المماليك فاهتموا برفع الأنقاض عن المدينة في الوقت الذي تمتعت فيه البندقية بنهضتها الاقتصادية، قد أتاحت بعض اللمحات الفنية والأدبية[٢٨] بالظهور وإن الدوج[٢٩] أرسل أولاده لتعلم اللغة وآداب الحلبيين.

السلطان سليم الأول سلطان العثمانيين الطموح والحازم عمل على إعادة الخلافة لحالتها الأولى؛ اتهم المماليك بالتحالف مع الفرس الشيعة وبعدم الاهتمام بتأمين طريق الحج إلى مكة، ولإخضاع قانصوه الغوري، سلطان المماليك، الذي أمر بحلق ذقن سفيره مع تسديد الشتائم له وإجباره على جمع روث حصانه، تحدٍ كبير فطالب بالانتقام، وتلاقى الجيشان في سهل مرج دابق. وكان بين الجيش المملوكي قضاة المذاهب الأربعة[٣٠] والشيوخ الرئيسيون للمتصوفة. وقرآن الخليفة عثمان[٣١] يتقدمون السلطان الغوري: ولكن لم يقف أحد ويواجه مدافع العثمانيين ولا هجمات الانكشاريين القوية. لقد خان خاير بك والي حلب سلطانه، واختفى الغوري بين الجميع (يقال أن الأرض ابتلعته). إن مجالاً للتأمل كما يقول ابن إياس[٣٢] إذا لم يجد قبره الذي دفع مئة ألف دينار تبذيراً في المدرسة حيث كان يعدها لاستراحته بعد فوزه وفي السلم).

وهكذا انتهت فترة حكم المماليك ١٢٥٠-١٥١٦م. وفتحت حلب أبوابها لسليم الأول في ٢٤ آب عام ١٥١٦م، وتابع السلطان معركته الظافرة حتى مصر، حيث سلمه شريف مكة مفاتيح المدن المقدسة عند المسلمين. ولقد نفى إلى القسطنطينية آخر خليفة عباسي هو المتوكل والذي قدم له الخلافة.

لقد بدأت فترة جديدة، وإن تراجع الحدود جعل حلب في مأمن من الغارات، وإن والي حلب كان يعين من الموظفين الأتراك وكانت مهمته محدودة، وإن رتبة الباشا حاكماً لحلب تساوي

في عـام ١٥٩٦م مـن ثمانين إلى مئـة ألف دوكا بندقي.

تطـورت الحياة الفنيـة والأدبية، وقد أرسل البنادقـة أولادهـم لتعلم اللغة والعـادات. وفي الفترة نفسها جرت محاولات توحيد بين الكنائس وقد بدأت تظهر بوادرهـا، وإن بطريرك طائفة الروم «الميلكيت ميليس كارم ١٦٣٥م» وإن اللذين خلفـاه مكاريوس الثالث الزعيـم وإثناس الرابع دباس أكدا الطريق نفسها، بحيث أصبح في عام ١٧٢٤م جميع الرهبـان والآف الملكيين يشكلون طائفة الروم الكاثوليك. الاتجاه نفسه وصل حتى اليعاقبة. وإن الاسقف دينيس كونستانتان. أوصل إلى الكاثوليـك وكذلك إلى الطائفـة النساطرة بطريق الفرنسيسكاني كارزموس أما بالنسبة إلى الأرمن فإن قسمـا كبيراً منهم التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية.

إن أعمالا كثيرة طقسية ودينية وتاريخية قد ترجمت من اللغة السريانية واليونانية واللاتينية إلى العربية انتشرت لدى العامة بفضل أول أعمال المطبعة التـي أتى بها من الأفـلاق[٣٣] الاسقف إثناس الثالث دباس. وإن الأسقف الماروني في حلب جرمانوس فرحـات كان أول من وضع أول القواعد في اللغة العربية.

كان الحلبيون من وقـت إلى آخر يعانون من الجوع، وإن عدم الأمن في الريف جعل القرويين يتركـون قراهـم، وإن نقـص الحبـوب نتيجة القحط خلق الفوضى. وفي تقرير لأحد القناصل الفرنسيـين يكتـب (في عـام ١٧٥١م صعد بين ثلاثـين وأربعين امرأة مئذنة الجامع الكبير وبين الساعـة العاشرة حتى الواحـدة أطلقن السباب القاسية ضـد الباشا الذي عمل على شنق ثلاثة منهن وجلد بعض الأخريات).

بعد القرن التاسع عشر برز الاختلال الخفي في السلطـة المركزية العثمانيـة تدريجياً (ثورة الإنكشاريـين عـام ١٨٢٦م معركـة نفارين عام ١٨٢٧م[٣٤]) كل ذلـك أدى إلى استقـلال محمـد علـي باشا في مصـر والذي أرسـل ابنه بالتبني إبراهيم باشا ليهاجـم سورية وانسحب منها في عام ١٨٤٠ م؛ إن الجنرال البروسي[٣٥] فون موتكة الذي اشترك في معركة (نـزب)[٣٦] أعطى وصفاً هاما عن جموع المصريين فكتب (لديهم قمصان روسيـة ونظام فرنسي وبنـادق بلجيكية وعمائم تركية وسرج خيلهم مجرية وسيوف إنكليزية).

فكان النظـام المصـري في سوريـة مدعاة لانتقاد الشعب أحياناً، ومع نهاية الحكم العثماني كان الانفتـاح أكثر على العـالم الخارجي ويطمح بالاستمـرار بالتطور فتوسعـت التجارة ومنحت امتيازات تمديد الخطوط الحديدية D. H. P[٣٧]. (سكة حديد بغداد وتمر في حلب). جعلت حلب في وضع مختار كمدينة ذات صلات وأسواق مفتوحة على كل المنافسـات التجارية؛ ولما قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م. كان لحلب أهمية كبرى إستراتيجية كعقدة مواصلات ومركز تموين الجيوش الألمانية- العثمانية.

في ٢٦ تشريـن الأول ١٩١٨م احتلت القوات البريطانيـة بقيادة الجنرال مـاك إندروس حلب

وانتهت أربعة قـرون من السيطرة العثمانية وفي ١١ تشريـن الثاني ساهم الجيشـن العربي بقيادة الشريـف فيصل الـذي أعلن ملـكاً على سورية ودعم السوريون حتى ٢٢ تموز ١٩٢٠ سنة دخول حلب، وهو تاريخ دخول الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال لامـوت(٢٨) وعلى هذا كان على حلب أن تدفع ثمناً كبيراً بقبول حدود جديدة، وإن وضعاً اقتصاديــاً افتقدته، لقد كانت الأسواق التجارية للموصـل وديار بكـر وأورفــة ومرعش وغيرها تعتمــد عليهــا، ولكنها أصبحت بعــد ذلك تتبع دولها، هذا الوضع غير الطبيعي، ازداد سوءاً، إذ لم تعــد الإسكندرونة ميناء كان دائماً يشكل ميناء للتصديــر، وللقوافل الآتية من حلب أو التي تمر فيها. لقد كانت الإسكندرونــة معروفة بتبعيتها الكاملة لحلب وكانت تدعى ميناء مدينة حلب.

في ســت وعشريــن سنة تالية مــن الانتداب الفرنسي شهدت نظاماً مدرسياً، وبناء عدد كبير مــن المدارس ثم شق الكثير من طرق المواصلات، وإعادة تنظيم الخدمات الصحية وغيرها. وبعد فترة من التلاؤم، استقر النظام السوري ومنذ عام ١٩٧٠م شهدت حلب فترة بناء وتطور جديد، تميز تطوره بتحقيق عدد من المشاريع الكبيرة، وما زال المستقبل يخبئ سنوات مزدهرة لحلب.

الهوامش

١- عاصمة إمبراطورية الحثيين، وقد تكتب «خطي».

٢- قرب اسكندرون.

٣- الحضارة الهلنستية تمازج بين الحضارة الهلّينية والحضارة الشرقية السورية.

٤- يذكر بعض المؤرخين أنه اسم مدينة سلوقس نيكاتور في مكدونية.

٥- الميتريـدات يطلـق على حكام الفرسـن وملك المقاطعات اليونانية في غـرب آسية الصغرى كبـلاد البونت والبوسفور وبرغام.

٦- حسب المؤرخ بلوتارك: حياة بومبي.

٧- سترابون جغرافي يوناني وضع كتاباً عن الذكريات التاريخية، وكتاباً هاماً عن الجغرافيا.

٨- في آسية الصغرى (إيونيا) على بحر إيجة حالياً كتلة خراب.

٩- في آسية الصغرى في مدخل البوسفور من جهة البر الأوروبي.

١٠- الذين اعتبروا للمسيح طبيعة واحدة. وليس طبيعتان بشرية وإلاهية.

١١- تعبيرٌ أطلق في أواخر القرن التاسع عشر. وفي القرن العشرين وفي دراسة حديثة تبين أنها قرى فلاحين.

١٢- لا يمكن لأي مؤرخ تحديد بناء قناة حيلان، وربما يعود هذا الأمر إلى الفترة الهلنستية لتأمين الماء لحلب (بيرويا) في العهد السلوقي. وقد اشتق من اسم الحلوية تسمية هيلانة ونسب إليها جر مياه حيلان.

١٣- الأوتوقراطي حكم الفرد.

١٤- المعروف أن نقفور فوكاس قام بانقلاب على الإمبراطورة ايريني وتربع على عرش بيزنطة.

١٥- مؤرخ وعالم فرنسي عاش في الشرق وكان من أوائل مؤسسي المعهد الفرنسي في بيروت.

١٦- في محافظة حلب وهي قرية العيس حالياً.

١٧- تذكر بعض الروايات التاريخية انه ذهب ميا فارقين (ديار بكر حالياً) ومعه صديقه مطران حلب وتوفي هناك.

١٨- يقال حالياً كيس تفريك.

١٩- قلعة سمعان.

٢٠- اتابك كلمة من كلمتين اتى ابك أي استاذ الأمير.

٢١- البيمارستان النوري في حلب، دمشق.

٢٢- ويقصد به قلعة حلب فهي تضم تاريخاً يعود إلى آلاف ومئات السنين. ولكن كل ما يراه المرء من مدخل وتحصينات هي من أعمال ابن صلاح الدين، الملك الظاهر غازي.

٢٣- لم يستطع أي مهاجم أن يدخل حلب عنوة، ولم تذكر كتب التاريخ قاهراً لقلعة حلب سوى ما أورده فيليب حتي من دون أن يذكر المصدر، فنسب إلى المغول الاستيلاء عليها بالقوة؛ وربما الواقع ان خان المغول هدد بقتل علماء الدين والأعيان إذا لم يسلموه القلعة فسلموه اياها إنقاذاً لحياتهم.

٢٤- تكتب المصادر العربية اسمه (أرناط).

٢٥- مدينة تاريخية في أفغانستان.

٢٦- يقصد الأسواق القديمة التي أصبحت تعرف علمياً وعالمياً باسم (المدينة).

٢٧- مدينة تركية (أنطاليا) اشتهرت بتجارة الصوف.

٢٨- تعرف هذه الفترة في أوروبة بـ(عصر النهضة).

٢٩- الدوج هو رئيس جمهورية البندقية.

٣٠- في حلب ولفترة متأخرة في التاريخ الحديث كان يوجد أربعة قضاة للإفتاء حسب المذاهب الأربعة: الحنفي، المالكي، الحنبلي، الشافعي.

٣١- في السابق كان يقال هذا الأمر للتنويه بأن الخليفة عثمان رضي الله عنه هو الذي قام بجمع آيات القرآن.

٣٢- مؤرخ تلك الفترة.

٣٣- الأفلاق والبغدان في رومانيا.

٣٤- معركة بحرية انهزم فيها الأسطول العثماني أمام تحالف إنكليزي فرنسي روسي في البحر الأيوني.

٣٥- من بروسيا والتي أصبحت ألمانيا فيما بعد.

٣٦- شمال سورية.

٣٧- بداية أحرف: دمشق حماه وتمديداتها.

٣٨- أذكر وجود نصب في ساحة متحف حلب القديم في أربعينيات القرن العشرين باسم الجنرال لاموت: هدم مع هدم المتحف القديم وبناء المتحف الجديد الحالي.

شخصية المدمن وبيئته

د. محمد قاسم عبد الله ❁

يستعمـل النـاس الكثير من المـواد في حياتهم اليوميـة لدرجة الاعتماد مثـل: القهوة، والتدخـين، الكحول، والعقاقير المنبهة أو المسكنة وغيرها. ولكن أهم المواد التي تنتشر بينهم هي: التدخين، والكحول، والعقاقير. هذه المواد ذات تأثير كبير على الصحة.

الإدمان وسوء استعمال المواد المؤثرة أو العقاقير Substance Abuse

لابد أن تكون قد سمعت من صديق أو شخص قريب، يقول لك «حين أنهض من فراشي لابـد لي من تناول كوب مـن القهوة ومعه سيجارة، وذلك قبل البدء بـأي عمل، إنني مدمن عليها»

- فمصطلـح الإدمان addiction هو الاستعمال المكثف أو المفرط للكحول أو للعقاقير (أو أية مادة مؤثرة substance).

❁ أستاذ الصحة النفسية- جامعة حلب.

- إن استعمال هذه المواد له تأثيرات نفسية كبيرة على مزاج الشخص mood وعملياته المعرفية cognitions.
- هناك عقاقير ومواد مؤثرة أو مخدرة مثل النيكوتين، والكافيين لها تأثيرات نفسية أيضاً. من جهة ثانية فإننا نسمع الكثير من الناس يقولون أنهم مدمنون على تناول أطعمة معينة، أو على القمار، أو على الشراء والتسوق، أو على أي شيء آخر كمشاهدة التلفاز، أو الإدمان على الإنترنت. فكيف يمكننا أن نعرف مفهوم «الإدمان»؟

الإدمان: هو حالة أو ظرف ينشأ عن الاستهلاك المفرط والمكثف لمادة ما طبيعية أو اصطناعية، بحيث يصبح الشخص معتمداً عليها فيزيولوجياً (جسمياً) ونفسياً (عقلياً). من هنا نتحدث عن مصطلح آخر هو الاعتماد dependence.

الاعتماد: حالة نفسية، وجسمية أيضاً، تنتج عن التفاعل بين الكائن الحي ومادة بعينها، وتتسم هذه الحالة بصدور سلوكيات واستجابات أخرى تنطوي دائماً على نوع من التناول القهري أو القسري لمادة ما بصورة مستمرة أو دورية، وذلك حتى يمر الشخص بخبرة آثارها النفسية، وأحياناً يتحاشى متاعب الابتعاد عنها.

وللاعتماد نوعان: اعتماد جسمي، واعتماد نفسي.

١- **فالاعتماد الجسمي physical dependence** هو الحالة التي يصبح فيها الجسم متكيفاً ومعتاداً على المادة المؤثرة، وتصبح جزءاً من الأداء الوظيفي لأعضاء الجسم، وينتج عن هذه الحالة خاصتان أساسيتان:

الأولى: هي التحمل Tolerance: وهي العملية التي يصبح فيها الجسم معتمداً على المادة بحيث يحتاج إلى جرعات وكميات أكبر لكي يحدث التأثير نفسه الذي كانت تحدثه الجرعات أو الكميات الأقل في السابق.

الثانية: هي الانسحاب Withdrawal: وتشير إلى الأعراض الجسمية والنفسية التي تظهر لدى الشخص المدمن حين يتوقف عن تناول المادة التي أصبح الجسم معتمداً عليها. وقد تتضمن أعراضاً مثل: القلق، والتهيج، والاشتهاء المفرط للمادة، والهلوسة، والغثيان، والصداع، والارتعاش والتشنج.

ولكل مادة مخدرة أو عقار ما درجات مختلفة من التأثير تحدث حالة مختلفة من الاعتماد: فمثلاً الهيروين له إمكانية عالية ليعتمد عليها الشخص، في حين ليس للمواد المخدرة الأخرى مثل هذه القابلية للاعتماد عليها مثل المادة المهلوسة LSD.

٢- **الاعتماد النفسي psychological dependence**: وهي الحالة التي تصبح فيها العمليات النفسية والعقلية للشخص متكيفة مع هذه المادة، كما تظهر في السلوك القسري لتناولها، وذلك لبلوغ حالة النشوة، وأحلام اليقظة الجذابة، والشعور بالقوة التي تسيطر على المدمن، من دون أن يكون معتمداً عليها جسمياً بالضرورة. وهناك معياران نعتمد

عليهما في تشخيص سوء استعمال المادة المؤثرة والمخدرات:

المعيار الأول: هو أن الشخص يظهر نمطاً ثابتاً وواضحاً من الاستعمال المرضي أو غير السوي للمادة المؤثرة أو المخدرة، كأن يستعمل كميات كبيرة منها في اليوم، ويصبح غير قادر على خفض كميتها أو التوقف عنها.

المعيار الثاني: هو أن سوء استعمال المادة المؤثرة يحدث على الأقل واحدة من المشكلات التالية:

- الفشل في إنجاز المهمات المطلوبة من الشخص (مثل إهمال العناية بالأطفال، أو الغياب عن العمل).
- يضع هذا الشخص نفسه في مواقف خطرة عليه أو على غيره (كقيادة السيارة بتهوّر).
- يواجه مشكلات قانونية، فقد يقبض عليه لمخالفته القوانين والأنظمة (كممارسته لسلوك منحرف).
- يواجه مشكلات اجتماعية مع الآخرين (فقد تكثر خلافاته مع أفراد الأسرة، أو مع زملاء العمل).

هذه المشكلات الأربع تنطبق بشكل واضح على استعمال الكحول والعقاقير، وليس على التدخين.

تدخين التبغ

- في أوائل القرن السادس عشر أدخل مكتشفو أمريكا عادة التدخين إلى القارة الأوروبية، ومصطلح نيكوتين الذي يتداوله الناس عند التحدث عن التدخين، أخذ من اسم (جون نيكوت)سفير فرنسا في لشبونة والذي دافع عن التبغ، وكان يؤكد أن للتدخين فوائد مثل إعادة الوعي، وعلاج الكثير من الأمراض.

- حتى منذ هذه البداية لم يترك الموضوع من دون مقاومة فقد قام كثيرون بمعارضته وخصوصاً (جيمس الأول) في كتابه «مقاومة التبغ» حيث اعتبر التدخين وسيلة هدّامة للصحة.

- أما السيجارة التي يعرفها الناس بشكلها الحالي فقد ظهرت في البرازيل عام ١٨٧٠م.

من الذي يدخن؟

تنتشر عادة التدخين بنسبة مرتفعة بين المراهقين والراشدين مقارنة بالفئات العمرية الأخرى. فهل بعض الناس أكثر قابلية للتدخين من غيرهم؟

- يختلف سلوك التدخين وفقاً لمتغير العمر. فنسبة ضئيلة جداً من الأفراد دون سن الثانية عشرة هم من المدخنين. ولكن الغالبية العظمى من المدخنين المنتظمين يبدؤون عادة التدخين قبل سن العشرين.

- تنمو عادة التدخين بشكل تدريجي، وقد تمر عدة سنوات حتى تتمكن هذه العادة من الشخص، والتي تبلغ ذروتها في مرحلة الرشد. ونسبة الراشدين المدخنين مقارنة بفئات العمر الأخرى هي أعلى نسبة حيث تصل إلى ذروتها بين سني ٣٥- ٤٥ من العمر، ثم تبدأ بالانخفاض مع تقدم الشخص بالعمر.

- تختلف عادة التدخين باختلاف الطبقة

الاجتماعية، فعادة التدخين تقل كلما ارتفع المستوى التعليمي، والاقتصادي وكلما ارتفعت المكانة المهنية للفرد.

- ظهر أن التدخين يزداد بين الأفراد الذين لم يتخطوا المرحلة الثانوية من تعليمهم، والذين لهم مستوى دخل منخفض، كما يزداد بين أصحاب الياقات الزرق (العمال، وأصحاب المهن غير الراقية) كسائقي الشاحنات، وعمال المصانع (USDHHS، ١٩٩٥).

البدء بالتدخين (المراحل الأولى من سلوك التدخين):

يبدأ سلوك التدخين عادة في مرحلة المراهقة، وتلعب العوامل النفسية والاجتماعية دوراً أساسياً في دفع المراهقين للبدء بهذا السلوك. مثلاً، بيّنت نتائج بعض الدراسات أن المراهقين أكثر احتمالية للبدء بسلوك التدخين حين يكون آباؤهم وأصدقاؤهم من المدخنين.

١- تساهل الوالدين، والقدوة: عندما ينغمس الأهل في مثل هذه السلوكيات يصير سهلاً على الولد أن يعتقد بأن سلوك التدخين ليس بمثل هذه الخطورة، وإلا لما انغمس أهله وأقاربه فيه، وبذلك فالأهل يشجعون الولد على التدخين. وحين نرى أشخاصاً ذوي مكانة وسلطة يدخنون يسهل علينا تقبل مثل هذا السلوك (وكم من مريض رأى الطبيب يدخن في العيادة وهو ينصحه بترك التدخين).

٢- الرغبة والمغامرة: فالمراهق أو الشاب يسرّه أن يتعلم أشياء جديدة، ويحب الشباب أن يظهروا أمام أترابهم بمظهر المتبجحين العارفين بكل شيء، وهكذا فإنهم يجربون أموراً مختلفة في محاولة اكتساب معرفة أشياء جديدة.

٣- الاقتناع بوساطة الأصدقاء: فالكثير من المراهقين يخشون أن يختلفوا عن غيرهم وخاصة أقرانهم لأن مثل هذا الاختلاف يجعلهم غير مرحب بهم وغير مقبولين منهم، خاصة وأن استحسان الذات يكتسب من خلال استحسان الآخرين (عبدالله، ٢٠٠٦م).

وهناك عدد من الصفات الشخصية التي تلعب دورها في تشكيل سلوك التدخين لدى المراهقين، منها:

- التمرد أو العصيان الذي يظهر لدى الكثير من المراهقين في هذه المرحلة الحرجة من العمر.
- الذين لم يحققوا النجاح المطلوب في المدرسة، أو المتأخرون دراسياً.
- الذين يخالفون الأنظمة المدرسية لكثرة خلافاتهم مع الإدارة ومع ممثلي السلطة، فيتجهون لاتباع سلوك التدخين ذي الجاذبية بالنسبة لهم.

وقد تبين أن التدخين يستمر أو يتزايد إذا اتصف المدخنون بما يلي:

- أحد والديهم على الأقل من المدخنين.
- تقبّل الوالدين لسلوك التدخين لدى الفرد، بل وتشجيعهم عليه.
- لهم أقران يدخنون.

• لهم علاقات قوية مع أقرانهم (اجتماعيون).

• يمارس الأقران ضغطاً عليهم لممارسة عادة التدخين، كأن يقال للشخص «إذا لم تدخن ستكون موضع سخرية الآخرين».

• تشكل لديهم اتجاه إيجابي حيال التدخين، كأن يقول: «التدخين عادة ممتعة جداً» أو «يساعد التدخين الشخص حين يواجه مواقف ضاغطة أو عصبية».

• حين لا يعتقدون بأن التدخين سيؤثر في صحتهم، كأن يقول: «التدخين خطر فقط على المسنين».

لقد بين عالم النفس سيلفان تومكينز منذ عام (١٩٦٦م) أن هناك أربعة أسباب نفسية تساعد في تكوين عادة التدخين واستمرارها.

السبب الأول: يركز على تحقيق حالة انفعالية أو مشاعر إيجابية achieving positive affect لدى الشخص، وهي نوع من الإثارة، أو الاسترخاء، أو السعادة أو النشوة.

السبب الثاني: يركز على خفض المشاعر السلبية reducing negative affect مثل خفض القلق والتوتر.

السبب الثالث: هو أن التدخين يصبح عادة habitual أو سلوكاً آلياً (أوتوماتيكياً) يقوم به الشخص من دون وعي أو إرادة كاملة منه.

أما السبب الرابع: فهو أن الشخص يصل إلى حالة من الاعتماد النفسي psychological dependence على التدخين (نسميها الإدمان) بهدف تنظيم ومواجهة الحالات الانفعالية أو المشاعر الإيجابية والسلبية التي يعيشها.

استعمال الكحول وسوء استعماله Alcohol Use and Abuse

«الإدمان على الكحول»

- لقد استعمل الناس المشروبات الكحولية منذ زمن طويل، وقبل تاريخ مصر القديم، والإغريق، والرومان حيث كان الخمر والبيرة منتشراً بكثرة بين الناس. وقد استمر خلال القرون التالية في مختلف دول العالم، باستثناء المناطق أو البلدان التي تحرّمه كالبلدان الإسلامية.

- وقد وصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الاستعماري الكولونيالي. وحين انتشر في مختلف الولايات المتحدة، زاد استعماله من قبل الكثير من الناس لدرجة الإدمان (الإفراط في الشرب). فظهرت اتجاهات تمنع استعماله بكثرة لما يؤدي إليه من مشكلات في المجتمع، وتمّ سن قوانين تحرم استعماله.

من يتناول الخمر؟ وما كميته؟

يمكننا أن نقسم الناس حسب تناولهم الخمر إلى الفئات التالية:

١- فئة تحرمه بشكل قاطع، على أساس أن ما أسكر كثيره فقليله حرام.

٢- فئة من يتناولونه في المناسبات.

٣- فئة المفرطين في الشرب وفاقدي القدرة على التحكم بنزوعهم وسلوكهم.

فالكحولية أو إدمان الخمر هو سلوك قسري يسيطر على الفرد ويبدو على شكل نزوع شديد

إلى شرب الخمر أو المسكر والمزيد منه على الرغم من أن الشرب مؤذ له.

- تتأثر خبرة الناس وتجربتهم في تناول الكحول بمتغيرات متعددة أهمها: العمر، والجنس.

- عادة يبدأ الفرد بتناول الكحول واستعماله بانتظام منذ المرحلة الثانوية، وأحياناً منذ مرحلة الطفولة المتأخرة في بعض البلدان.

- فقد بينت بعض الدراسات الإحصائية أن آلاف الطلاب في المدارس والجامعات يتناولون الكحول، وأن ٨٠٪ يتناولون الكحول في بعض الأوقات خلال حياتهم، وأن ٥٠٪ منهم بدؤوا بتناوله في الشهر الأخير، و ٥٢٪ تناولوه في السنة الأخيرة (USBC،١٩٩٥).

- وقد تبين أن الذكور أكثر تناولاً للكحول من الإناث.

- نستخدم مصطلحين للإشارة إلى مستويين من مستويات استهلاك الكحول:

الأول: استعمال الكحول أو استهلاكه alcohol use: ويعبر عن حالة من تناول الكحول بالمناسبات وبدرجة معتدلة دون بلوغ مرحلة الإدمان.

الثاني: سوء استعمال الكحول alcohol abuse: ويعبر عن حالة من الإفراط في الشرب لدرجة بلوغ مرحلة الإدمان وعدم الوعي، وفيها تكثر المشكلات لدى المدمن «المدمن المشكل».

من هم الأشخاص الذين يصلون لمرحلة الإدمان؟

- لدى كثير من الناس فكرة عن مدمني الكحول على أنهم سيئو الهيئة والمظهر، وأن سلوكهم سيئ مع الأسرة والأقارب والأصدقاء، ولكن مثل هذه الفكرة السائدة ليست الحقيقة كاملة، فنسبة ضئيلة من هؤلاء المدمنين هم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات السلبية. فكثير من المدمنين، متزوجون. ويعيشون مع أفراد أسرتهم، ويعملون.

- كما أن العديد من النساء مدمنات الكحول، متزوجات، وربات منزل، ويعشن مع أزواج مدمنين على الكحول مثلهن. وعلى الرغم من أن الطبقات الاجتماعية الدنيا، وخاصة الذين ليس لهم سكن، هم الذين يفرطون في الشرب، وهم المدمنون، إلا أن الغالبية العظمى من المدمنين المشكلين (أصحاب المشاكل)، هم من أبناء الطبقات العليا، ويتمتعون بمكانة ومركز راق.

- والمدمن المشكل، أقل حدوثاً في الطفولة، ولكن نسبتهم تزداد في مرحلة المراهقة، حتى تبدو بكثرة في مرحلة الرشد، ولكنها تعود لتنخفض في مرحلة ما بعد الرشد .ويعني هذا أن مرحلة الرشد هي المرحلة التي تبلغ فيها حالات المدمن المشكل ذروتها، مقارنة بالمراحل السابقة واللاحقة من العمر.

لماذا يستعمل الناس الكحول ويسيئون استعماله؟

«أسباب الإدمان على الكحول»

- هناك مستويان من مستويات تناول الكحول واستهلاكه (استعماله): مستوى الشرب العادي، ومستوى الإفراط والإدمان (سوء الاستعمال).

- حين نتقصّى الأسباب التي تدفع الناس لاستعمال الكحول أو سوء استعماله، علينا أن نبين لماذا يبدأ الشخص في تناول الكحول في المرات الأولى (السبب)، وأين بدأ فيها (المكان). إن الأسباب الأساسية التي تدفع الشخص لتناول الكحول هي عوامل اجتماعية وثقافية كما يقول باندورا (Bandura،١٩٨٦).

- فالأطفال والمراهقون يشاهدون الآخرين يشربون الكحول فرحين ويضحكون في الاحتفالات، والمناسبات. إنهم يشاهدون أفراد أسرهم، وأقاربهم، وأصدقائهم وهم يحتفلون، أو يشربون في أوقات متعددة، أو من خلال مشاهدتهم للآخرين في التلفاز، مما يمثل نماذج أو قدوة لهم، ومن خلال عملية التعلم الاجتماعي هذه، يرى الإعلانات التي تعلن عن المشروبات، ويرى المشاهير وهم يشربون، سواء عبر الشاشات أو في الواقع، فتكون لديه توقعات أو معتقدات إيجابية عن تأثير الكحول.

- العامل الآخر هو عملية الإشراط الإجرائي أو الوسيلي وذلك وفقاً للمعززات الإيجابية والسلبية. فقد يتلقّى الفرد تعزيزاً إيجابياً positive reinforcement للشرب حين يشعر بأن طعم الكحول شهي، أو حين يشعر بالسعادة حين تناوله، أو حين يدرك أن جلسة الشرب أدت إلى نجاح في عمل، أو حققت له مكاسب في جلسة احتفالية مع آخرين من رجال الأعمال، أو أنه تعرف على أشخاص أعجب بهم.

وعلينا أن نسأل الآن السؤال التالي: «لماذا يبقى بعض الأفراد في حدود الاعتدال بتناولهم للكحول، في حين يفرط بعضهم الآخر، ويبلغون درجة سوء الاستعمال أو الإدمان بحيث يصلون لمرحلة المدمن المشكل؟». إن جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال، تقدمها لنا **الفروق السيكولوجية بين الناس**. فالأفراد يختلفون فيما بينهم بسماتهم النفسية والشخصية، ومثل هذا الاختلاف هو الذي يفسر سلوك تناول الكحول لديهم. فالأفراد الذين بلغوا مرحلة الإدمان «المدمن المشكل»، هم أقل تلقياً للنتائج السلبية للشرب، مقارنة بالذين لم يدمنوا. كما أن المدمنين هم الأكثر تعرضاً للضغوط النفسية والقلق في بيئتهم وحياتهم اليومية مما يشجعهم على تناول الكحول. إلا أن الجزء الآخر من الإجابة تقدمها لنا العوامل البيولوجية. فالعديد من الدراسات التي أجريت على التوائم، وأطفال التبنّي، والتي أجريت على الحيوانات، أظهرت بوضوح أن العوامل الوراثية أو الجينية تلعب دوراً هاماً في سلوك تناول الكحول ومشكلات المدمن. فقد تبين أنه إذا كان أحد التوائم مدمناً على الكحول، فإن الآخر سيكون مدمناً وخاصة لدى التوائم المتماثلة.

استعمال العقاقير وسوء استعمالها Drug Use and Abuse

• الإدمان على العقاقير والمخدرات •

يعزى مصطلح العقاقير drugs أو المادة المؤثرة substance إلى تنوع واسع في المواد التي قد يتمُّ الحصول عليها بوصفات طبية أو من دون وصفة طبية، ويتناولها الناس جسمياً أو فيزيقياً أي عن طريق أحد أعضاء الجسم. وسنقتصر على استخدام المصطلح للإشارة إلى المواد ذات التأثير النفسي والتي لا تشتمل على النيكوتين أو الكحول، والتي تحدث حالة من الاعتماد الجسمي (الفيزيائي)، والنفسي (العقلي) والتي تتضمن نوعين هما: العقاقير والمخدرات.

من الذي يستعمل المواد المؤثرة سواء العقاقير أم المخدرات؟، ولماذا؟

يسبب استعمال المواد المؤثرة مشكلات خطيرة في مختلف البلدان وباختلاف الأشخاص ايضاً، فالبعض أكثر استعمالاً لها من البعض الآخر، ولننظر في مثل هذه الفروق المتعلقة بكل من العمر والجنس.

١- العمر، والجنس و استعمال المواد المؤثرة:

- لقد تبين لنا أن البدء باستعمال التدخين، وتناول الكحول، يحدث منذ مرحلة المراهقة المبكرة، ومن ثم في أية مرحلة من مراحل العمر لدى الشخص، ويصدق هذا القول نفسه على البدء باستعمال المواد المؤثرة والعقاقير. وهناك نوعان من العقاقير أكثر انتشاراً واستعمالاً وهما: المسكنات tranquilizers والباربيتورات barbiturates ويكثر استعمال هذه المواد في مرحلة الرشد، وغالباً ما تتم عن طريق وصفات طبية.

- أما عن أبرز المواد المؤثرة أو المخدرة فهي الماريجوانا marijuana، وقد تبين أن نسبة ٣٨٪ من المراهقين الأمريكيين يستعملون هذه المادة في مراحل التعليم المتوسط والثانوي، ونسبة ٦٪ يستعملون الكوكايين قبل التخرج من الثانوية، وأن نسبة كبيرة تبدأ في تجريب هذه المواد مع بداية المراهقة، ثم يزداد تناولهم لها تدريجياً في السنوات اللاحقة.

- وأنها أكثر انتشاراً بين الذكور منها بين الإناث، وفي حين يقتصر المراهقون على استعمال مواد معينة، فإن الراشدين يستعملون مواداً أكثر تنوعاً. كما أن استعمال الفرد لمادة دون أخرى،- كاستعمال الماريجوانا بدلاً من الكوكايين- إنما يعتمد على الكمية التي يتناولها الفرد وخاصة في المراحل الأولى لتجربتها.

لماذا يستعمل المراهقون المواد المؤثرة (عقاقير ومخدرات)؟

يستعمل المراهقون هذه المواد للأسباب نفسها التي تدفع لإدمان التدخين والكحول. وهناك عاملان مهمان يحددان المراحل الأولى والمثيرة التي تدفع المراهقين للبدء بتناول هذه المواد، هما:

- التعلم الاجتماعي وسهولة الحصول عليها. فالمراهقون الذين يقابلون أقرانهم أو الراشدين

المهمين في حياتهم كوالديهم، يرون في هؤلاء قدوةً ونماذج لهم يسعون لتقليدها، مما يتيح لهم تبني اتجاهاتهم وسلوكياتهم التي تدفعهم لتناول هذه المواد.

- فأول الدروس التي يتلقاها المراهق عن هذه التجربة أو الخبرة (الخبرة الأولى في الاستعمال) تكون من قبل الأصدقاء والأقران، وبعد أن يبدأ المراهق بتناول هذه المادة، يميل للاستمرار في استعمالها في المراحل اللاحقة وخاصة إذا أدت إلى حدوث حالة من النشوة والسعادة والحبور، وغيرها من المشاعر الإيجابية كأن تجعل المراهق بحال أفضل. ويؤكد كثير من الأفراد أن تناول هذه المواد المؤثرة أو المخدرة يخفض حالة القلق والتوتر لديهم، وأن النتائج الإيجابية التي تحدثها تعتبر بمثابة معززات لتناولها. ويكون للضغط الاجتماعي social pressure من الأقران دور مهم في تكرار استعمالها.

لماذا تتطور حالة بعض الأفراد من استعمال هذه المواد إلى سوء استعمالها؟ للإجابة عن هذا السؤال، نقول إن العوامل النفسية وخاصة سمات شخصية الفرد، هي التي تلعب الدور الحاسم في تحول الشخص من مرحلة الاستعمال إلى مرحلة سوء الاستعمال (الإدمان)، ومن أهم هذه السمات:

- العصيان.
- التمرد.
- الاندفاعية.
- عدم تقبل المعايير والقيم الاجتماعية والدينية.
- عزلة واغتراب نفسي.

- لذلك فإن الأشخاص أو المراهقين الذين هم أكثر عصياناً، وعدم تقبل للقيم والمعايير الاجتماعية والدينية هم الأكثر انتقالاً من مرحلة استعمال هذه المواد إلى مرحلة الإدمان أو سوء الاستعمال.

صفات شخصية المدمن:

- **يعاني المدمن من قلق وتوتر، ويرغب في التخلص منهما بهذه الطريقة.**
- **لديه ضعف في مواجهة شؤون الحياة من دون مساعدة الغير.**
- **أحلام اليقظة الخلابة والشعور بالعظمة التي يشعر بها حين تناولها يحدث لديه تمركز حول الذات.**
- **السعادة الخلابة تعزز لديه سلوك التعاطي.**
- **الخضوع لضغط المحيطين وخاصة الأقران في مرحلتي المراهقة والشباب.**
- المدمنون نوعان:

١- الإيجابيون: هم الأشخاص المندفعون الذين لديهم رغبة وحب الاستطلاع مما يدفعهم للتعاطي.

٢- السلبيون: الذي يبدؤون مسيرتهم تحت ضغط الأقران والبيئة (ترغيب أو تهديد).

- مواجهة المتاعب والآلام الجسمية أول عوامل تدفع للتعاطي لدى الشباب وطلاب الجامعات.
- طلب المتعة واللذة من أسباب استمرار التعاطي (المناسبات الاجتماعية لدى الشباب)

- مواجهة المتاعب الوجدانية عامل ثالث.

- الشخصية الإدمانية، تتصف بما يلي:

- إشباع حاجات طفلية لاشعورية: تثبيت في المرحلة الفموية.
- السلبية، الاتكالية، عدم القدرة على تحمل التوتر والضغط النفسي، والإحباط.
- عدم نضج في الشخصية.
- استعداد لحل المشكلات باستخدام مواد تؤثر في انفعالاته.
- انغماس في الذات.
- لديها اضطرابات جنسية.
- نزوع لعقاب الذات.
- شخصية مكروبة (عصابية) stressed personality تتصف بـ: العداء والكآبة، وتسكين المشاعر الجنسية والعدوانية في مرحلة المراهقة.
- السيكوبائية، أو الشخصية اللااجتماعية: ضعف الحس الاجتماعي، وضعف في ضبط النوازع الشخصية والدوافع، ضعف الشعور بالواجبات الاجتماعية، وانحراف في الحساسية الانفعالية.
- ميول فصامية، وسمات الأمراض العقلية وخاصة الهذيان والهلوسة.

- نتائج بعض الدراسات:

١- هناك علاقة قوية بين التعاطي وترسب الاضطراب العقلي (الفصام) عند نسبة من المدمنين.

٢- مع طول مدّة التعاطي يزداد احتمال ظهور التصعيد إلى تعاطي مادة أقوى (كالأفيون).

٣- يقترن التعاطي طويل الأمد باختلال الوظائف النفسية (إدراك، تفكير، تذكّر) مما ينعكس على أداء الشاب، ودراسته، وعمله.

٤- يختلف الإدمان وبالتالي تأثيراته باختلاف ثلاثة عوامل: التعليم مقابل الأمية، والحضر مقابل الريف، والعمر:

يبلغ الخلل أقصاه عند الأميين.

- الريفيين.

- كبار السن.

٥- ارتباط عال بين التعاطي والتردد على الأطباء.

٦- تعاطي المنوّمات بكثرة عند الشباب المتردّد على الأطباء النفسيين.

٧- القلق مرتفع عند الذين يستنشقون الصمغ والمذيبات يليهم متعاطو المنشطات، والباربيتورات والمهدئات ثم مدمنو الخمر، والمدخنون ومستعملو الحشيش.

٨- القلق لدى مستعملي الأفيون والكوكايين بنسبة متوسطة.

٩- من المشكلات الناجمة عن التدخين والتعاطي لدى المراهقين: الطرد من المدرسة، الشجار مع المدرسين، الفصل من المدرسة، الاعتداء، الغش في الامتحانات، الوقوع في متاعب مع الشرطة، السرقة، ترك المنزل، الشجار مع الوالدين، حوادث الطريق.

من تاريخ صناعة القنبلة النووية

٭ د. جهاد ملحم

إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس.

«فرانسوا رابليه»

شيئان لا حدود لهما: الكون وغباء الإنسان، وأنا لست متأكداً فيما يخص الكون.

«ألبرت أينشتاين»

عندما كرّس ستانسلاف يولام Stanislaw Ulam (١٩٠٩– ١٩٨٤م) نفسه للرياضيات أولاً، أحس بالاطمئنان لمعرفتـه أنه يباشر مغامرة في التفكير الخالص، من دون أن يكون

٭ باحث وأستاذ جامعي.

مسـؤولاً عن أية نتائـج عملية ممكنة. وفي كتابه «مغامرة الرياضيين»، يصف يولام مندهشاً كيف وجـد نفسه مجنداً في واحدة من أشرس المشاريع العمليـة وأكثرهـا تجهُّمـاً حصلـت في التاريخ حتـى الآن- مشروع /مانهاتن/ أو مشروع /لوس آلاموس/. وقبل متابعـة الرواية الحقيقية على لسـان هذا الرياضي المرمـوق، لا بدَّ لنا أن نبين كيف ولدت فكرة المشروع بداية الأمر.

كان الفيزيائيـون الهاربـون مـن الحكـم النازي، العلماء اليهود منهـم تحديداً، يعتقدون أن بالإمـكان صناعة قنبلـة اليورانيوم وأن هتلر في طريقـه للحصول عليهـا. وإذا أصبح المالك الوحيد للقنبلة الذرية، فسيقوى بها قوة يستحيل معها هزيمته على الرغم من ضعفه الاقتصادي، ويصير قادراً علـى استعباد العـالم بأسره. لهذا السبب قام اينشتاين، بدافع وضغط من الفيزيائي المجري الأصل زيلارد، بتحبير رسالته الشهيرة إلى الرئيس الأمريكي روزفلت، فكانت نقطة انطلاق مشـروع مانهاتن الذي نتج عنه، بعد بذل أضخم الجهـود المالية والصناعية التـي رآها البشر في وقـت قصير كهـذا، تدمير مدينتـي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتـين بأمر من الرئيس ترومان ووزارة الدفـاع الأمريكية، في حين كان بالإمكان تجنـب ذلك. ولنذكر الرعب الـذي استولى على أينشتاين وصياحه قائلاً: لو عرفت أن النازيين لا يملكون القنبلة لما حركت في هذا الموضوع إصبعاً. لكن سبق السيف العذل، فات أوان الندم، ودخلت البشرية التاريخ النووي بخيره وشره.

في الطريـق إلى لوس آلاموس (بلسان ستانسلاف يولام)

في أواخر ربيع عـام ١٩٤٣م، أرسلت خطاباً إلى الرياضـي البـارز جون فـون نيومان حول إمكانية العمل في مشروع حربي يجري الآن. كنت أعلم أنـه منهمك في أمر مـا، لأن رسائله كانت تأتـي في غالبها من واشنطن بـدلاً من أن تأتي من برينستـون. لم أكن سعيداً مع مهنة التدريس، علـى الرغم مـن أنني أنجـزت الكثير في مجال الرياضيـات، بـدءاً بكتابة أبحـاث، مشاركة في مؤتمرات، القاء محاضرات تتعلق بالحرب إلخ... لا يـزال هذا كلـه بادياً لي ضياعـاً للوقت، وأن بمقدوري فعل المزيد للمجهود الحربي.

أخـبرني جون نيومان عـن موعد توجهه من برينستون إلى الغرب عبر مدينة شيكاغو، واقترح أن التقي في المحطـة العامة خلال توقف القطار هناك لمـدة ساعتين لكي نناقش الموضوع معاً. قال لي خلال اللقاء بأن عملاً مثيراً للغاية يجري هناك وسأكون مفيداً له؛ لا يزال ممتنعاً أن يحدد أين مـكان العمل، لكن غالباً مـا كان يتردد إليه قادمـاً من برينستون. أجبته مازحاً: حسناً جون، فأنا لا أعلـم الكثير حول الهندسـة أو الفيزياء التجريبية، حتى لا أعلم فعلاً كيف يعمل سيفون المراحيض. سوى أنـه مفعول تحفيز ذاتي. عند هـذا الحد من كلامي رأيته جفلاً و تعابير وجهه أصبحت غريبـة، لأكتشف فيما بعد أن مصطلح «تحفيز ذاتي» يستخدم في الربط بين مخططات بناء القنبلة النووية.

خلال اجتماعنا في المحطة، بحثت مع نيومان ما بدا لي أنه نقص في الخيال لدى الجمعية العلمية المبرمجة للأعمال المفيدة للمجهود الحربي- خصوصاً في الحسابات المتعلقة بقوة الموانع أو بعلم ميكانيك السوائل الغازية. كان النقد الذي وجهته لخطة الجمعية يدور حول سن بعض المشاركين الرئيسيين في المشروع، خصوصاً من تجاوزوا خمسة وأربعين عاماً. وافقني بوضوح على وجود أفراد هرمين نسبياً. وكما جرت العادة في مثل هذه اللقاءات، حاولنا أن نلطف من كآبتنا بتعليقات هزلية بالقول أن أحداً ما سوف يقيم مجتمعاً من العجائز يكون أعضاؤه من العلماء المهتمين بالعمل الحربي ونُبتلى بحوادث منجزة قبل الأوان أو بخرف مبكر.

بما أن نيومان لا يستطيع أو لا يريد أن يخبرني عن وجهة سيره عدا أنه مسافر باتجاه الجنوب الغربي، ذكّرته بقصة عن خداع متبادل بين يهوديين يستقلان قطاراً في روسيا.

يسأل الأول الثاني عن وجهة سيره فيجيبه الثاني أنه متجه إلى مدينة كييف.

وعندئذ يقول له الأول أنت كاذب، تخبرني أنك ذاهب إلى كييف كي أعتقد أنك ذاهب إلى أوديسا. لكنني أعلم أنك ذاهب إلى كييف، لماذا تكذب إذاً؟

والآن أعلم أنه ليس بإمكانك أن تخبرني إنك ذاهب إلى جنوب غرب، بل تدّعي إنك ذاهب إلى شمال شرق. لماذا تكذب إذاً؟

تلقيت بعد فترة قصيرة دعوة رسمية للعمل في مشروع حربي سري هام يهدف إلى إنجاز عمل مهم يدور حول الفيزياء التي تشرح ما يحصل داخل النجوم بإمضاء الفيزيائي الشهير هانس بيته، مع رسالة من دائرة الموظفين فيها تفاصيل المنصب، الراتب، ومعلومات عن كيفية الوصول إلى نيومكسيكو في مكان لا يبعد كثيراً عن /سانتا في/.

رفعت مباشرة لرئاسة الجامعة نسخة من الدعوة ورغبتي الالتحاق بالمشروع. فجاءتني الموافقة حالاً.

وصلت إلى محطة صغيرة، نائية، منعزلة وغير مريحة- محطة لامي، في نيومكسيكو. ما أدهشني بشكل كبير، أن أقابل هناك جاك كالكين، وهو رياضي معروف جيداً بالنسبة لي. فقد سبق وأن قابلته قبل عدة سنوات في جامعة شيكاغو وبعدها رأيته مرات عديدة. عمل كالكين مساعداً لجون نيومان سابقاً، ورافقه في رحلاته العديدة إلى لندن لبحث المسائل الاحتمالية في نماذج قذف الأهداف الأرضية من الجو وطُرق حصول ذلك. قبل عدة أسابيع فقط، انضمَّ كالكين إلى مشروع مانهاتن.

كانت الشمس تشع متلألئة، وكان الهواء منعشاً وساخناً على الرغم من وجود الكثير من الثلج على الأرض- شيء محبب للنفس ومغاير لقسوة الشتاء في ماديسون. قادنا كالكين داخل مدينة /سانتا في/، وتوقفنا لتناول الغداء في فندق لافوندا، حيث جلسنا بجوار طاولات من الطراز الإسباني الجميل. بعد وجبة غذاء

نيومكسيكية جيدة، مشينا إلى مدخل صغير في بناء من طابق واحد يقع على شارع صغير يحيط بالساحة المركزية. وفي جناح متواضع، استدعتني سيدة مبتسمة في العقد الرابع من العمر لإكمال بعض الشكليات، أدارت ذراع آلة بدائية، وقدّمت لنا أوراقاً كانت جوازات مرورنا إلى مشروع لوس آلاموس العملاق. هذا المشهد، الذي يشبه إلى حد كبير لغز قصة تجسس بريطانية، جعلني أستحضر ذكريات طفولتي الساحرة مع هذه الحكايات.

صعوبة البداية

دخلت مكتب نيومان فأدهشتني رؤيته منغمساً في جدال عميق مع رجل متوسط القامة، كث الحاجب، ذي تعبير قاس، عرفت بعد قليل بأنه الفيزيائي الشهير إدوارد تيلر. كان العالمان يتحدثان عن أشياء لم أتمكن من فهمها ويقفان أمام لوحة كتبت عليها معادلة معقدة طويلة للغاية. أصابني منظرها بالذهول. مع رؤيتي هذه التعقيدات من التحليل الرياضي، أصبحت مشدوهاً وخائفاً من أن أكون غير قادر على متابعة أي شيء. على كل حال، عندما بقيت هذه المعادلات يوماً بعد يوم ولم تتغير كل عدة ساعات كما كنت أتوقع، استعدت ثقتي بنفسي وبعض الأمل بأن أكون قادراً على إضافة شيء ما إلى الأبحاث النظرية.

لقد فهمت نتفاً من النقاش الدائر بينهما.

بعد أن انتهى النقاش، أخذني نيومان جانباً وشرح لي بمنهجية ووضوح طبيعة المشروع ووضعه الحالي وأن العمل في لوس آلاموس انطلق جدياً فقط قبل ثلاثة أشهر من الآن. بدا لي نيومان مرتاحاً جداً لمناخ الثقة السائد حول إمكانية النجاح النهائي لهذه المغامرة الهامة والخطيرة والتي تهدف إلى إنتاج قنبلة نووية. أخبرني أيضاً عن جميع التسهيلات الموضوعة تحت التصرف، عن المشاكل المتعلقة بتجميع المواد الانشطارية، وحول وقود البلوتونيوم (الذي لم يكن معروفاً في لوس آلاموس في حينه). لذلك تذكرت حديثه جيداً، عندما شاهدت بعد شهرين روبرت أوبنهايمر يسرع منفعلاً وهو يحمل في يده قارورة تحوي بعض قطرات صغيرة غامضة لمادة ما، وخلفه فيكتور ويشكوبف يجرجر أذياله. فتحت الأبواب، استدعي الناس، تهامس الجميع، وسط إثارة ضخمة للغاية، لقد وصلت أول كمية من وقود البلوتونيوم النووي إلى المخبر.

تحدث تيلر معي في اليوم الأول، باعتبار أنني سأعمل في زمرته، حول مسألة في الفيزياء الرياضية كانت جزءاً من أبحاث نظرية ترمي إلى تطوير فكرة القنبلة الخارقة Super Bomb، كما كان يطلق على القنبلة الهيدروجينية آنذاك. أما التفاعلات النووية الحرارية التي بإمكانها أن تطلق كميات هائلة من الطاقة، كما يحصل داخل النجوم، فقد تمت مناقشتها في أبحاث نظرية نشرت في عام ١٩٣٠م، ولم تتم دراسة استخدام اليورانيوم الانشطاري لإثارة التفاعل النووي الحراري إلا فيما بعد.

تدور أبحاث تيلر حول تفاعل الغاز الإلكتروني

مع الإشعاع، والذي هو شديد الصلة بالتفاعلات النووية الحرارية أكثر من صلته بالمجموعة العاملة على القنبلة الانشطارية، والتي كانت المهمة الرئيسية لمخبر لوس آلاموس.

اقترح تيلر معادلة لانتقال الطاقة لحالة شبيهة بمفعول كومبتون، أي حين يصدم فوتون إلكتروناً، وطلب مني محاولة اشتقاقها بصرامة أكثر. لم يكن يوجد في متن المعادلة المقترحة أي رقم معين، مما ولّد لدي فضولاً لمعرفة سبب ذلك. جرّبت بعض الحسابات وحصلت على صيغة تشابه كثيراً معادلة تيلر، لكن برقم قيمته أربعة في متنها، بعد عمل ينقصه الإتقان. في الحقيقة، لم يكن تيلر مقتنعاً كثيراً بطريقتي الأولية في الاشتقاق.

تقوم الفكرة على استخدام كمية من مادة نووية حرارية -الديوتريوم- تُغلّف قنبلة الانشطار، وجعلها تشتعل نتيجة لانفجار قنبلة اليورانيوم. لكن جوهر المسألة الرئيسية هو معرفة آلية حدوث ذلك بالتفصيل، إذ لم تكن واضحة الطريقة التي يثار بها مثل هذا الترتيب وأن الأمر ليس مجرد إحداث فرقعة ثم تخفق العملية. من الناحية النظرية على أقل تقدير، كانت هناك مخاطر من حصول زيادة من الانفجار أكثر ممّا هو ضروري ويصبح كامل الغلاف الجوي للأرض مشتعلاً! صار الهدف الرئيسي لمحاولاتنا منصباً على حساب احتمال اشتعال الهواء الجوي الذي يجب أن يبقى مساوياً للصفر، قبل أن يحاول أحد التفكير في إجراء تفاعلات نووية على الأرض. استكمالاً للموضوع، اقترح فيزيائيون نظريون على رأسهم بيته، استخدام التريتيوم بدلاً من الديتريوم كمادة أسهل اشتعالاً، لتأمين درجة الحرارة اللازمة لقنبلة الانشطار.

علماء عظماء، ولكن!

أبحاث بيته، رئيس قسم الفيزياء النظرية، التي أنجزها مع /روبرت باشر/ ونشرتها مجلة الفيزياء الحديثة، أصبحت عملياً بمثابة إنجيل علماء لوس آلاموس، لأنها احتوت جميع الأفكار النظرية والحقائق التجريبية المعروفة في ذلك الوقت. يُعدُّ بيته، الذي يحمل في حينه جائزة نوبل في الفيزياء لاكتشافه المبكر لآلية توليد الطاقة في الشمس والنجوم الأخرى (المعروفة بدورة الكربون)، رائداً في تقنيات الفيزياء الرياضية. وكما قال ريتشارد فينمان عنه: في لوس آلاموس، كان بعمله الصارم والمحدد، مثل سفينة حربية تتقدم بثبات إلى الأمام، محاطة بأسطول أصغر حجماً من الفيزيائيين النظريين الشباب العاملين في المختبر. إن بيته هو واحد من أشخاص قلائل احترمتهم في البداية، لكن مع السنوات ازداد حبي وإعجابي له باستمرار.

عندما قابلت تيلر لأول مرة، بدا لي مليئاً بالحيوية والنشاط، يختزن عاطفة جياشة لإنجاز مميز في الفيزياء. كان رجلاً ودوداً ولديه رغبة في إقامة صداقة واضحة تجاه فيزيائيين آخرين، إضافة لامتلاكه عقلاً نقدياً حاداً وسرعة بديهة وكثيراً من التصميم والعناد. ومع أن تيلر بيّن حساسية أقل تجاه البساطة الفعلية في السويات

الأكثر أساسية في الفيزياء النظرية، إلا أن براعته هائلة ومواهبه بدت أكثر وضوحاً في اتجاه الهندسة، التشييد، ومعاينة الطرق الموجودة.

وقع كثيرون في مشاكل شخصية مع تيلر عندما كانت زمرته تدرس الخواص المنظمة لعمل الهيدروجين. وقد أخبرني مؤخراً أحدهم أن تيلر كان قبل الحرب شخصاً مختلفاً يحب المساعدة، ويملك إرادة طيبة وقدرة على التعامل مع أفكار أناس آخرين من دون الإلحاح على امتلاك كل شيء لنفسه. ويتابع هذا الشخص قائلاً: إن شيئاً ما قد أحدث تغيراً سلبياً في شخصية تيلر انعكس في سلوكه بعد التحاقه بمشروع لوس آلاموس.

مما لا شك فيه، أن العديد من الفيزيائيين الذين كانوا على الغالب يعيشون في بروج عاجية منذ الولادة قد أصابهم الصداع لإدراكهم المفاجئ للأهمية العملية والتاريخية على مستوى العالم للعمل الذي ينجزونه- لن نذكر الأشياء الصغيرة بل نُركِّز على المسألة الواضحة والمتمثلة في الكميات الضخمة من الأموال والتسهيلات المادية التي فاقت أي شيء خبروه سابقاً. ربما لعب هذا دوراً في تغير شخصيات كثيرين منهم، كما حصل مع روبرت أوبنهايمر، رئيس المشروع، وأثّر على أنشطته المستقبلية، مهنته، أفكاره، ودوره كحكيم عالمي. ومثل تيلر، كان لدى اوبنهايمر شعور بعدم الرضا عند مقارنته مع خالقي النظريات الفيزيائية الجديدة الضخمة. ربما كان أوبنهايمر مكافئاً تيلر، وربما كان أكثر ألمعية وذكاء منه، لكنه افتقد ومضة الإبداع الأخيرة للأصالة. وأوبنهايمر في سرعة الفهم والمقدرة على النقد، ربما تفوق على كل من (بيته وفرمي). وعلى الرغم من هذا الذكاء والألمعية، كان عليه أن يدرك اتجاه الريح من تلقاء نفسه، لا أن يصبح ملاحقاً ومنبوذاً وضحية لعدم موافقته على صناعة القنبلة الهيدروجينية الأمريكية.

أراد تيلر أن يضع بصمته الخاصة على معظم العمل الأساسي في لوس آلاموس، من خلال مقاربته الخاصة لقنبلة الانشطار أولاً. كان مدفوعاً إلى تحقيق الانشطار البارد، تشغيع المواد، إلخ... على الرغم من حسابات فيزيائيين آخرين التي أعطت وجهة نظر متواضعة عن أهلية بعض هذه الخطط، ظلّ يحاول بكل الوسائل المتاحة أن يكون له اختياره الخاص. مع مرور الوقت أصبح تعاون تيلر مع بيته، رئيس قسم الفيزياء النظرية، محاطاً بالصعوبات.

بعد أن أصبح عدم التوافق والانسجام بين الاثنين حاداً ويتكرر باستمرار، أخذ تيلر يهدد بالمغادرة. لم يرغب أوبنهايمر أن يخسر عالماً لامعاً كهذا، فوافق على بقائه وزمرته يعملان في حقل موجه أكثر نحو المستقبل، مستقلاً عن الخط الرئيسي للمشروع. هكذا بدأ تيلر يركز وينظم العمل النظري للوصول إلى «السوبر»، رمز القنبلة الهيدروجينية في حينه. كان لكثيرين من علماء شباب مساهماتهم الخاصة، لكن الحقيقة أن تيلر هو من حافظ على الشيء مستمراً ودفعه إلى الأمام خلال الحرب.

بعد وصول فرمي، أصبحت زمرة تيلر جزءاً من تابعيــة فرمي. أبدى فرمي اهتماماً كبيراً في العمــل النظري القائم حــول التفاعلات النووية الحرارية وإمكانيات صناعة القنبلة الهيدروجينية؛ أعطى في نهاية الحرب العالمية الثانية سلسلة من المحاضرات لخصت بشكل رائع الأعمال المنجزة حتى ذلك الحــين- كانت كلمات الشكر توجه في معظمهــا لاستقصاءات تيلــر وزمرته. لكن حتى قبل نجاح صناعة القنبلــة النووية ذاتها، جاءت نشاطات تيلــر ببعض المعلومــات التي أدت إلى الكثــير من المنغصات وضيــاع الوقت عما عرف بالجدال حول قنبلة الهيدروجين.

عبقرية التنظيم والإدارة

كانــت لوس آلاموس بالنسبة لي مكاناً حافلاً بالأحداث، وأنا ابن الرابعة والثلاثين من عمري، ما زلت أحد أقدم الموجودين هناك. ما كان يثيرني حقــاً هو التنافــس الهائل بين العلمــاء الشباب والتنوع الكبير في حقــول الاختصاص، إذ أصبح المشهد مشابهاً القــراءة في موسوعة ضخمة، لا تعرف من أين تبدأ ومتى تنتهي. وفي أوقات كثيرة خالطني شعور الإعجــاب حين كنت أتحدث مع هــؤلاء العلماء الشباب حــول تجهيزات المخابر وحول العمل التجريبي. قد لا يكون توصيفي لهم معبراً بدقــة، لأن إنجازاتهــم في العمق أكثر من إنجازاتهم في الاتساع. أما العلماء الذين هم أكبر سناً، ومعظمهم مولود في أوروبة، فكانت معرفتهم أكــثر عمومية. تغيّر الوضع جذرياً في يومنا هذا، فقــد ازداد العلم تشعباً، وسار التخصص بعيداً، بحيث أصبــح من الصعب الاستبقاء على معرفة بكامل التفاصيل وكامل وجهات النظر في الوقت ذاته.

أظهر العلمــاء الشباب حساسيــة عالية في حقــول اختصاصاتهــم، رافقهــا علــى العموم حيرة وتردد في مقاربــة مواضيع تقع خارج هذه الحقول. ربما نشأ هــذا الاضطراب من خوفهم أن لا يكونــوا علــى صــواب بشــكل مطلق. كما أظهر العديد منهم معاداة للفلسفة الروحية- ليس عــداء للأفكار، لكن عــداء للفلسفة. وقد يكون ذلــك عائداً للطبيعــة البراغماتيــة (الذرائعية) للحضارة الأمريكية.

لقــد صدمتني الموهبــة الأمريكية في العمل الجماعــي، نشــاط الزمر، وكيف بــدا لي ذلك مختلفاً عما عرفتــه في القارة الأوروبية. تذكرت كيف توقع /جوليــس فيرنا/ رد فعل إيجابي من المجتمــع عندمــا تحدث عن الحاجــة إلى جهد مشــترك لتنظيم رحلته «فوييــاج» إلى القمر. كان النــاس راغبين في أن يأخذوا على عاتقهم أدواراً صغيرة بهدف المساهمــة في إنجاح مشروع عام. إن تلك النشاطات في عمــل زمر البحث العلمي التــي ميّزت الحياة في القــرن التاسع عشر، هو من فسح المجال لنشــوء الإمبراطورية الصناعية الضخمــة. ومن الجانب الثاني، هناك الكثير من الأمور الهزلية المضحكة في لوس آلاموس تجلت في افتتــان الجميع في وضع خرائــط أو جداول تنظيم المناوبات.

في الاجتماعــات، كانــت الأحاديث النظرية

مفيدة بشكل كاف للمشاركين، لكن في حال ظهور جدول تنسيق المسؤوليات، تلاحظ أن الجميع انبعثت فيهم الحيوية والسعادة لرؤية شيء ما ملموس ومحدد (من يكون هو مسؤولاً عن من، الخ....). التنظيم كان ولا يزال عبقرية أمريكية بامتياز. على الرغم من أن هذا الكلام جاء حين وقوع أزمة الطاقة، فقد ظهرت بالنسبة لي في أكثر اللحظات حرجاً أزمة عزم وإرادة أكثر من كونها أزمة مادية.

من الصعب أن تصف لعامة القراء النكهة المميزة للأفكار والمشاعر التي تحيط بالجو العلمي، إذ لا توجد كلمة إنكليزية مخصصة تعبر عن هذا الانطباع، فكلمة رائحة وكلمة شمّ لهما مضامين غير مريحة؛ كلمة طيب أو عطور اصطناعية؛ الهالة هي كلمة توحي بالغيب، وتعود لقوى خارقة. لا يملك العلماء الشباب الكثير من الهالة، إنهم ولا شك رجال لامعون، لكن ليسوا عباقرة. ربما الاستثناء بينهم كان ريتشارد فينمان، الشاب الوحيد الذي له هالته الخاصة.

يمتلك فينمان ابن السابعة والعشرين من عمره مواصفات الألمعية، الإبداع وسرعة البديهة، لكنه يبدو أحياناً غريب الأطوار. أذكر في أحد الأيام أن ضحكة بيته هزت جدران الممشى، وجعلتني أقفز من مقعدي لأرى ما الذي جعلهم يضحكون. من خلال أحد الأبواب الثلاثة المفتوحة لمكتب بيته، يمكن رؤية فينمان واقفاً يتحدث، يحرك يديه ويروي قصة فشله في اجتياز أحد الامتحانات الانتقالية في الفيزياء. قال فينمان أن الدكتور الفاحص طلب منه أن يريه يديه، فاختار أن يبسطهما أمامه بحيث أن راحة أحديهما نحو الأعلى و راحة الأخرى نحو الأسفل. وهنا قال الدكتور الفاحص له: أرني «الجانب الآخر»، فقام فينمان بعكس يديه. هذه الحادثة وحوادث أخرى مشابهة وقعت له في امتحان الفيزياء هو سبب انفجار الضحك في الدور بكامله.

عندما قلت لفينمان ممازحاً: يوماً ما سيكتشف الناس أن سنتيمتراً مكعباً واحداً من الفراغ يعادل كمية كبيرة من الطاقة تساوي عشرة آلاف دولار، وافقني على الفور، وأضاف قائلاً: نعم، لكنه سيكون من دون شك فراغاً صرفاً؛ وفي الواقع، يعلم الناس الآن معلومات كثيرة حول استقطاب الفراغ. فالقوة بين إلكترونين أو بين بروتونين لا تساوي q^2/r^2، أي حاصل قسمة مربع الشحنة (q) على مربع المسافة (r)، بل هي مجموع سلسلة لا نهائية من الحدود يكون الحد المذكور أولها. تعمل القوة على ذاتها تقريباً مثلما تعمل مرآتان موضوعتان على التوازي، حيث تبديان سلسلة لانهائية من الانعكاسات المتتالية.

كتابة هذه الذكريات أعادت لي الشعور الذي رافقني عندما زرت مُسرِّع الجسيمات الأولية (السيكلوترون) الموجود في شيكاغو بصحبة فرمي. أثناء تجوالنا في قلب المسرّع طلب مني اجتياز باب ثقيل للغاية، ليقول لي بعدها: «سيجعلك المغناطيس مسطحاً كصفيحة من الورق ملتصقة بك». أثناء مرورنا بين قطبي مغناطيس، مددت يدي إلى جيبي لأتناول مطواة

صغيرة كنت ألهو بها في بعض الأحيان، لأجدها فجأة ترتج وتبتعد عن يدي مجرد ملامستها. إنها قوة الفراغ! هذا جعلني مدركاً فيزيائياً أن فكرة الفراغ (الفضاء «الخالي») واقعية وليست مجرد فكرة نظرية.

على أرض الواقع، تتألف لوس آلاموس من بنايتين وأربع شقق سكنية، مع أبنية عسكرية مؤقتة صممت لأن تبقى ثابتة سنوات عديدة بعد انتهاء الحرب.

دين أبدي لأوبنهايمر، حينما أصرّ على تشييدها على مدار محيط الجزيرة، والإبقاء ما أمكن على الكثير من الأشجار، عوضاً عن تشييدها وفق النموذج المستطيل الرتيب لمعسكرات الجيش. ومع أن الشقق تبدو بدائية جداً، إلا أنها مزودة جميعها بأفران من الفحم الحجري لتدفئة الغرف وتأمين عمليات الطهي في المطابخ. تذمّر الجميع بسبب عدم تجهيز الشقق السكنية بشكل مثالي، وبوجه خاص زوجات العاملين اللواتي كان لديهن كثير من الشكاوى. لكنني وجدت العيش بالمجمل مريحاً تماماً وأن مناخ نيومكسيكو الرائع، تحديداً مناخ لوس آلاموس التي تقع على ارتفاع ٧٢٠٠ قدم عن سطح البحر، هو من أجمل المناخات التي عشت بها في حياتي.

يدرك جميع الذين ساهموا في مشروع لوس آلاموس، أنه في شرق الجبال الصخرية تصبح كامل الولايات المتحدة غير صالحة للاستيطان مطلقاً. هكذا يبدو الواقع بالنسبة للأوروبيين الذين لم يعتادوا على الصيف الحار الرطب والشتاء البارد.

كنت أقول لأصدقائي في كامبردج، أن الولايات المتحدة هي ذلك الطفل الصغير في إحدى حكايات الأطفال، تأتي في عيد ميلاده جميع الجنيات حاملة له الهدايا، إلا واحدة منهن فقط فشلت في المجيء. إنها الجنية التي تجلب معها الطقس الجميل.

ديفيد هاوكينز: فيلسوف وعالم

بعد وصولي مباشرة إلى لوس آلاموس قابلت ديفيد هاوكينز، الفيلسوف الشاب من بركلي، أحد الأشخاص الذين أحضرهم أوبنهايمر معه لكي يساعدوه في إدارة المختبر. لقد أنجز هاوكينز تلك المهمة ببراعة وعلى أكمل وجه. وديفيد هاوكينز هذا، رجل أشقر، أزرق العينين، طويل القامة قليلاً، سليل المستوطنين الأوائل لنيو مكسيكو، وابن لشخصية مشهورة في مطلع القرن العشرين. كان والده محامياً وإدارياً في المقاطعة، مسؤولاً عن عمليات السكة الحديدية في /سانتا في/. شبّ هاوكينز في المجتمع الصغير لبلدة /لا لوز/، الواقعة في الجزء الجنوبي للولاية. أذكر هذه المعلومات، لأنه عندما فجرت أخيراً القنبلة في صحراء /جورنادا ديل ميورتا/ قرب /آلاماغوردو/، حذّر هاوكينز من أن بريق الانفجار سيعمي البصر وأن الحرارة ومفعول الصدم يمكن أن يشكلا خطراً على الشعب الذي يعيش في لا لوز التي تبعد ثلاثين أو أربعين ميلاً، حيث يقع منزل أخته هناك.

هاوكينز رجل متنوع الاهتمامات، واسع المعرفة، عالي الثقافة وذو عقل منطقي، لا ينظر الى المسائل العلمية من وجهة الاختصاص الضيق وحسب، بل من وجهة نظر فلسفية ومعرفية. في الترتيب التصاعدي للرياضيين الموهوبين والمبدعين، يقف هذا العالم في أعلى الهرم من دون منازع. أخبرني أنه تلقى في جامعة ستانفورد سلسلة محاضرات في الاحتمال ونظرية الأعداد، لكنه لم يتلق اي تدريبات مكثفة في الرياضيات. ومع ذلك، لديه إحساس طبيعي ضخم جداً تجاه الرياضيات وموهبة في التعامل معها. قد يكون هاوكينز أحد أكبر الانطباعيين من الرياضيين غير المحترفين أو من الفيزيائيين الذين قابلتهم في حياتي.

بحثت مع هاوكينز في مسائل التفاعلات النووية المتسلسلة للنيترون ومسائل الاحتمال لعمليات التفرغ، أو عمليات التكاثر، كما كنا ندعوها عام ١٩٤٤م. لقد كنت مهتماً بنمذجة صرفة لمسألة تفرع شجرة من نيترون واحد والذي يمكن أن يتضاعف، إلى صفر (معنى هذا، موت النيترون بالامتصاص)، أو إلى واحد (أي يستمر بذاته)، أو إلى اثنين أو ثلاثة (يعني هذا انبثاق نيترونات جديدة تساهم في تفاعلات الانشطار)، كل منها باحتمالية معينة. أصبحت المسألة الملحة هي تقفي السلوك المستقبلي وسلسلة الإحتمالات خلال عدة أجيال.

مبكراً جداً، أنا و هاوكينز اكتشفنا حيلة أساسية تساعد في دراسة مثل هذه السلاسل المتفرعة رياضياً. ما يدعى بالتابع المميز. وسيلة اخترعها /لابلاس/ ويفيد في إضافة المتحولات العشوائية. بدا وكأنه الشيء المطلوب لدراسة عمليات التضاعف. تبيّن لنا أخيراً أن عمليات رصد هذا المفعول أنجزت سابقاً بوساطة إحصائيين آخرين، لكن النظرية الفعلية لمثل هذه العمليات والتي قامت على عمل تكرار التابع أو على مؤثرات مرتبطة معه (عمليات عمومية أكثر)، كنا عرضناها في لوس آلاموس على شكل تقرير موجز. هذا العمل سرعان ما تعزز بقوة وتوسع عام ١٩٤٧م، بعد انتهاء الحرب، مشاركة مع رياضي شاب مبدع غريب الأطوار يدعى /إفيريت/ في لوس الاموس. طرحت فيما بعد مسألة لمن تكون الأسبقية في انجاز العمل المذكور، حيث كان هاوكينز متشوقاً جداً لإثبات أننا قمنا بهذا العمل قبل فترة صغيرة تماماً من الاحتفاء ببعض الرياضيين الروس والتشيكيين الذين ادعوا أيضا أنهم حصلوا على نتائج مشابهة.

أثار إعجابي بشخصية هاوكينز حب الاستطلاع العام لديه، معرفته الاستثنائية لأسس النظريات العلمية العديدة- ليس في المفاهيم الأساسية للفيزياء فحسب ولكن في البيولوجيا وحتى في الاقتصاد. وأعجبني فيه أيضاً اهتمامه وبراعته في عمله الأصلي، فيما أصبحت تعرف فيما بعد بنظرية المعلومات، بعد أن تمت صياغتها أخيراً بوساطة رياضيين متميزين. لقد قدّم هاوكينز للمسائل الاقتصادية الأفكار الرياضية المطروحة في قالب نظرية الألعاب،

وكتب عدة أبحاث مفيدة وكتاب رائع حول فلسفة العلوم، أو بالأحرى حول فلسفة التفكير المنطقي، بعنوان لغة الطبيعة.

تمثلت مهمة هاوكينز في لوس آلاموس في البداية في أن يكون صلة الوصل بين إدارة أوبنهايمر للمشروع وبين القوات المسلحة الأمريكية. بعد عدة سنوات كتب مجلدين، لم يصنفا في حينه، حول التنظيم والإدارة وحول التاريخ العلمي في لوس آلاموس منذ الأيام الأولى وحتى نهاية الحرب. لم أعلم في حينه (ولم يكن واضحاً من المناقشات معه) عند ثلاثينيات القرن الماضي أنه كان متورطاً في منظمة تدعى الساحل الغربي West Coast، وهي منظمة متعاطفة مع الزمر الشيوعية. لقد سبب ذلك له الكثير من المتاعب قبل وخلال عصر المكارثية (نسبة لوزير الخارجية الامريكي في ذلك الحين)، بما فيها التحقيقات الجارية معه في واشنطن والتي خرج منها بريئاً تماماً. في نهاية المطاف غادر هاوكينز لوس آلاموس ليحصل على وظيفة أستاذ الفلسفة في جامعة كولورادو في بولدر، حيث بقي هناك حتى مماته.

كان مجتمع لوس آلاموس مختلفاً كلياً عن أي مكان آخر عشت وعملت فيه. حتى مدينة فوللر لودج Fuller Lodge، التي يوجد فيها كثافة سكانية عالية وحيث يكون الرياضيون وطلاب الجامعات على تماس دائم وينفقون فيه معاً كثيراً من الوقت في المطاعم والمقاهي، لم تكن على هذه الدرجة من الجماعية كما هي عليه الحال في لوس آلاموس.

وكان ذلك أكثر بروزاً بسبب صغر البلدة وبعدها عن المدن الكبرى، وتقارب الأبنية مع بعضها، حيث اعتادت الناس على أن تتزاور باستمرار في أي وقت خارج أوقات الدوام. ما كان غريباً بالنسبة لي الطبيعة المنفتحة لأولئك الذين لم يكونوا رياضيين (باستثناء جون فون نيومان واثنين أو ثلاثة من الشباب الصغار)، بل كانوا فيزيائيين، كيميائيين، ومهندسين، وهي تختلف تماماً عن الطبيعة المنعزلة للزملاء الرياضيين. تنوع شخصيات الفيزيائيين وغناها كان مفيداً ومبهجاً للمراقب ومصدر سعادة مشتركة للجميع. إجمالاً، يختلف النظريون والتجريبيون في الأمزجة والأهواء.

لقد قيل أن بإمكان المرء وهو يتناول طعام الغداء في فوللر لودج أن يرى ثمانية أو حتى عشرة من حملة جائزة نوبل في الفيزياء يتناولون الطعام في الوقت نفسه (رابي، لورانس، فرمي، بلوخ، بور، شادويك وآخرون). كانت اهتمامات الفيزيائيين واسعة لأن المسائل المركزية في الفيزياء أكثر وضوحاً وتحديداً مما هي عليه في الرياضيات، ويمكن أن تنقسم على الأغلب إلى حقول عديدة مستقلة من التفكير. يهتم الفيزيائيون ليس فقط بالمسألة الرئيسية -بناء القنبلة الذرية والأمور الفيزيائية ذات الصلة بظواهر يمكن أن تلازم الانفجار- لكنهم يهتمون أيضاً بمسائل عامة حول طبيعة الفيزياء، مستقبل الفيزياء، وقع التجارب النووية على تقنية المستقبل، وبشكل

مغاير تأثيرها على مستقبل النظريات وتطورها. وفوق ذلك كله. أتذكر مناقشات متعددة حصلت بعد الغداء كانت تدور حول فلسفة العلوم، وبالطبع عن حالة الكون. عن التطور اليومي على جبهات القتال واحتمال الانتصار في الأشهر القادمة.

أن تتاح لك فرصة لقاء أناس بمثل هذه المواصفات الفكرية والعلمية الاستثنائية، هو أمر فريد ونادر حقاً، وقد لا يتكرر مطلقاً. في تاريخ العلم كله. لا وجود من قريب أو بعيد لهذا الحشد الضخم من العلماء. قد يكون مشروع الرادار في كامبردج، في ولاية ماسوشتس، الذي كان يجري في الوقت نفسه، يملك الكثير من الخواص المشابهة لمشروع مانهاتن، لكن ليس بهذا الرقم الكبير من علماء وفنيين. ربما كانت الأمور التقنية في مشروع الرادار أكثر أهمية، لكنه لم يلامس هذا العدد المتنوع من المسائل الفيزيائية دفعة واحدة.

أنريكو فرمي: بابا الفيزياء

قابلت فرمي أول مرة في لوس آلاموس، بعد وصولنا بأربعة أشهر، وكان قد أكمل للتو بنجاح تام تشغيل المفاعل النووي في شيكاغو. ما زلت أذكر جلستنا على طاولة الغداء في فوللر لودج قبل وصوله برفقة ستة أو سبعة أشخاص، بما فيهم /فون نيومان/ و/تيلر/. قال تيلر: من المؤكد تماماً الآن أن أنريكو فرمي سيصل الأسبوع القادم. عرفت مبكراً أن فرمي كان يشار إليه بـ «pope» -البابا- كما لو كانت آراؤه معصومة عن الخطأ. لكن سرعان ما رتلت بالإيطالية جملة مشهورة، وهي الطريقة الكلاسيكية التي يذيع فيها الكرادلة انتخاب البابا الجديد من على الشرفة المطلة على ساحة القديس بيتر، بعد أن يكون الدخان الأبيض قد انطلق من مدخنة الكنيسة. فهم نيومان معنى الجملة، قام بشرح مرجعيتها. فاستحسن هذا التلميح كل من كان موجوداً على الطاولة.

كان فرمي قصير القامة، متين البنية، قوي الذراعين والساقين. سريع الحركة أيضاً، تشع عيناه بنظرات حادة دوماً. تصبح ثابتة تأملياً حين يفكر في مسألة ما ويبدأ في تحريك أصابعه بشكل عصبي بوساطة قلم أو مسطرة. كان مزاجه جيداً وابتسامته دائمة، ينظر إلى المسائل بطريقة استعلامية. ويفضل طرح الأسئلة بدلاً من إبداء الرأي، يصوغ أسئلته بأسلوب يصبح واضحاً فيه إلى أين تذهب معتقداته وتخميناته. يحاول دائماً أن يفسر أفكار الآخرين بطرح أسئلة وفق الطريقة السقراطية، يكون تتابع المسائل فيها على نحو ملموس ومحدد أكثر مما هو عليه في الطريقة الأفلاطونية.

تميزت شخصية فرمي بقوة الشكيمة والقدرة على التحكم والسيطرة، ليس في العناد وإنما الثبات في متابعة الطريق، والنظر في كل الأحيان بحذر شديد إلى العواقب الممكنة. لم يهمل الفرص المناسبة التي تفرض نفسها، والتي تحدث بالمصادفة في أحيان كثيرة من عمليات الرصد العشوائية في عمل علمي. وكان لديه

إحساس عالي الدرجة عما هو هام، لذلك لم يترفع عن العمل فيما يسمى بالمسائل الأصغر شأناً: في الوقت نفسه، حفظ في ذاكرته ترتيب الأشياء في الفيزياء حسب أهميتها، وهي مواصفة أكثر حيوية عما هي عليه في الرياضيات، التي لا ترتبط استثنائياً مع الواقع كثيراً. والغريب في الأمر، أن فرمي بدأ حياته كرياضي وليس كفيزيائي، وأن أولى أبحاثه المنشورة التي أعطت نتائج أنيقة مخصصة لمسألة التحول بين العمل والطاقة كانت في حقل الرياضيات.

إن قوة الإرادة لدى فرمي واضحة تماماً، وتصل إلى حدود السيطرة على انفعالاته المتهورة. وفي ظني أنه تجنب بتروٍّ أساليب اللاتينيين المميزة في السلوك والكلام، وربما بالتصميم الواعي سيطر على حركاته الإيمائية وتجنب الصراخ.

في جميع نشاطاته حتى العادية منها، كان لديه خليط من ملكة عقلية مع محاكاة منطقية لنقاط الإحساس العام للمشهد. فعندما يلعب التنس، على سبيل المثال، ويخسر ست جولات مقابل أن يربح أربع، يعلل ذلك حسابياً بقوله: لا يهم، لأن الفرق أقل من الجذر التربيعي لمجموع أرقام المباراة.

استهوت فرمي المناقشات السياسية ومحاولات التنبؤ بالمستقبل، لكنه لم يأخذها على محمل الجد. كانت من عاداته أن يسأل مجموعات من الناس كتابة ما يتوقعون حدوثه، ويضعه في ظرف مختوم يفتحه بعد عدة أشهر. على العموم، لم يخف تشاؤمه حول المشهد السياسي العالمي على المدى البعيد، ويعتقد أن الجنس البشري مجنونٌ وقد يدمر نفسه ذات يوم. كان يطرح الأسئلة المحرجة باستمرار ويجيب بالأسلوب نفسه. فقد خاطب ذات مرة تيلر قائلاً له بتهكم: لماذا لم يخترع الهنغاريون أي شيء حتى الآن؟

وفي رحلة صيد في جبال لوس آلاموس، راح مرافقه يشرح له صعوبة الإمساك بسمك السلمون المرقط وأن هذا يحتاج إلى مهارة عالية، فأجابه فرمي ولم يكن صياداً ماهراً: أوه، أوافقك الرأي، إنها معركة عقول.

مقارنة سريعة بين الرياضي الشهير جون فون نيومان وأنريكوفرمي، تبين حقيقة أنهما مختلفين في شخصيتهما. ربما كان نيومان أوسع في اهتماماته من فرمي، كاهتمامه في التاريخ القديم، على سبيل المثال. في حين لم يبين فرمي أي اهتمام كبير في تواصله مع الفنون. لم أسمعه فقط يبحث في الموسيقى، الرسم، أو الآداب. لقد اهتم بالمشاكل السياسية الحالية، لكنه لم يهتم بالتاريخ. كان فون نيومان مهتماً بكليهما. لم يكن فرمي لينغمس في الاقتباسات أو التلميحات، سواء من اللاتينية أو من مصادر أخرى، على الرغم من حبه للصيغ اللاذعة أحياناً. كما لم يبرز أي نوع من ثقافة ألمانية أو فرنسية أو عادات روحية حاصنة، ميزته البارزة والوحيدة في هذا المجال كانت الصفاء اللاتيني الواضح.

أما نيومان فلم يعبر بوعي عن البساطة: على

النقيض من ذلك، كان يحب أن يبين تعقيدات البراعة من خلال المناسبة.

في المحاضرات الجامعية أو في المؤتمرات العملية لنيومان وفرمي، تتبين طريقتيهما المختلفة في مقاربة المواضيع المطروحة. لا يهتم نيومان بإظهار الألمعية أو البراعة؛ في حين فرمي على النقيض من ذلك، كان يهدف دوماً الوصول إلى أقصى درجات البساطة، وعندما يتحدث يظهر كل شيء بشكل واضح وطبيعي ومباشر.

بعد عودة الطلاب إلى بيوتهم، لن يكونوا على الأغلب قادرين على إعادة بناء تفسير فرمي السهل والباهر لبعض الظواهر، أو استرجاع أفكاره التي تبدو بسيطة إلى درجة الخداع عن كيفية معالجة المسائل الفيزيائية رياضياً. على النقيض من ذلك، كان نيومان يظهر في أسلوبه مفاعيل إقامته المؤقتة في الجامعات الألمانية من حيث الانضباط والصرامة. لقد تجنب تماماً كل مباهاة أو تفاخر، لكن بنيته اللغوية كانت معقدة، ولو أن المنطق التام أعطى دوما تفسيراً استثنائياً لكلماته.

دروس مستفادة من التاريخ!

كانت هناك أشياء تخفف من الملل الناتج عن تكرار العمل وتعاقبه أهمها المناقشات الفكرية، الاجتماعات المسائية، التقاء العائلات، حفلات الغداء وممارستنا كمجموعات لعبة البوكر (أحد ألعاب الشدّة) مرة واحدة في الأسبوع. لعبنا على مراهنات صغيرة: أعطت بساطة اللعبة والمناقشات الطائشة المرافقة لها نكهة خاصة، كما أن الهتافات غير المنضبطة واللغة السوقية قدمت حماماً منشطاً يخفف من متاعب العمل المهم والجدي والخطير الذي كان هو سبب وجودنا في لوس الاموس.

الانفجار النووي، هيروشيما، يوم الاختبار، وقصة مشروع لوس الاموس انتشرت حول العالم بسرعة البرق مع إلقاء القنبلة الأولى. كثرت الأقاويل والأحاديث جهاراً وتكراراً حول لغز المشروع الذي كان سرياً في زمن الحرب، وتصدرت أخباره عناوين الصحف وقذفت بأسماء رؤساء التحرير إلى قلب الأضواء.

في تقرير لأحد الصحف من بين تقارير كثيرة بعد يوم واحد من إلقاء قنبلة هيروشيما، أقرّ الفيزيائي الشهير لورانس بتواضع شديد، وفق ما أفاد الصحفي، بأنه هو أكثر من أي شخص آخر مسؤول عن صناعة القنبلة النووية. ملأت إفادات مشابهة عن الحدث الجلل جميع الأوساط الإعلامية، فقد وصف أوبنهايمر شعوره عن البريق الغريب الذي رافق اللحظات الأولى للاختبار النووي مقتبساً كلماته من الملحمة الهندية، بهاجافاد غيتا Bhagavad-Gita: لقد ومض فجأة في عقلي أنني أصبحت أمير الظلام، ومُدمِّر العالم.

ينهي ستانسلاف يولام روايته قائلاً: رغم عظمة الإنجاز العلمي الذي قمنا به، فلا يمكن له أن يخفف من شعور نذر الشر بدخول تقويم تاريخي جديد غير مسبوق يدعى بالتاريخ الذري. وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وعلى كل

مــن العالم والأمة الأمريكيــة أن يدركان نتائجها الخطيرة.

لــن تكون الحياة هي ذاتها كما كانت قبل أن نُخْــرِج -نحن الأمريكيــون- القمقم النووي من عقاله، وعلينــا أن نبقى حذرين دوماً من لحظة الخطيئة الكبرى.

بعد انقضاء أكثر من ٦٥ عاماً على استخدام السلاح النووي، هــل استفادت الولايات المتحدة من دروس الحروب خارج أراضيهــا، خصوصاً تكاليفها المادية والبشرية الهائلة؟

يبــدو أن السياسيين الأمريكيين لم يستوعبوا الدرس جيداً، وما زالوا حبيسي الدور الذي رافق انتصاراتهــم الكبرى في حــروب القرن العشرين المنصــرم. لقــد تبّين جليــاً في احتــلال العراق وأفغانستان، ومؤخراً ليبيا، والآن التخطيط لغزو سورية إن أمكنهم ذلك، بروز النزعة الاستعمارية في استغــلال الشعوب ونهب ثرواتهــا، كما تبين أيضــاً أن كل الحلول التــي تأتي بالقوة لا تحقق الاستقرار، بل تجلب معها شياطين الموت والدمار والخــراب على تلــك الشعــوب أولاً وربما على المحتلين ثانياً.

كل ما نأمل هــو أن يستيقظ وعي دول العالم حول هذه الحقيقة، خصوصاً الدول الغربية التي يفوح من سلوكها نتانــة الروح العدوانية وبشاعة همجية القوة وازدواجية المعايير.

حوار الحضارات..
لا صِدام الحضارات

✿
د. هزوان الوز

يصعب أنْ يُنظر إلى الكاتب والباحث الأكاديمي الأمريكي الراحل «صامويل هينتنغتون»[1] إلاّ بوصفه واحداً من الشخصيات الثقافية التي تُمثّل مرحلة، أو مفصلاً تاريخياً كونياً، على الرغم من وجود عدد كبير من المفكّرين الذين عارضوا أفكاره، تلك الأفكار التي أثارت، وما زالت تُثير الكثير من السِجالات الثقافية والسياسية والإستراتيجية حتى يومنا هذا.

ذاعت شهرة «هينتنغتون» بعد صدور كتابه (صِدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي)، حيث تزامن ذلك مع سقوط الاتحاد السوفييتي، وأفول نجم الشيوعية في العالم. وتجدّدت هذه الشهرة مع ما حدث في الولايات المتحدة في الحادي عشر من شهر أيلول عام (٢٠٠١م) من تدمير برجي مركز التجارة العالمي، وسقوط حوالي ثلاثة آلاف قتيل، واتهام تنظيم القاعدة بالوقوف وراء ذلك.

✿ باحث وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان أسامة الهاشي.

استناداً إلى هذه الخلفية من الأحداث السياسية، التي حولت مسار التاريخ ووضعت البشرية على منحنى تاريخي غيّر من طبيعة علاقات القوة بين الدول والجماعات السياسية في العالم، برزت أهمية (ولا أقول صحة) ما كتبه «هينتنغتون» سواء في كتبه الأولى: النظام السياسي في المجتمعات المتغيّرة (١٩٦٨م)، أزمة الديمقراطية (١٩٧٦م)، السياسة الأمريكية (١٩٨١م)، الموجة الثالثة: نشر الديمقراطية في نهاية القرن العشرين (١٩٩١م)، أو في كتابيه التاليين: صدام الحضارات (١٩٩٦م)، و(من نحن؟: الجدل الأمريكي الكبير) (٢٠٠٤م). ففي هذه الكتب جميعها يبدو «هينتنغتون» مهموماً بمستقبل أمريكا السياسي ووحدتها الداخلية وطبيعة العلاقات بين مكوناتها العرقية والدينية الثقافية، وكذلك بهيمنتها على المستوى الدولي وإمكان بقائها قوة عظمى قادرة على وراثة النظام العالمي.

لقد عمل «هينتنغتون» منذ تخرجه من جامعة «يال» في سن الثامنة عشرة وحصوله على الدكتوراه من جامعة «هارفارد» وهو في سن الثالثة والعشرين، على إقامة بناء نظري في كتاباته الأكاديمية، للحفاظ على الهيمنة الأمريكية، بوصف أمريكا قوة كبرى صاعدة بعد الحرب العالمية الثانية؛

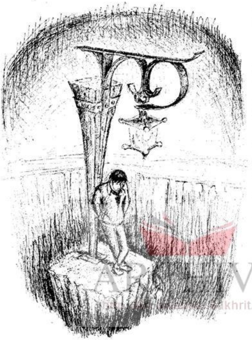
ويمكن القول إنه رغم سطوع نجمه المتأخر في نهايات القرن العشرين، ظل واحداً من الأكاديميين المؤثرين في السياسة الأمريكية في عهود مختلفة من حكم الديمقراطيين والجمهوريين، إذ احتل عدة مناصب استشارية، كما عمل في البيت الأبيض في عهد الرئيس الديمقراطي الأسبق «جيمي كارتر» في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي.

لكنّ شهرة «هينتنغتون» الفعلية أتت بعد صدور كتابه (صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي)؛ الذي صيغ كأطروحة إستراتيجية لإلهام صنّاع القرار في الولايات المتحدة خاصة، والغرب عامة، استخدام مقولة (صدام الحضارات) بوصفها إستراتيجية سياسية يمكن لها أن تحل محل (الحرب الباردة) التي زالت بزوال الاتحاد السوفييتي.

ففي عام (١٩٩٣م)، أشعل «هينتنغتون» نقاشاً مستعراً حول العالم في العلاقات الدولية بنشره في مجلة الشؤون الخارجية) مقالاً شديد الأهمية والتأثير بعنوان «صراع الحضارات»، تناقضت المقالة مع نظرية سياسية أخرى متعلقة بديناميكية السياسة الجغرافية بعد الحرب الباردة لصاحبها «فرانسيس فوكوياما»[٢] في كتابه «نهاية التاريخ».[٣] و قام «هينتنغتون» لاحقاً بتوسيع مقالته إلى كتاب، صدر في عام (١٩٩٦م) للناشر «سايمون وشوستر»، بعنوان (صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي). المقالة والكتاب عرضا وجهة نظره في أنّ صراعات ما بعد الحرب الباردة ستحدث أكثر وأعنف ما يكون على أسس ثقافية (غالباً حضارية، مثل: الحضارات الغربية، الإسلامية، الصينية،..) بدلاً من الأسس العقائدية كما كان الحال خلال الحرب الباردة ومعظم القرن العشرين. هذا التصنيف الثقافي، (حسب رأي «هينتنغتون»)،

سيصف العالم بطريقة أفضل من النظرة التقليدية للدول المختلفة ذات السيادة.

خلص «هينتنغتون» إلى القول بأنه لكي نفهم النزاع في عصرنا وفي المستقبل، يجب أن تفهم الخلافات الثقافية، والثقافة (بدلاً من الدولة) يجب أن يتم القبول بها كطرف وموقع للحروب. لذلك فقد حذر أن الأمم الغربية قد تفقد زعامتها إذا فشلت في فهم الطبيعة غير القابلة للتوفيق للاحتقانات المتنامية حالياً.



المنتقدون[٤] وصفوا صراع الحضارات بأنه «الأساس النظري لشرعنة عدوان الغرب بقيادة الولايات المتحدة على الصين والعالم الإسلامي». إلا أن «هينتنغتون» أكد كذلك أن هذا التغيير في بنية السياسة الجغرافية يتطلب من الغرب أن «يقوي نفسه داخلياً ويتخلى عن عالمية الديمقراطية والتدخل الملح»[٥].

يشير «هينتنغتون» في مقدمة كتابه، إلى أن مقالة (صدام الحضارات) قد أثارت من التعاطف والغضب والخوف والدهشة والشكوك، في كل أصقاع الأرض، ما لم يثره أي شيء كتبه من قبل.

تتضمن فصول الكتاب مناقشة موضوعات عدة هي: مفهوم الحضارة، ومفهوم الحضارة الكونية، والعلاقة بين السلطة والثقافة، وتبدّل توازن القوة بين الحضارات، وتبنّي المجتمعات غير الغربية للثقافة الغربية، وتمثّل تلك المجتمعات لهذه الثقافة، والبنية السياسية للحضارات، والصراعات التي تولدها الحضارة الغربية (إذ تقدّم نفسها بصفتها الحضارة الكونية)، والإسلام السياسي، وبروز الصين كقوة كونية كبرى، وما يتبع ذلك من تسابق على التسلّح بين جاراتها، ومستقبل الغرب والعالم الذي يتشكل من حضارات أساسية كبرى.

انطلاقاً من هذه الخطوط الكبرى التي يضعها «هينتنغتون» لكتابه يقول إنّ: (صدام الحضارات يُمثّل التهديد الأكبر للسلم العالمي، والتوصل إلى نظام عالمي يستند إلى الحضارات يوفر الوسيلة المثلى لمنع نشوب حرب عالمية). بناءً على ذلك فإنّ المؤلف لا يعدُّ كتابه بحثاً في العلم الاجتماعي، بل تفسيراً للتطورات السياسية على الصعيد الكوني بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة، في الوقت الذي يطمح فيه إلى تقديم نموذج لتفسير السياسات الكونية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، بحيث يكون هذا النموذج مفيداً للباحثين وصنّاع القرار في العالم.

يتبنّى بعض الكتاب الفكرة التي تقول بأنّ الهدف سياسي بالأساس، ومقالة «هينتنغتون»، وكذلك كتابه، هما أداتان يُقصد منهما توفير سياسة خارجية مبنية على دوام حضور العدو في الفكر السياسي الغربي. وإذا كان الروس سابقاً، ومعهم دول العالم الثالث القومية واليسارية، قد فقدوا وظيفة التهديد التي كانوا يوفّرونها، فإنّ اصطناع أعداء جدد، (الحضارات غير الغربية في هذه الحالة: الإسلامية، والكونفوشيوسية، والأرثوذوكسية)، هو بديل لحقبة الحرب الباردة وللخطوط السياسية الفاصلة التي كانت توفّرها.

يتكوّن كتاب (صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي) من خمسة أجزاء تحتوي على اثني عشر فصلاً، وهذه الأجزاء الخمسة هي عبارة عن توسع وتطوير نتائج ذلك الافتراض الرئيسي.

في الجزء الأول، يرى المؤلف بأنه ولأول مرة في التاريخ فإنّ السياسة العالمية هي في آنٍ واحد متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات، وأنّ التحديث مختلف عن «التغريب».

يقول أحد الكتاب العرب في معرض نقده للكتاب: (استند «هينتنغتون» في أطروحته حول «صدام الحضارات» إلى تجدد الهويات الثقافية للشعوب واصطدام هذه الهويات بعامل التغريب في المجتمعات غير الغربية، فإذا كان «مصطفى كمال أتاتورك» قد عمل في بداية القرن العشرين، وبعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى على إحداث تغيير جذري في الهوية التركية عبر تغريبها بهدف الوصول إلى حداثة الغرب، فإنّ إحساس الأتراك بالهوية هو الآن إحساس مأزوم سيؤدي إلى صدام عنيف بين حراس التغريب ودعاة الهوية التركية الإسلامية. وعلى الرغم من أنّ «هينتنغتون» يؤمن بمقولة ترابط الحداثة والتغريب، إلا أنه يعتقد أنّ إجبار المجتمعات على تغريب هوياتها قد يولّد ردود فعل مناهضة للتغريب والدعوة مجدداً إلى إحياء الهويات الثقافية الأصلية للشعوب التي تغربت هوياتها، أو التحقت بالغرب بصورة من الصور. لكن «هينتنغتون» لا يذكر في عرضه لردود الفعل على التغريب السبب الفعلي الكامن وراء انعكاس عمليات التحديث في المجتمعات غير الغربية، ولا يُشير في هذا السياق إلى الطبيعة العدوانية للغرب وذكريات الاستعمار القريبة والراهنة، التي تولد نفوراً لدى الشعوب المستعمرة أو الواقعة في مجال الهيمنة الغربية).

الجزء الثاني: يتحدّث عن توازن القوى بين

الحضارات الآخذ في التغيّر؛ فالغرب يتقهقر في نفوذه النسبي، والحضارات الآسيوية تقوم بتوسيع قواها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام يتفجّر سكانياً مصحوباً بنتائج عدم الاستقرار للدول الإسلامية وجاراتها والحضارات غير الغربية بشكل عام، وهي الآن تؤكد مرة أخرى قيمة ثقافاتها. وفي الجزء الثالث: تحدّث «هينتغتون»، عن انبثاق النطاق العالمي الذي أساسه التنوع الحضاري. فهناك مجتمعات تتقاسم روابط ثقافية تتعاون مع بعضها البعض، والدول تجمع نفسها حول الدول الأساسية أو الرائدة أو الكبرى من حضاراتها نفسها.

ويؤكد المؤلف في الجزء الرابع على دعاوى العالمية والإنسانية التي يطرحها الغرب والتي تضعه بشكل متزايد في صراع مع الحضارات الأخرى، وبشكل أكثر خطورة مع الإسلام والصين، وعلى المستوى الإقليمي حروب خطوط الصدع، والتي تقع بشكل رئيسي بين المسلمين وغير المسلمين.

وفي الجزء الخامس والأخير؛ يؤكد «هينتغتون» على أنَّ استمرار حياة الغرب تعتمد على الأمريكيين وهم يعيدون تأكيد هويتهم الغربية وقد هيؤوا حضاراتهم على أنها متميزة وليست عالمية، وقد اتحدوا لغرض تجديدها وصيانتها ضد التحديات من المجتمعات غير الغربية.

هذا، وقد شغل كتاب صدام الحضارات الجماهير والمثقفين منذ سنوات، ولقد كتبت ونشرت تعليقات ضد صاحب أطروحة صدام الحضارات برفضها، ومنها ما يؤيدها بصورة صريحة أو ضمنية، ومنها من يقترح بديلاً عنها (حوار الحضارات)، وبما أنَّ العرب أكثر المستهدفين في هذا العالم الجديد، ولنشر الوعي بهذه الأطروحة تمّت ترجمتها وتحليل مضمونها، وآلياتها المختلفة ودلالاتها بالنسبة للعالم والوطن العربي وتداعياتها المختلفة، وخاصةً أنَّ هذه الأطروحة تؤدي وظائف متعددة في المنظومة الأيديولوجية للغرب.

ونظراً لما ساد الأطروحة من فوضى وعدم تنسيق وخلل في المنهجية التي يتبعها المؤلف، وسعي للمساهمة في تحديد الأهداف الكامنة خلف أطروحة صدام الحضارات، كان لا بدَّ من فك آليات ومنطلقات خطاب (صدام الحضارات)، فقام العديد من الباحثين العرب بإعداد الدراسات التحليلية حول المنطلقات الفكرية والسياسية لخطاب «هينتغتون» والآليات التي يعتمد عليها في طرح المفاهيم، وفي إقناع الآخرين، وكسب المؤيدين.[1]

يُجادل «هينتغتون» في (صدام الحضارات) أنَّ البشر في حقبة ما بعد الحرب الباردة أخذوا يكتشفون من جديد هوياتهم الثقافية، التي تعني لهم أكثر بكثير مما يعنيه أي شيء آخر. ويتخوف من أنْ تؤدي الاصطفافات الجديدة، استناداً إلى الانتماءات الحضارية، إلى اندلاع حروب بين الأعداء الحضاريين القدماء، خصوصاً أنَّ البشر الذين يبحثون عن هوياتهم الثقافية ويعيدون الارتباط بالأعراق التي ينتمون إليها بحاجة إلى أعداء يؤكدون لهم اختلافهم. ومن هنا فإنَّ

المحـور المركزي للكتاب هـو أنَّ الثقافة والهويات الثقافية، أي الحضارات بالمفهوم الأوسع، ستشكل أنماط الصراع والصدام والتفكك في حقبة ما بعد الحرب الباردة. ويبني «هينتنغتون» أطروحته على عدة استنتاجات:

أولاً: إنَّ العـالم أصبـح لأول مـرة، ومنذ مدة زمنية طويلة، متعدّد الأقطاب ومتعدّد الحضارات؛ فالحداثة تتميّز عـن التغريـب، ولا ينتج عنها، كما يظن بعـض المفكرين السياسيـين، ما يسمى الحضارة الكونية الشاملة.

ثانياً: يحدث في هذه الحقبة من تاريخ العالم تغيّر في موازيـن القوى بين الحضـارات البشرية المختلفـة، فقوة الغرب في انحـدار، والحضارات الآسيويـة تتوسع وتزيـد من قواهـا الاقتصادية والعسكريـة والسياسية. في الوقـت نفسه يتمدد الوجود الإسلامي على الصعيد الديموغرافي وينتج عن هذا التمـدد اختلال في تـوازن القوى داخل البلدان الإسلامية وبين هذه البلدان وجيرانها.

ثالثاً: ظهور نظـام عالمي جديـد قائم على الخطـوط والتمايزات الحضاريـة، بحيث تتعاون الـدول فيما بينهـا استناداً إلى كونهـا تنتمي إلى حضارة بعينها، وليس العكس.

رابعاً: إنَّ ادعـاء الغرب بأنـه يُمثل الحضارة الكونيـة الشاملـة، يدخلـه في صـراع قـادم مع الحضـارات الأخـرى، خصوصـاً الحضارتـين الصينية والإسلامية.

خامساً: إنَّ قدرة الغرب على البقاء كقوة رئيسية في العالم تعتمـد على إعادة تأكيد الأمريكيين على هويتهم الثقافية الغربيـة، وعلى تشديد الغربيين علـى هذه الهويـة الثقافية بوصفهـا ذات طبيعة كونيـة شاملة موحدة، تجعلهـم يواجهون تحديات الحضارات الأخرى. ويعتمد تجنب حدوث حروب كونية بـين الحضارات المختلفة علـى اتفاق قادة العالم على الحفاظ على تعددية الهويات الحضارية في السياسات الكونية.

يُشـير «هينتنغتون» إلى أنَّ هناك سبع أو ثماني حضارات ستحل مكان العالم القديم الذي تشكّل في السابـق من ثلاث كتل سياسية: أي الغرب، والكتلة الاشتراكيـة، ودول عدم الانحيـاز. وفي هذا العالم الجديد ستكون الصراعات الخطيرة الناشئة مركّزة بين المجموعات الحضارية، حيث يمكن أنْ تتحول الصراعـات الدموية التـي اشتعلـت في البوسنة والقوقـاز وآسيـا الوسطـى وكشمـير إلى حروب كبرى استنـاداً إلى اختلاف الجـذور الحضارية بين الشعوب المتقاتلـة. ويضرب «هينتنغتون» مثلاً على ذلك بعملية الاصطفـاف السياسي في حرب البوسنة، حيث وقفت روسيا عسكرياً وسياسياً إلى جانب الصرب، فيمـا دعمت دولٌ أخرى (وخاصةً في الشرق الأوسـط) البوسنيين لأسبـاب القرابة الثقافية والحضارية.

وتتضح الأطروحـة الأيديولوجية لهينتنغتون في تركيـزه الشديـد على وجود ثـلاث حضارات كبرى يمكـن أنْ ينشأ الصراع فيمـا بينها. فهناك حسـب المؤلف ثـلاث حضـارات أساسية من بين الحضـارات السبـع أو الثمـاني (أي الصينية، أو الكونفوشيوسية، واليابانيـة والهندية والإسلامية

والغربية والروسية الأرثوذكسية والأمريكية اللاتينية والإفريقية)، هي الحضارات الغربية والإسلامية والأرثوذكسية، ممثلة في روسيا وما يدور في فلكها الديني الحضاري من دول أخرى. وهو يعتقد أنَّ الخط الرئيسي الذي كان يفصل الشرق عن الغرب خلال فترة الحرب الباردة قد تحرك بعيداً عن وسط أوروبة عدة مئات من الأميال شرقاً، ليفصل الغرب المسيحي من جهة، والشعوب الإسلامية والأرثوذكسية من جهة أخرى. لكنَّ الغرب على الرغم من هذا التغيّر في الكتل الحضارية المتنافسة سوف يظل لسنوات مقبلة الحضارة الأقوى في العالم. وفي الوقت الذي يسعى الغرب إلى التأكيد على قيمه وحماية مصالحه؛ فإنَّ المجتمعات غير الغربية تجد نفسها أمام خيار محاكاة الغرب أو مواجهته.

ويبدو أنَّ «هينتنغتون» لا يرى إمكان حدوث تفاعل بين الحضارات، ويعتقد أنَّ وجود خطوط حادة تفصل الحضارات هو الوضع المهيمن على مدى التاريخ.

ومن هنا فهو يرفض النظرية القائلة: إنَّ نهاية الحرب الباردة تعني نهاية الصراعات السياسية العالمية وظهور عالم يغلب عليه الانسجام والتناغم النسبيان، كما يعتقد «فرانسيس فوكوياما» في أطروحته حول (نهاية التاريخ)، وانتشار الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي للدولة البشرية. وبذلك تنتهي الصراعات السياسية الكونية، وتوحد الحضارة الغربية العالم تحت لوائها! ويرى «هينتنغتون» أنَّ الطريقة التي انتهت بها حقبة الحرب الباردة ولدت صعوبة التناغم والانسجام، إذ إنَّ العالم بدا مختلفاً في تسعينيات القرن الماضي، ولكنه لم ينعم بالسلام الفعلي. وقد تبدد هذا الوهم مع تصاعد الصراعات الناشئة على خلفيات عرقية، وعمليات التطهير العرقي، وتعطل القانون، وانهيار النظام، وظهور صيغ جديدة من التحالفات، وعودة الشيوعية، وظهور الحركات الفاشية الجديدة، وصعود الأصوليات الدينية.

لكنَّ الباحث الأمريكي الراحل يرفض قسمة العالم إلى شرق وغرب، شمال وجنوب، ويعدها هي وشبيهاتها أساطير اصطنعها الغرب، مستنداً في رفضه إلى أطروحات «إدوارد سعيد» في كتابه (الاستشراق). وهو يُفضّل الحديث عن مفهوم (الغرب والآخرون)، حيث يعود إلى التأكيد على أطروحته التي تقسم العالم إلى الغرب وبقية البشر. في المقابل ثمّة نظرة إلى العالم في حقبة ما بعد الحرب الباردة ترى أنَّ ضعف الدولة وعدم قدرتها على السيطرة على تدفق رؤوس الأموال، وزوال فكرة الحدود الدولية التقليدية، أدى إلى ظهور نموذج (الدولة الضعيفة الواهنة) الذي يُعزز تآكل السلطة الحكومية، ويؤدي إلى تنامي الصراعات القبلية والإثنية والدينية، كما يؤدي إلى ظهور (مافيات) الإجرام العالمية، وتزايد أعداد المهاجرين بأرقام تتجاوز عشرات الملايين من الأشخاص، وانتشار الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، وانتشار الإرهاب وتزايد عدد المذابح وعمليات التطهير العرقي. ويرى «هينتنغتون» أنَّ هذه

الصورة القاتمة لعالم من الفوضى الشاملة يرسمها كاتبان ومنظـران مهمان من منظري هذا العصر، وهما «زبينغيو بريجنسكـي»[٧] والسيناتور «دانيال باتريك موينيهـان».[٨] ويعتقد الكاتـب أنّ نموذج العالم الغارق في الفوضى واقعيٌ إلى حد بعيد، لأنه يوفّر صورةً فعليةً لما يجري في هذا العالم كخريطة للصراعات العالمية.

يـرى «هينتغتـون» أنّ العلاقة التـي سادت بـين الحضارات في السابق هـي المواجهة، وكانت المساحات الشاسعـة التي تفصل الكتل الحضارية عن بعضهـا بعضاً مانعـاً أساسيـاً دون تفاعلها إلى أنْ ظهـرت الحضـارة الغربية وتمدّدت خلال القـرون الأربعة الأخـيرة، وأخضعت عـدداً من الحضارات الأخـرى لسيطرتها. وقد سهل عملية انتشار الحضارة الغربية في العالم تقدم مؤسساته، والنظام والتدريـب العالي لجيوشه وتطور أسلحته وخدماتـه الطبية، وسهولـة عمليات النقل وتوفير خطوط التمويـن لجيوشه وأفراده. كل ذلك حدث نتيجة للثـورة الصناعية المتقدمـة التي أدت إلى انتصـار الغرب على خصومـه. ولم ينتصر الغرب، كمـا يعتقد الكثير من أفـراده وقادته السياسيين، بسبب علو قيمه أو أفكاره أو دينه بل بسبب قدرته علـى استخدام العنـف المنظم ضـد الحضارات الأخرى. لكـن قدرة الغرب على احتلال مساحات شاسعة من العالم أدت إلى تحول في طبيعة العلاقة بين الحضـارات من المواجهـة إلى التأثير. ويقيم «هينتغتون» رؤيته للتفاعـل بين الحضارات على عدد من الحقائق العملية:

• لقد انتهى الآن توسع الغرب وامتداده وبدأت المواجهـة مع الغرب، خصوصاً بعد أنْ ضعفت قوة الحضارة الغربية نسبيـاً بالقياس إلى الحضارات الأخرى. ومن هنا فإنّ خريطة العالم عام (١٩٩٠م) تختلـف عمـا كانـت عليه هـذه الخريطـة عام (١٩٢٠م). وعلى الرغم من أنّ الغرب مازال مؤثراً في المجتمعات الأخرى فإنـه لم يعدْ قادراً كالسابق علـى صناعـة تاريـخ البشرية على هـواه، بل إنّ المجتمعات غير الغربية قد أصبحت تحرك التاريخ وتؤثر في تاريخ الغرب نفسه.

• بناءً علـى التطورات السابقـة امتد النظام العالمـي خارج حـدود الغرب وأصبـح ينتمي إلى حضارات متعـددة. في الوقت نفسـه خفت حدة الصراعات بين دول الغـرب نفسه الذي بدأ يتجه إلى تشكيـل (حكومته العالمية)، وهو طورٌ لم يتحقق بعـد مع نهاية القرن العشريـن على الرغم من أنّ الدول الغربية حلمت به منذ فترة طويلة.

• انتقلـت الجغرافيـة السياسيـة العالمية من مرحلة العالم الواحد عام (١٩٢٠م) إلى مرحلة العالم الثلاثي الأقطـاب في الستينيات، وصولاً إلى العالم الذي تلعب في ساحة سياسته الدولية ست قوى أو تزيد في التسعينيات.

يعتقـد «هينتغتون» بأنه قـدّم خريطةً سهلةً لفهـم ما يجري في عالم القـرن العشرين. ومن ثَمّ فـإنّ الكثير من التطـورات الحاصلة بعد الحرب الباردة يُمكـن استنتاجها من النموذج الذي وضعه ألا وهـو (صدام الحضـارات). ومن هذا المنظور يوضّـح الكاتب أنّ الدين هو الحجر الأساس الذي

يستند إليه في تعيينه للحضارات المختلفة، إذ قد يشترك البشر في أصولهم الإثنية واللغة التي يتكلمونها، ولكنَّ أصولهم الدينية تجعلهم ينتمون إلى حضارات مختلفة. لذلك نراه يُقسّم العالم إلى ديانتين رئيسيتين هما المسيحية والإسلام، تضمّان بين جوانحهما أعراقاً بشرية مختلفة. ونحن نلاحظ في هذا التشديد رغبة في إقامة فاصل بين عالم الغرب المسيحي والإسلام، تمهيداً للتشديد على أنَّ عدو الغرب الماثل والمهدد هو الإسلام.[9]

وهكذا يتوضح أنَّ عقلية البحث عن عدو تحكم الكتاب من أوّل صفحة فيه إلى آخر صفحة. ومن هنا ضعف التحليل وفوضى المادة التطبيقية، التي قصد منها تعزيز النظرية التي أطلقها «هينتنغتون» في مقالته الشهيرة في مجلة (الشؤون الخارجية) الأمريكية.

لقد سلك «هينتنغتون» طريق المؤرخ البريطاني المعروف «أرنولد توينبي»[10] باتخاذه الحضارات، وليس الدول أو الأيديولوجيات، مجالاً لدراسته.

وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م) كتب «هينتنغتون» مقالة مشهورة أخرى في عدد مجلة (Newsweek Magazine) الصادر في كانون الأول من العام نفسه، بعنوان (عصر حروب المسلمين)، مكرّراً رؤيته التي سبق أنْ طرحها في كتابه، ومفسّراً أبعاد هذه الحروب بما يعني أنَّ نظريته قد تحققت!! وأنَّ حروب المسلمين ستشكّل الملمح الرئيسي للقرن الحادي والعشرين. يُدافع «هينتنغتون» عن ذلك، ويُرجع عوامل أسباب العنف الإسلامي إلى أنَّ الإسلام (بزعمه) يُمجّد القتال، وقد انتشر بالسيف، وأنَّ تعاليم الإسلام تنادي بقتال غير المؤمنين، إضافة إلى غياب مفهوم اللاعنف عن الفكر والممارسة الإسلامية!!.

ويُضيف بأنَّ انتشار الإسلام وضع المسلمين في احتكاك مباشر مع شعوب مختلفة، وظل ميراث هذه الاحتكاكات موجوداً. ويقول بأنَّ عند المسلمين عدم القابلية لهضم غير المسلمين، ويخلص إلى أنَّ الإسلام عقيدة مستبدة أكثر من المسيحية.

وتكشف هذه الرؤية لهينتنغتون عن قدرة أيديولوجيته الصدامية في تأجيج النزاعات، وهي تُعبّر عن النزعة الأكاديمية الغربية التي تؤصّل لفكر وممارسة قائمين على الصدام مع الآخر، وهي رؤية المحافظين الجدد نفسها (New con -)، لذلك نراه يُركّز على أحداث ووقائع تعكس عنف العلاقة بين الغرب والإسلام، وقد فاته أنَّ هذه الأحداث هي نتاج لماكينة السياسة الغربية في العالم، لقد اعتاد الغرب أنْ يتحيّن الفرص ويصطاد الأفكار، ويرتب وفق إستراتيجيته الخاصة الأيديولوجيات المرحلية ليصل بها إلى حالة الصراع الحضاري والثقافي، فالمهم والأساس بالنسبة للغرب هو مصالحه الاقتصادية وتأمين احتياجاته المادية لحياته لا أكثر. واليوم يعمد الغرب إلى تكريس نظرية (صدام الحضارات) بدلاً من أنْ يُكرّس مبدأ الحوار، الحوار بأشكاله كافة، ضمن الوطن الواحد، وضمن المنظومات الإقليمية، والتجمعات الدولية المختلفة، للوصول إلى حوار حقيقي للحضارات، حوارٌ قائم على العدل والمساواة والعدالة الحقيقية لجميع بني البشر.

الهوامش والمراجع

١- صامويل فيلبس هينتنغتون Samuel Phillips Huntington. (ولد نيسان ١٩٢٧ - توفي كانون الاول ٢٠٠٨). استاذ علوم سياسية في جامعة «هارفارد» (Harvard University). اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم اطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرين سيكونوا الحضارات وليس الدول القومية، كما استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايات المتحدة التي تشكلها الهجرة المعاصرة. برز اسم «هينتنغتون» أول مرة في الستينيات بنشره بحث بعنوان «النظام السياسي في مجتمعات متغيِّرة». وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية لمنظري التحديث والتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الاستقلال.

٢- ولد «فوكوياما» في شيكاغو عام ١٩٥٢ لابوين يابانيين مهاجرين، وحصل على درجة البكالوريوس في الآداب من قسم الدراسات الكلاسيكية في جامعة «كورنيل». ودرس الفلسفة السياسية على يد «الن بلووم» (Allen Bloom). بينما حصل على الدكتوراه من جامعة «هارفارد» (Harvard University)، حيث تخصّص في العلوم السياسية.

٣- يرجى مراجعة مقالنا: (هل هي حقا نهاية التاريخ؟). المنشور في مجلة المعرفة العدد (٥٨١) شباط (٢٠١٢م).

٤- المنشورة كمقالات في «لوموند دبلوماتيك».

٥- يجدر بنا مقارنة «هينتنغتون». ونظريته عن الحضارات، وتأثيره على صانعي السياسة في الإدارة الأمريكية والبنتاغون، بأرنولد توينبي ونظريته التي اعتمدت بشدة على الدين والتي لاقت انتقادات مماثلة.

٦- ومنها الدراسة التي أعدّها الباحث الدكتور «مالك عبيد أبو شهيوة» بعنوان: مساهمة أولية للوعي بالآخر: منطلقات وآليات صدام الحضارات.

٧- يُعتبر «زبينغيو بريجنسكي» (Zbigniew Kazimierz Brzezinski). من مفكري السياسة الأميركيين. كان مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأميركي الأسبق «جيمي كارتر». وقد كان، ومازال، من الذين تتلقف ايدي مفكري السياسة والسياسيين كتبهم. وقد أصدر «بريجنسكي» بعد حرب العراق كتابا بعنوان (الاختيار: السيطرة على العالم أم قيادة العالم)، وعنوانه يكشف موضوعه. ويقدم فيه العديد من النصائح للإدارة الأمريكية. وقد حوى الكتاب مغالطات واوهاما تتعلق بنظرته المعادية للإسلام والمسلمين. وتعتبر انعكاسا للغطرسة الأمريكية التي لا ترى إلا نفسها.

٨- السيناتور «دانيال باتريك موينيهان» (Daniel Patrick Moynihan) (١٩٢٧ - ٢٠٠٣م). من المحافظين الجُدد الذين عرفوا أمثال: «ارفينج كريستول». و«دانيال بل». و«ارفينج هوي». و«سيمون مارتن ليبست». و«فيليب سلزنيك». و«ناثان جليزر». وهو الذي حثّ الرئيس الأمريكي الراحل «نيكسون» ذات مرة على أن يتولى إدارة فيها (رجال محافظون بمبادئ ليبرالية).

٩- وهذا هو الهاجس الحقيقي لـ «هينتنغتون». إضافة لهواجسه الأخرى التي ضمّنها في آخر كتبه (من نحن؟ التحديات للهوية القومية لأمريكا). الذي نشر في آيار (٢٠٠٤م). وموضوع هذا الكتاب هو تحديد معنى الهوية القومية لأمريكا، والتهديد المحتمل الذي تشكله الهجرة اللاتينية الضخمة. والتي يحذر «هينتنغتون» من أنها قد «تقسم الولايات المتحدة إلى شعبين، بثقافتين، بلغتين». ومثل (صدام الحضارات). أثار كتابه الأخير جدلا واسعا. واتهمه البعض بالخوف المرضي من الأجانب (xenophobia) لتأييد الهوية (الانجلو بروتستانتية) لأمريكا وللانتقاص من نظم القيم الأخرى.

١٠- ولد «أرنولد جوزف توينبي» في ١٤ نيسان (١٨٨٩م) في لندن، وتوفي في ٢٢ تشرين الأول (١٩٧٥م). أهم أعماله «دراسة للتاريخ» وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

الإنسان الاقتصادي الجديد[(١)] هل هو من فصيلة العارف؟

ترجمة: د. ماري شهرستان *

بدأ اقتصاد جديد للحياة اليومية يرى النور، ويجري تطبيقه في مجالات جديدة مثل الطب والجنوح والعائلة.. فيُظهر لنا وجهاً خفياً من العلاقات الإنسانية. إن نموذج الإنسان الاقتصادي l'Homo oeconomicus الذي ساد النظام (البشري) لفترة طويلة أصبح اليوم في حالة اهتزاز.

حسابات وأخطاء الحياة اليومية.. يمكننا أن ندرس الاقتصاد دون التحدث عن منحنى بياني للنمو أو عن معدل التضخم المالي، إنما بالتحدث عن أرصدة، وعن استهلاك وعن الحب. في خلفية الموضوع، هناك نموذج بكامله للإنسان الاقتصادي يعاد التفكير به وتعاد دراسته، ومن خلاله تُطرح العديد من الأسئلة: لماذا لا يزال باعة وموزعو المخدرات يعيشون عند أمهاتهم؟ ما هي الدوافع الحقيقية لوكلاء العقارات؟ هل الإجهاض هو علاج ضد الجريمة؟ لماذا لا

---

* مترجمة وباحثة سورية.

ينبغي معاقبة الوالدين اللذين ينسيان طفلهما في دار الحضانة؟ إلخ. هناك إذاً نوع من الموضوعات الغريبة لكنها شائكة على الدوام، نكتشفها في نوع جديد من الأدب الاقتصادي الذي يلاقي رواجاً ونجاحاً كبيراً في الولايات المتحدة باسم: اقتصاد الحياة اليومية.[2]

لقد افتتح هذا الموضوع بكتاب فريكونوميكس[3] Freakonomics. كما قدّم بعض المؤلفين[4] سلسلة من الأبحاث حول مواضيع مستحدثة مثل: «لماذا لا ينبغي معاقبة الأبوين اللذين يتأخران عن جلب أطفالهما من دار الحضانة؟». فقد أورد المؤلفون تجربة مثيرة. لقد قرّرت مديرة دار حضانة، فرض غرامة مالية على الأبوين المخالفين لنظام الوقت المحدد، إذ كان قد أرهقها الأبوان اللذان يأتيان متأخرين لأخذ أطفالهما (مرغمين بذلك الموظفين على البقاء في العمل بعد ساعات الدوام). وكانت النتيجة بعد بضعة أسابيع أن ازداد عدد المتأخرين بشكل كبير! لماذا؟ لأننا عندما نجعلهم يدفعون غرامة نبرئهم من خطئهم. فالأبوان اللذان على عجلة من أمرهما عوضاً عن الاستعجال والجري إلى دار الحضانة للوصول قبل إغلاقها، يستطيعان تبرير ذلك بقولهما: «لا بأس أن أكون متأخراً، ليس الأمر بهذه الخطورة، فسأدفع الغرامة». ما وراء الطرفة البسيطة يطرح هذا المثال سؤالاً أساسياً حول المحرضات التي تدفع الناس إلى التصرف.

تبع ظهور «فريكونوميكس Freakonomics» كوكبة من المؤلفات الأخرى من النمط نفسه،[5] تُثبت بزوغ ميل جديد إلى تطبيق الاقتصاد على مواضيع بعيدة جداً عن الحقل الأكاديمي الاعتيادي. هنا لا يجري التحدث أبداً عن تنمية، أو عن أسواق مالية، أو عن بطالة، إلخ. عن تأخر القطارات، أو عن الجرافات، وعن المخدرات والعطلة على شاطئ البحر... هذا الاقتصاد في الموجة الجديدة ليس هدفه فقط أن يسترعي الانتباه وأن يجذب الزبون الدائم إلى مواضيع سخيفة، بل هدفه اقتصاد الحياة اليومية؛ وهو أن يطرح الجدل حول عقلية الأفراد، ومقدرتهم على القيام بمعاملات صغيرة عاقلة نوعاً ما في إدارة حياتهم.

من بين الاقتصاديين في هذه الموجة الجديدة، يتبنى بعضهم وجهة النظر الواردة في نظرية الاختيار العقلاني،[6] وهو نموذج مرجعي في الاقتصاد الإفرادي[7]. هنا كل شيء يمكن تحليله بالحساب الفردي للتكاليف والفوائد.

فكرة أن الكائنات البشرية تتصرف وفق املاءات العقل (أو هذا ما ينبغي أن تفعله) هي فكرة قديمة قدم الفلسفة، والنظرية الاقتصادية الحديثة للفاعل العقلاني هي امتداد واستمرار لها. وهي تنهل من مصدرين: من جهة هناك فكرة حاضرة عند اختصاصيي علم الاجتماع مثل ماكس فيبر Max Weber وفيلفريدو بارتو Vilfredo Pareto. وهي أن الظاهرات الاجتماعية تنتج عن مجموع أعمال الأفراد الواعين لأهداف أفعالهم. والفكرة الأخرى هي الفرضية الأولى للاقتصاديين الكلاسيكيين الذين يؤكدون أن الهدف الوحيد

للعناصر الاقتصادية هو زيادة أرباحهم، التي يمكن حسابها بتقدير التكاليف والأرباح.

تفترض نظرية الاختيار العقلاني بصيغتها الحديثة أن العنصر الاقتصادي هو أناني ومحاسب في آن معاً.

لقد اخترع منظرو الاختيار العقلاني نظرية «المدمن العقلاني»، والتي أوضحها «غاري بيكر» Gary Becker منذ عام ١٩٨٠م عندما أراد تطبيق نظرية الاختيار العقلاني على الزواج، وعلى الجنوح، وعلى المخدرات، وعلى الحياة السياسية وعدد الأطفال.[8] لقد كرّس هذا الاقتصادي حياته ليبرهن أنه ليست الأعمال التجارية وحدها هي المحكومة بحسابات أنانية بل السلوكيات الاجتماعية التي نصنفها عادة تحت شعار الأخلاق أو المشاعر هي في حقيقة الأمر محكومة أيضاً بحسابات أنانية. وفق فرضيته، إن تأسيس عائلة أو الانصراف إلى المخدرات والأعمال المشبوهة يمكن تفسيره بالربح أو الخسارة. لماذا معدل الطلاق عند الناس الميسورين يكون أقل مما هو عليه عند الناس الفقراء؟ الجواب: لأنه كلما كان الرصيد المالي أضخم تصبح تكاليف الطلاق أكثر ارتفاعاً. وفي دراسته حول العائلة،[9] أولى اهتماماً خاصاً بعدد الأطفال في العائلة الواحدة. وفي كتاباته يقول: فإن لم يكن الأطفال سوى «ثمرة الحب» لكان عدد الأطفال بكل بساطة متناسباً طرداً مع رغبة الأبوين. إلا أن كل الأزواج يجرون اليوم حساباتهم حول التكاليف والفوائد قبل التفكير بإنجاب طفل جديد: تكاليف دار الحضانة، وسعة المسكن، والإستراتيجيات المهنية للأم، والضغوط على المدى البعيد، إلخ. تصبح كل هذه الأمور موضوعاً للتقييم والتقدير في العلاقة بين الكلفة/ والاستثمار، فنطرح السؤال: لماذا استقرت العائلة الحديثة على طفلين فقط؟ الجواب: لأن طفلين يشكلان استثماراً مردوده أقوى من تأمين على الشيخوخة، لكن بأكثر من طفلين يتغير الحساب.

وكان هارفورد[10] T. Harford، قد عمل جاهداً ليبرهن أن الحب، والجرائم، والانتخاب، والرياضة، والأعمال الإرهابية أو هدايا عيد الميلاد يمكن أن تكون خياراً منطقياً. ووفق ذلك، فالمراهق، الذي يدخن السيجارة الأولى، يقوم بحساب بسيط: فهو يعرف جيداً أن التبغ خطير، ويظن أن باستطاعته التوقف عنه إن هو أراد ذلك (ووجود لطخ النيكوتين تثبت له ذلك)؛ كما أنه يعرف ثمن علبة السجائر (التي يرتفع ثمنها أكثر فأكثر). كل هذه المعلومات تسمح له بتقييم المخاطر ومقارنتها بمتعته الآنية. في الواقع، ووفق وجهة النظر تلك، المراهق هو مستهلك صغير وفطن يقوم ببعض المخاطر لقاء رعشة صغيرة وهو ليس بالجاهل الذي يرضخ للتأثيرات بشكل أعمى.

بالنسبة إلى مُنظري الاختيار العقلاني، كل الحياة الاجتماعية بمجملها، بدءاً من الحب إلى الالتزام النضالي، لا تفلت من هذه الحسابات الإفرادية ومن المساومة بين الأفراد.

لكن انتقاداً جدياً لهذه الرؤية الحسابية للوجود الإنساني -ذي الهيمنة الاقتصادية -ظهر منذ سنوات من قِبل جماعة متنامية ومعارضة

مؤلفة من أتباع الاقتصاد السلوكي[11] الذين بدورهم يذهبون أيضاً بالاقتصاد بعيداً خارج مجاله الاعتيادي: فبالنسبة إليهم، الفرد العقلاني هو تصوّر نظري، والمستهلكون أو ذوو الرواتب مثلنا لا يشبهون أبداً هذا الحاسب الأناني والمنبّه.

من الوجوه المدافعة عن الاقتصاد السلوكي دانييل كانمان[12] Daniel Kahneman وأموس تفيرسكي Amos Tversky. وهما اختصاصيان في علم النفس، نسبا التأثيرات العقلانية المحدودة إلى سلسلة من الجوانب المعرفية المنحرفة؛ وقد تطوّر حقل واسع جداً من الأبحاث إثر ظهور أفكارهما أهمها: المال السلوكي،[13] والاقتصاد العصبي neuroéconomie.

قدم الاقتصاد السلوكي عالمياً ثلاثة نماذج من الانتقادات إلى نظرية الاختيار العقلاني. إن حساب الفوائد يصطدم بـ«جوانب معرفية منحرفة» (أي إن هناك أحكاماً قد تكون ظاهرياً موثوقة لكنها تحتوي على أخطاء في المحاكمة). ثم هنا كانحرافات «انفعالية» (الخيارات تصاب بالتغيرات الانفعالية - من خوف وشهوة وخجل أو شعور بالذنب بحيث تبلبل المصالح والحسابات). وأخيراً هناك «جوانب أخلاقية - نفسية» مؤثرة بحيث تجعل عدداً من خياراتنا الاقتصادية مؤتمرة بنظم اجتماعية وليس فقط بحساب المصالح الأنانية. خلاصة الموضوع، في خياراتنا الاستهلاكية، قد يحصل لنا غالباً أن نختار دون إجراء حسابات صحيحة جداً، وأن ننذر تحت تأثير الشهوة أو أن نقبل السير ضد مصالحنا المباشرة لمجرد إرضاء نظم سارية اجتماعياً. كذلك، فإن قاعدة الأنانية المتبعة في نظرية الاختيار العقلاني اصطدمت بوقائع مثل الأعمال التي ليس لها مردود مادي: على سبيل المثال تكريس وقت طويل من الحياة لمساعدة الفقراء أو لخدمة المرضى أو اليتامى.. هذا الثقل الأخلاقي وثقل النظم على الفعل الإنساني والذي يعرفه علماء الاجتماع بشكل جيد تماماً، هل يتطابق مع العقلانية والحساب؟

ويقدّم الاقتصادي دان أريلي Ariely Dan، أحد الوجوه البارزة في هذا التيار، بعض الأمثلة البسيطة: نشاهد ذات يوم أن سعر القميص قد تمّ الإعلان عنه في واجهة المخزن بـ٢٠، ثم في الأسبوع القادم يتم الإعلان عن رخصة بشكل يتم فيه حذف السعر ٤٠ ليصبح ٢٠!! فيزداد عدد المشترين على الفور مع أن المنتج هو نفسه (القميص) والسعر أيضاً هو نفسه ٢٠ لكن شطب السعر (٤٠) يفعل كفعل الفخ تماماً: طعم يجعل المستهلك يعتقد أنه يوفر مبلغاً لابأس به! وعملية الخديعة مستمرة وناجحة، فهذا يعني أن سلوك الاستهلاك ليس عقلانياً جداً (وفق معايير البحث).

ويروي أريلي Ariely أن تاجر مجوهرات اسمه سالفادور أسيل Salvador Assael وجد ذات يوم أن لديه كمية كبيرة من اللؤلؤ الأسود والذي لم يكن آنذاك له قيمة في السوق. ماذا فعل؟ اختار أجملها وأقنع تاجر مجوهرات آخر بأن يضع بضعاً منها في واجهته إلى جانب الأحجار الكريمة غالية الثمن. وبسرعة كبيرة بيعت اللآلئ بسعر مرتفع جداً ووجدت مكاناً لها على عنق السيدات

الأنيقات اللواتي أطلقن هذه الدرجة. لقد حوَّل أسيل S. Assael شيئاً مجهولاً دون قيمة تذكر إلى حلية رائعة يشتريها المترفون.[14] لكن كيف تمت هذه الأعجوبة؟ يسمي علماء النفس ذلك بمخرج الرسوخ (أو التثبيت): فبما أن زبائن الصائغ، مقتنعون سلفاً أن هذه الأحجار الكريمة هي من الثروات النفيسة، قبلوا بدفع ثمن مرتفع جداً لهذه الأحجار الغريبة. لقد ثبتوا قيمة الثانية على قيمة الأولى أي وفقها.

إنه من السهل القول إننا متباهون مغترون وسريعو التأثر، أو لا نجيد الحساب... هل كان يجب علينا أن نفهم تماماً مغزى غرابة قراراتنا اليومية والتي تتكرر من فرد لآخر ولا تنتج عن مجرد حزمة تأثيرات غير متوقعة؟

هذا هو نموذج التجربة الذي اختص به الاقتصاد السلوكي أو كما يسمى أيضاً الاقتصاد التجريبي. فهو يبرهن أن السلوكيات الاقتصادية اليومية ليست على الدوام عقلانية: فنحن المستهلكين مخدوعون بسهولة بمحاكمتنا بطرق غير مباشرة، ونقدِّر بصعوبة قيمة الأشياء، ولا نجري حسابات دقيقة صارمة. كما أننا حساسون جداً تجاه انفعالاتنا.

فعلى سبيل المثال علينا أن نفي بالتزاماتنا تجاه أنفسنا (في موضوع الحمية الغذائية، ينبغي أن نحترم قراراتنا). نحن إرجائيون[15] مستعصون، نقرر أمراً عند الصباح (فنقول: اعتباراً من اليوم سأكون أكثر انتظاماً) لنفعل عكسه خلال النهار. فنحن نرضخ بسهولة لرغباتنا ضد رشدنا. وأخيراً، النظم النفسية والأخلاقية تلعب دوراً كبيراً في سلوكياتنا. ومثال تأخر الأبوين عن دار الحضانة دليل على ذلك. ومثال الفرد الأناني والحاسب هو إذاً غير مقبول. فهناك العواطف والانفعالات، والنظم الاجتماعية، والإيثارية، والبحث عن العرفان: يوجد إذاً دوافع سلوكية لا يمكن لها أن تنغلق ضمن قالب أناني همه الوحيد الحساب الدقيق لأرباحه.

وهل يمكننا القول إن الفرد في كلِّ الظروف والأوقات يحسب تكاليف وأرباح أفعاله؟ فإن بعض الأفعال مثل محبة الجيران تبدو غير قابلة للحسابات أبداً. هل يتصرف الإنسان تحت نير سيطرة النظم أم بدافع من مشاعره التلقائية؟ ففي أي حالة كانت، هل يمكننا القول أنه عقلاني؟

هناك عدد من الأجوبة على هذه الأسئلة مرضية نوعاً ما لكن لا يمكننا القول أنها تحسم المسألة لكنها تقدم في كل مرة إضاءات جديدة على هذه الاستفهامات البسيطة جداً دون أدنى شك: لماذا نسلك هذا الطريق في أفعالنا؟

المشاعر والانفعالات؟

لم ينكر الاقتصاديون أبداً المشاعر والانفعالات بأنها تؤثر على قراراتنا. وقد كرَّس آدم سميث[16] Adam Smith كتاباً خاصاً ليشرح فيه أن أعمال الصفقات لا يمكن أن تحصل من دون ثقة والتي بدورها تستند إلى شعور الود والإئتناس بين البشر. إن أنصار الاختيار العقلاني بدوا أكثر إحراجاً مع الموضوع: لقد اعتبروا الحالات العاطفية وكأنها

طفيليات غير متوقعة أي كأنها ظاهرات ثانوية ذات ثقل ضعيف.

حاول بعض الاقتصاديين تحديد دور الندم في سلوكياتنا الشرائية: يحدث لنا جميعنا أن نتراجع عن شراء غرض ما فقط لخوفنا من الندم اللاحق. هذا القرار هو نتيجة لتوقعنا بإحساس مزعج.[١٧] لكن هذه الفكرة المحدودة جداً أعيد طرحها بعد أبحاث اختصاصي علم الأعصاب النفسي أنطونيو داماسيو Antonio Damasi الذي برهن أن الأحاسيس ضرورية لاتخاذ القرارات، سواء أكانت عقلانية أم لم تكن. فالثابت أن وراء كل قرار هناك قسط من المشاعر، فيمكننا الافتراض إزاء ذلك أن التفاؤل، والشهوة أو الحزن، هي أحاسيس يمكن أن تجعلنا نتخذ قرارات غريبة وعجيبة.

هذه الفكرة القائلة بأننا نجد انفعالات ومشاعر خلف لاعقلانياتنا، أدت إلى أبحاث معمقة.

فوفق جان ديسيتي Jean Decety[١٨] الأخصائي في الدماغ، عندما نكون كرماء، وعندما يكون باستطاعتنا أن نكون أنانيين، تكون مناطق التعاطف الدماغية نشطة. دلت التجارب الحديثة التي أجراها كل من بول زاك وأنجيلا ستانتون وشيلا أحمدي[١٩] عام ٢٠٠٧م، أنه باستطاعتنا أن نتلاعب بثقة شركاء في الأعمال بمساعدة هورمون الأوسيتوسين l'ocytocine[٢٠]. أما عن السخط النفسي الذي نشعر به إزاء عرض ظالم، فقد لوحظ أنه ناجم عن نشاط منطقة دماغية مترافقة مع إحساس بالقرف: السخط تجاه الظلم قد يكون إذاً حشوي: لكن السؤال هل يحصل قبل أن يكون أخلاقياً أم بعد ذلك؟ كل الجدل المطروح بين الثقافة والطبيعة، وبين المجتمع والدماغ موجود ضمن هذا السؤال[٢١] ...

استنتج الباحثون أن العادات والتقاليد تؤثر بشكل كبير على أسلوبنا بانتقاء عقد أو اتفاق أو معاملة تجارية[٢٢]... فهل تؤثر النظم على الكفاءات الطبيعية؟ وهل سنصبح قابلين للتأثر، محاسبين سيئين وغير مستقرين رغم نظرية الاختيار العقلاني؟ لكن هذا لا يعني أننا نفعل أي شيء لا على التعيين. تضافرت جهود علماء النفس وعلماء الاقتصاد منذ ثلاثة عقود من أجل تعيين بعض أخطائنا الأكثر استمرارية، أي الأكثر توقعاً.

وكان أبرز الترتيبات ما قدمه هربرت سيمون Herbert A. Simon الذي أدخل فكرة «العقلانية المحدودة». لقد طوَّر سيمون فكرة أن خيار الفاعلين له علاقة بكمية وكيفية المعلومات التي بحوزتهم من جهة، وبمقدرتهم على الحساب من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، من أجل شراء سيارة، فإن غالبية الناس لاتضيع وقتاً طويلاً في مقارنة كل خصائص السيارات (استهلاك البنزين، الراحة، السعة) وهي غير قادرة على تقييم القيمة النسبية وتقديرها ومقارنتها بشكل موضوعي. هذه المعلومات الناقصة قد تقود الأفراد إلى خيارات ليست الأفضل، لكن قد تكون خيارات حكيمة أكثر منها عقلانية دقيقة. فعلى سبيل المثال هناك «قاعدة الإحساس والتمييز» أو كما يقول سيمون «منهج الاستكشاف» وهو طلب النصح من خبير (أو قريب له خبرة واسعة في عالم السيارات) أو

القيام بخيار حكيم باقتباس سلوك أشخاص في وضع مماثل.

مثال: عندما تكون العقلانية محدودة في إطار الظروف: لنفترض أنني أريد تحسين مبيعاتي من المربيات فأقوم بتنظيم حملة تذوق مجانية. لكن هل ينبغي عليَّ طرح كل ما أملك من أصناف للتذوق؟ طبعاً لا. فالتجربة دلت أنه بعد عدد معين لن يكون باستطاعة الزبون معرفة الصنف الذي يفضله فيشتري كمية أقل! لأن المستهلك لا يملك حاسوباً في دماغه: لذلك أسهل عليه أن يقرِّر ما يشتريه من بين ستة أصناف من أن يقرر ذلك من بين أربعة وعشرين.

يسمى «تأثير المظهر» كل المكونات التي تؤثر على كيفية وكمية المعلومات التي نستخدمها للحكم على موقف معين أو للقيام باختيار ما أو لتكوين رأي. اكتشف هذا العامل علماء النفس وهو الآن جزء من دراسات الاقتصاديين السائدة من الذين يهتمون بتأثير المعلومة، والتسويق والدعاية على سلوكية المستثمرين والمستهلكين بشكل عام.

إنسان اقتصادي جديد؟

Un nouvel Homo œconomicus?

هل تكون نظرية الاختيار العقلاني[٢٣] مقابل نظرية الاقتصاد السلوكي؟[٢٤] فالاقتصاد الجديد للحياة اليومية هو ميدان المعركة بين تيارين فكريين متناقضين جذرياً. مع أننا إذا دققنا أكثر، نجد أن النموذجين ليسا متباعدين كما يبدوان لنا ظاهرياً. ويمكننا حتى أن نجد فيهما نقاط تقارب والتقاء.

فنظرية الاختيار العقلاني لم تعد تقدم لنا نموذج الفرد الأناني والمعصوم عن الخطأ. لقد أدخلوا في سلوكياته فكرة التردد، والمجازفة، والإيثارية، و«التشوّش الوقتي في الاختيار» («على المدى القصير، تضعف إرادتي أمام الملابس الجميلة التي أراها في الأسواق وأسرع لشرائها، رغم أني كنت أود أن أوفر بعض المال على المدى البعيد!»). خلاصة الموضوع، الإنسان الاقتصادي الجديد في نظرية الاختيار العقلاني (TCR) لم يعد ذلك الفرد الخبير الداهية، الحذر والصارم كما كان في نسخته الأولية.

وعلى العكس من ذلك، وإن أصبح الفرد في الاقتصاد السلوكي مشوشاً ومتردداً وحتى محرَّضاً، لكنه في الوقت نفسه ليس فرداً متقلباً غبياً ينقاد وراء أهوائه الآنية. إنه شخص عقلاني - مثلك ومثلي - يدبر أمره بأفضل ما يملكه من إمكانيات: «افكر في نفسي، لكني أحرص على ألا أحطم الآخرين: فأنا أفكر قبل أن أتصرف (حتى من دون أن أجري أي حساب). وأحاول أن أضبط نفسي قدر المستطاع، ولو أني لا أحسن ذلك دوماً». لكني أوفّق بين مصالحي وقيمي وواجباتي. فأنا أعرف مكامن قوتي وضعفي وأحاول أن أحتال عليها.

وفي النهاية، يقدِّم التياران المتنافسان صورتين «للإنسان الاقتصادي العادي» ليستا بعيدتين كل البعد عن بعضهما بعضاً. انطلقتا من افتراضات سلفية متناقضة، لكن الالتقاء بين المقاربتين قد يصبح قريب المنال. إنه إحدى تحديات العلم

الاقتصــادي في هــذه البداية من القــرن الواحد والعشرين.

نعــود إلى المسألــة الأولى «لمــاذا يعيش باعة المخـدرات عند أمهاتهم؟»، يقـدِّم س. ليفيت S. Levitt الجـواب التالي: «ليســت تجارة المخدرات مختلفــة بشيء عــن الصفقات التجاريــة الكبيرة أو عــن المافيا. يوجد في القمــة الأشخاص الذين يربحــون كثيراً وفي أسفــل السلم هنــاك الباعة الصغار يعملون بربــح بسيط ووضعهم غير ثابت. فهم ليس بإمكانهم امتــلاك مسكن ولهذا السبب يعيشون بعيداً عن أبويهــم. وهم وإن لم يصلوا إلى المراتب العليا في ميــدان الأعمال، فهم لن يرضوا البقاء لمــدة طويلة في هذه المهنة المؤقتة والمشكوك فيهــا. فهم يحلمون مثل الكثيرين بأن يمضوا حياة سعيدة في الــزواج، وأن يكون لهم بيت خاص بهم، وأن يعملوا براتب أفضل، فيذهبون باحثين لتحسين أوضاعهــم المعيشية وتأمــين مستقبلهم. وخلاصة الموضوع: الباعة الصغار هم أشخاص عاديون.

الاقتصاديون يخوضون التجربة[25]

لاقت الأعمــال التجريبية نجاحاً كبيراً وازداد عــدد الشباب الباحثــين الذين صنعــوا لأنفسهم في السنــوات الأخيرة شهرة، ليــس باقتراح نموذج مستحــدث في الرياضيــات، بل بتجديــد الطرق والأغراض في الاقتصــاد التجريبي. فبالنسبة إلى أعمال توماس بيكيتــي Thomas Piketty التي أصبحت مرجعــاً في المادة التي تبحث تفاقم عدم المساواة في الولايات المتحدة الأمريكية نجد: أنه بفضل تنقية الدخــل في الطبقات العليا، أقام الباحث بيانــاً في الفروق الاقتصاديــة وتزايدها الشديد خلال الثلاثين سنة الماضية.[26] لكن هناك أسماء أخرى تظهر على الفور وتساند الموضوع.

فــإذا بــرزت إيســتر دوفلــو[27] Esther Duflo وهي اختصاصيــة في الاقتصاد في معهد ماساشوسيــت للتكنولوجيــا، كنجمة مــن النجوم الصاعــدة في اقتصــاد النمو والفقــر، ذلك لأنها ساهمت في إدخــال طريقة تجريبية مستوحاة من الطب. وبفضــل هذه الطريقة، قيَّــمَ الاقتصاديون فعاليــة السياســات العامة ثم صاغــوا فرضيات جديدة في البحث كانت من نتائج دروس التجربة. وقــد هيــأت دوفلو مــع باحثين آخريــن، مقاربة تجريبية في اقتصاد التنميــة، وفق مراحل شبيهة بتلــك المعمول بها في مجــال الأدويــة. فالطريقة التجريبيــة في العلــوم الاجتماعيــة هــي المعادل للبحــث السريري في الطب: يتــم اختيار مجموعة مــن الأفراد بشكل كيفي ويتــم إعطاؤهم دواء ما؛ ثم تُقــارَن النتائــج التي يتم الحصــول عليها مع نتائــج لمجموعة أخرى لم تأخذ الدواء. طبقت هذه الطريقــة في الاقتصاد لأول مــرة عام ١٩٦٠م في مجــال التهيئة المهنية ثم في التربية. ومنذ عقد من الزمــن ظهرت هذه التجــارب في اقتصاد التنمية مع اختيار اتفاقي واكتسبت انتشاراً واسعاً. ويبدو أن هــذه الطريقة هــي الوسيلة الوحيــدة لمعرفة فعالية سياســة معينة، ولتجسيد نظرية في مكانها الصحيــح، كما تتيح معرفة الأسباب غير المتوقعة. فهناك على سبيل المثــال دراسات عديدة أظهرت أنــه إذا تم دفع مبلغ مــن المال للأبوين كي يلقِّحوا

أطفالهم. يرتفع معدل الإلقاح من ٢٠٪ إلى ٤٠٪ لم يخطر ببال أحد أن الدافع المالي قد يكون له هذا التأثير الهائل في هذا المجال. إذ لا يوجد أي مثال أو نمط يمكن أن يشرح تماماً مثل هذه السلوكية.

تولد التجارب أحياناً نماذج جديدة. لقد قامت دوفلو Duflo بدراسات عديدة محاولة فهم الفلاحين في البلاد النامية بغية التوصل لمعرفة لماذا لايستخدمون السماد. دلت التجارب أن عوامل منتظرة مثل مسائل المعلومات أو التعلم، وعدم توافر القروض لا تفسر هذه السلوكية إلا جزئياً. وبالصدفة اكتشفت أنه لو اقترح على الفلاحين أن يشتروا الأسمدة بعد الحصاد مباشرة، فإن الأمور تجري بشكل جيد جداً. فالفلاحون لم يعتادوا على شراء الأسمدة عندما يكون بمقدورهم مالياً، فكانوا يرجئون ذلك إلى وقت لاحق حيث يكونون قد صرفوا الكثير من المال ولم يعد بمقدورهم شراء السماد! فالاقتراح بشراء السماد على الفور بعد الحصاد كانت نتيجته حلاً لهذا التصرف «اللامنطقي الوقتي». لقد طوَّرت إيستر دوفلو Esther Duflo أنموذجاً من العقلانية المحدودة جعلت الأفراد يتقبلون عدم هدر المال بعد الحصاد كي يتمكنوا من الحصول على السماد من أجل العام المقبل.

أما مساهمة هذه الأعمال التجريبية في تجديد اقتصاد التنمية: فيمكننا القول إن هناك ثلاثة أطوار في اقتصاد التنمية خلال العقود الثلاثة الأخيرة. المجموعة الأولى من النماذج كانت قد برزت ضد فكرة أن فلاحي العالم الثالث هم غير عقلانيين: هذه النماذج كانت تبرز عملاء «عقلانيين لكن ضعفاء» أي أنهم قادرون على اتخاذ أفضل القرارات رغم الثروات المحدودة. والموجة الثانية من النماذج استندت إلى أعمال جوزف ستيغليتس Joseph Stiglitz لبرهنة أن الفلاحين حتى لو كانوا عقلانيين، فإن فرصهم أقل من غيرهم بسبب مسائل المعلومات. العديد من الأعمال التجريبية حددت فائدة هذه الفرضية، واكتشفت مكامن الضعف: كما أعطت هذه الدراسات مجالاً لنشوء جيل جديد من النماذج. فوفقها، يستتبع الفقر ليس فقط معوقات نوعية (عدم الحصول على قروض، على سبيل المثال) لكنه يؤدي أيضاً الأسلوب الذي تتخذ به القرارات. الجميع يعاني من ضعف وقتي، لكن ذلك له نتائج وعواقب أكثر شدة ضمن سياق ظروف تكون الثروة فيها محدودة. خلال السنوات الثلاث الماضية حاولت نماذج عديدة إيضاح مسألة اتخاذ القرار في الفقر، مستندة إلى الأعمال التجريبية المتراكمة.

جدد باحثون آخرون الطريقة من دون أن يحددوا العلاقات السببية المستجدة. كما في حال توماس فيليبون[28] Thomas Philippon: ففي كتابه «رأسمالية الورثة» يبرز العلاقة بين معدل العمل الضعيف في فرنسا وبين الإشارات السيئة عن الرضا في العمل المسجلة في باقي البلدان الأوروبية، وهي معطيات توضح هيمنة رأسمالية عائلية تجمع إلى تقاسم القرارات. وفي سجل مماثل، قدم يان الغان Yann Algan وبيير كاووك Pierre Cahuc تفسيراً للـ«حذر» السائد في

فرنسا إن تجاه المؤسسات السياسية أم بين الشركاء الاجتماعيين، حذر قد يعيق إبرام الاتفاقات المتبادلة المفيدة وضمان المسارات المهنية.[29] تكمن خصوصية هذا «الاقتصاد التجريبي الجديد» في أنه لا يعتمد على مقاربة وصفية للواقع. فهو يقيم علاقات سببية بين المتغيرات التي يتم فحصها، فيوفر نظرة متجددة للاقتصاديات المعاصرة. التي بتصورها تتجاوز غالباً كل توقعات النظرية.

المحرمات، حدود جديدة للاقتصاد[30]

يوجد محرمات حقيقية في الحياة الاقتصادية. ففي زمننا الراهن أصبح هناك أسئلة يتحتم علينا طرحها، فعلى سبيل المثال لا الحصر: هل ينبغي علينا إنشاء سوق للأعضاء البشرية؟ أليس من العبث بمكان أن يموت الناس بسبب شح في الأعضاء؟ ألا ننقذ العديد من الأحياء عندما نقبل أن ندفع ثمن الأعضاء؟ عندما كان الاقتصاديون يدافعون عن مثل هذه الأفكار والاقتراحات كانوا يعتبرون أشخاصاً لا أخلاقيين.

كنت منذ خمسة عشر عاماً أدافع عن فكرة حقوق التلوث بأنها أخلاقية وبيئية في آن معاً. وكان الجواب أنه أمر لا أخلاقي أن يدفع الإنسان مالاً كي يلوث البيئة!.. لكن هذه الفكرة أصبحت اليوم من ضمن التقاليد والعادات. وقد اقترح أوليفييه بلانشار Olivier Blanchard أيضاً تطبيق مبدأ «يلوث- يدفع الثمن»، ومبدأ التعويض عند التسريح: أي إن الشركات تدفع ضريبة للدولة عندما تسرح موظفاً أو عاملاً. الأمر الذي يجعلها تتحمل المسؤولية. المحرمات مفيدة طالما أنها تؤشر إلى المسائل الحساسة. لكنها ذات ثمن اجتماعي كبير. وبعض الإصلاحات الاقتصادية قد تحسن الحالة العامة لكنها تصطدم بحواجز نفسية.

إلى متى ستستمر تجارة الأعضاء البشرية؟[31]

فإذا كانت عملية زرع الكلية قد أصبحت عملية روتينية، فهناك اليوم نقص كبير في الأعضاء. يقترح غاري بيكر Gary Becker الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، أن يدفع للمانحين المال المناسب لتنشيط عملية عرض الكلى. أثار هذا الاقتراح جدلاً حاداً في الولايات المتحدة الأمريكية.

بفضل تقدم الطب، أصبح هناك عدد كبير من المرضى مؤهلين لزرع الكلية. لكن مع الأسف، لا يقابل ذلك عرض كاف من الكلى. كما أنه ليس هناك من ازدياد في عدد الجثث بعد حالة الموت الدماغي والحاصلة بالسرعة المطلوبة! إضافة إلى أن العائلات لا تسمح دوماً باستئصال أعضاء أمواتها. يبقى هناك إمكانية اللجوء إلى مانح حي، ومن ضمن الإطار العائلي، لكن مع الأسف، لا يملك جميع المرضى فرصة الاعتماد على قريب كريم -وكليته ملائمة لهم. ففي الولايات المتحدة، بينما تم إجراء ١٣٧٠٠ عملية زرع كلية عام ٢٠٠٥م، ظل ٦٥٠٠٠ شخص ينتظرون دورهم في بداية[32] عام ٢٠٠٦م. ويقدَّر عدد المرضى الأمريكيين الذين يموتون سنوياً بسبب عدم توافر كلى في الوقت المناسب بـ٣٥٠٠ شخص.

انكب بعض الاقتصاديين لدراسة هذه المسألة الشائكة، ومنهم غاري بيكر Gary Becker

الحائـز على جائزة نوبل الشهـيرة، وبقدر ما هي ملتبسة ظلت موضع جدل كبير. فبالنسبة إلى هذا الوجـه البارز في مدرسة شيكاغـو، لا يوجد عدم تـوازن بين العرض والطلب إلا ويكـون بالإمكان امتصاصـه إن تم رفـع السعر قليـلاً. فهو يقترح أن يتم الدفع للمتبرعـين مانحي أعضائهم بشكل متـوازن ورصين. فالمكافـأة إن كانت تعوض قليلاً عن المخاطر التي يتعرض لها المانح وعن الدخل الضائع جـراء الجراحة والشفاء، فهي ربما تكفي دومـاً لإقناع عدد كاف مـن المانحين. فوفق بيكر والياس Becker et Julio Jorge Elías، اللذين يقـدران سعر الكلية بـ ١٥٢٠٠ دولار، فإن مثل هذا التعويض المالي قد يزيد عملياً عدد الزرع.

قد يبدو اقـتراح بيكر والياس صادماً، لكنه مهمـا كان فهـو يخضـع لتقليد متـين في الفكر الاقتصـادي. فمنذ عـام ١٧٧٦م كان آدم سميث Adam Smith قـد لاحـظ في كتابـه «ثـروة الأمم Richesse des nations»، أنـه مـن أجل اكتساب خدمات الجزار، أفضل طريقة هي التماس مصلحته أكثر من إيثاريته. ففي المنطق الليبيرالي، تكمـن قوة السوق بقسمهـا الأكبر في قدرتها على تحريض أعضاء المجتمع لسـد حاجات الأعضاء الآخريـن، من دون اللجـوء إلى الفضيلة. ويستمر الليبيراليون المعاصـرون بتطبيق هذا المخطط في ميادين جديدة. قبـل نظرية تجارة الأعضاء التي قدمهـا بيكر، اقترح آخـرون بالسمـاح للشركات بدفـع مبلـغ للحصول علـى حق التلـوث أو حق تسريح العمال بحرية تامة، والفكرة بحد ذاتها هي الحصـول على أفضل النتائـج الجماعية بإدخال التحريض والدوافع الجيدة.

الحدود الأخلاقية للسوق: غير أنه ليس مفاجئاً أن يقابَـل اقتراح بيكر والياس برفض حاد. ذلك لأن فكرة التفاوض على أعضاء من جسد الإنسان وكأنهـا سلعة للبيع هي فكرة مدانـة وينظر إليها على أنها فكرة غارقة في اللاأخلاقية وينفر الناس منها.[٢٣] في معظـم البلدان، ليس مسموحاً بالزرع إلا إذا كان العضو مقدّماً كهبة؛ هناك بعض الدول سمحـت ببيع الأعضاء بين أعوام ١٩٨٠ و١٩٩٠م، كما أن هناك دولاً تسمح بذلك في الوقت الراهن. لقد تشكل نظام الزرع الحالي نتيجة لتحريك حجة الإيثارية، ولا تزال هـذه الفلسفة مستمرة بالتأثير على المهنيين كما على الجمهور الواسع.

إن حالـة زرع الأعضاء تذكرنا بـأن الأسواق محـدودة بحـدود أخلاقيـة. هنـاك العديد من المعامـلات والتسويات تكون ممنوعـة لأنها تعتبر منافية للعقل، مثل عمل الأطفال، واستهلاك بعض اللحوم مثل (لحم الكلب والحصان)، والدعارة. غير أن حدود السوق الأخلاقية ليست ثابتة ومستقرة. وفي الجدل حول تجارة الأعضاء، أظهرت الدراسة الكلاسيكيـة في علـم الاجتماع لـ فيفيانا زيليزر Viviana Zelizer أن التأمـين علـى الحياة في بدايته اصطدم بمعارضات مماثلة للتي قامت ضد تجارة الأعضاء: التأمين علـى الحياة، هذا معناه إضفاء سعر على الحيـاة الإنسانية. لكن المؤمّنين ربحـوا المعركـة في النهاية وعقـود التأمين على الحياة جددت الطقوس المرافقة للموت.[٢٤]

غير أن معارضة سوق الأعضاء لا تستند فقط إلى لا أخلاقيـة مثل هذه الأعمـال. فعند دراسة أنظمة نقل الدم، يشير بعض الباحثين إلى أن وجود تعويض مالي قد يعيق التبرع بالدم المبني على أساس إيثـاري. كما أن هناك العديد مـن الذين يؤكدون على «القهـر» الذي يجبر الأفراد الأكثر فقراً على بيع أعضائهم. ووفق قـول فرانسيس فورد كوبولا Francis Ford Coppola إن عمليـة تقـديم ١٥٢٠٠ دولار إلى شخصـ معـوز في نيويـورك أو المعـادل لهذا المبلغ بأي عملـة لمتسول في العالم مقابـل كلية من كليتيه، يكون ذلك وكأنك «تقدم له عرضــاً لن يستطيع رفضــه». ويخشى بعضهم أن تؤدي شرعنة بيع الأعضاء بالمجتمعات إلى الانزلاق فوق منحــدر خطر: لماذا لن يصبح شراء الأعضاء حجة لكسب تعويض ما أو للحصول على قرض أو إعانات طبية باهظة الثمــن؟ هذه الآفاق المظلمة ينبغي على الأقل أن تثير الحذر والتيقظ.

الهوامش

١- الإنسان الاقتصـادي الجديـد l'Homo œconomicus: المصدر، العلوم الإنسانيـة sciences humaines- دراسـات أعدهـا أشيل وينـبرغ Achille Weinberg ونيكـولا جورنـة Nicolas Journet وكزافييه دو لافيغا Xavier de La Vega.

٢- اقتصاد الحياة اليومية:

every day life economics.

٣- كتاب فريكونوميكس، مؤلفه: وليام مورو

(William Morrow, 2005).

٤- ستيفن ليفيت Steven D. Levitt وهو أستاذ يافع ولامع في جامعة شيكاغو والصحافي ستيفن دوبنر

Stephen J. Dubner.

٥ - روبـرت فرانـكRobert H. Franck، المذهـب الطبيعـي الاقتصـاديThe Economic Naturalist»: في البحـث عن تفاسـير للألغاز اليومية، الكتب الأساسية، 2008م؛ تيم هارفـورد Tim Harford «منطق الحياةThe Logic of Life»: الاقتصـاد العقلاني لعالم ليس عقلانياً، Random House, 2008؛ ريشار تالر Richard H. Thaler وكاسـ سانستاينCass R. Sunstein، تنشيط الذاكـرة Nudge: تحسين القرارات بشأن الصحة والثروة والسعادة، صحافة جامعة يال 2008م. Improving decisions about health, wealth, and happiness. Yale University Press, 2008؛ دان آريلـي، هـل صحيـح أنا مـن يقرِّر؟، فلاماريـون Dan Ariely, C'est (vraiment?) moi qui décide, Flammarion, 2008؛ أليكسندر دوليغ AlexandreDelaigue وستيفان مينيا StéphaneMénia، جنس ومخدرات.. واقتصاد. ليس هناك من موضوع محرَّم على الاقتصاديين! بيرسن؛ Alexandre Delaigue et Stéphane Ménia, Sexe, drogue… et économie. Pas de sujet tabou pour les économistes!, Pearson, 2008.

٦- نظرية الاختيار العقلاني:

la théorie du choix rationnel (TCR).

٧- الاقتصاد الإفرادي microéconomie: فرع من علم الاقتصاد يعنى بتصرف الأفراد عند التحولات الاقتصادية.

٨- غـاري بيكـر Gary Becker. هو أبو الاقتصاد الإفـرادي الجديد والحائز على جائزة نوبـل ١٩٩٢م. أدخل اليوم الاقتصاد في مجالات التبرع بالأعضاء.

٩- صحافة جامعة هارفرد

Harvard University Press, 1981.

١٠-ت. هارفورد، شاب إنكليزي اختصاصي في الاقتصاد مؤلف كتاب: «منطق الحياة The Logic of Life».

11- l'économiecomportementale (EC).

١٢-دانييل كانمانDaniel Kahneman، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠٢م.

١٣-انظر جان - فرانسوا دورتييه، «سايكولوجية الأزمات المالية»، العلوم الإنسانية، رقم ١٩٩، كانون الأول ٢٠٠٨م.

Voir Jean- François Dortier, «La psychologie des crises financières», Sciences Humaines, n° 199, décembre 2008.

١٤-دان آريلي، هل صحيح أنني أنا الذي يقرِّر؟ فلاماريون

Dan Ariely, C'est (vraiment?) moi qui décide, Flammarion, 2008.

١٥-الإرجائية: نزعة إلى تأجيل كل شيء إلى اليوم التالي.

١٦-آدم سميثAdam Smith وهو أحد الآباء المؤسسين لنظرية السوق.

١٧-غراهـام لومـز وروبـرت سوغدن، «نظريـة الندم، مقاربـة بديلة للاختيار العقـلاني في ظل شيء مجهـول» المجلة الاقتصادية.

Graham Loomes et Robert Sugden, «Regret theory. An alternative approach to rational choice under uncertainty», Economic Journal, vol. XCII, n° 4, décembre 1982.

١٨-جان ديسيتي ووليام أيكز، علم الأعصاب الاجتماعي في معرفة الغير

Jean Decety et William Ickes, The Social Neuroscience of Empathy, MIT Press, 2009.

١٩-بول زاك وأنجلا ستانتون وشيلا أحمدي

Paul Zak, Angela Stanton et Sheila Ahmadi, 2007

٢٠-فيليب لامبير، «أوسيتوسين: هورمون إيثاري مليء بالوعود؟» العلوم الإنسانية رقم ٢٢٤، آذار ٢٠١١م

Philippe Lambert, «Ocytocine: une hormone altruistepleine de promesses? », Sciences Humaines, n° 224, mars 2011.

٢١-نيكولا جورنة Nicolas Journet.

٢٢-جوزف هنريش وآل.، «في البحث عن الإنسان الاقتصادي: تجارب سلوكية في ١٥ مجتمع - مجلة الاقتصاد الأمريكي

Joseph Henrich et al., «In search of Homo economicus: Behavioral experiments in 15 small-scale societies», American Economic Review, vol. XCI, n° 2, mai 2001.

٢٣-نظرية الاختيار العقلاني la théorie du choixrationnel TCR - La TCR.

٢٤-الاقتصاد السلوكي: l'économie comportementale EC.

٢٥-كزافييه دو لافيغاXavier de La Vega.

٢٦- توماس بيكيتي وإيمانويل سيز، «اللامساواة في الدخل في الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩١٣- ١٩٩٨م»، المجلة الفصلية للاقتصاد،

Thomas Piketty et Emmanuel Saez, «Income inequality in the United States, 19131998-», Quarterly Journal of Economics, vol. CXVIII, n° 1, février 2003.

٢٧- إيستير دوفلو Esther Duflo. طالبة في دار المعلمات، حصلت على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من معهد ماساشوست للتكنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية Massachusetts Institute of Technology. حيث تعمل اليوم كباحثة اختصاصية في اقتصاد التنمية. جمع هذه المعلومات وأعدها كزافييه دو لا فيغا في مجلة العلوم الإنسانية Propos recueillis par Xavier de La Vega.

٢٨- أستاذ في مدرسة ستيرن للأعمال في نيويورك Stern School of Business de New York.

٢٩- يان ألغان وبيير كاووك، المجتمع الحذر، كيف يحطم النموذج الفرنسي نفسه،

Yann Algan et Pierre Cahuc, La Société de défiance. Comment le modèle social français s'autodétruit, Rue d'Ulm, 2007.

٣٠- جان تيرول Jean Tirole – العلوم الإنسانية

Sciences Humaines, n° 189, janvier 2008.

٣١- كزافييه دو لا فيغاXavier de La Vega.

٣٢- غاري بيكر وجوليو جورج إلياس، «إدخال الدوافع والتعويضات في سوق التبرع بالأعضاء سواء أكانت مأخوذة من الحي أم من الميت. مجلة الآفاق الاقتصادية جزء ٢١، رقم٣

Gary Becker et Julio Jorge Elías, «Introducing incentives in the market for live- and cadaveric organ donations», Journal of Economic Perspectives, vol. XXI, n° 3, été 2007.

٣٣- ألفان. روث، مجلة الآفاق الاقتصادية، جزء٢١، رقم٣

Alvin E. Roth, «Repugnance as a constraint on markets», Journal of Economic Perspectives, vol. XXI, n° 3, été 2007.

٣٤- فيفيانا زيليزر، «القيم الإنسانية والسوق: حالة التأمين على الحياة والموت في القرن التاسع عشر في أمريكا». مجلة علم الاجتماع الأمريكية،

Viviana A. Zelizer, «Human values and the market: The case of life-insurance and death in 19th-century America», The American Journal of Sociology, vol. LXXXIV, n° 3, November 1978.

المستشرقون، مالهم وما عليهم

د. محمد يحيى خراط ✻

تتضاربُ الآراءُ كثيراً عند الحديثِ عنِ المستشرقينَ ما بينَ مادحٍ وما بينَ ذامٍ. وإنَّ التفاوتَ والتبايـنَ في تقييمِ المستشرقينَ وأعمالِهم يرجعُ إلى كثرةِ عـددِ المستشرقينَ وتعددِ أوطانِهم، وتعـددِ اتجاهاتهـم وأهدافِهم. فمنهم مَنْ كانَ يعملُ حباً بالعلـمِ معتمداً برزقهِ على مصدرٍ خاصٍ بـه، ومنهم منْ كانَ يعملُ تابعاً لحكومتِه، يعملُ بتوجيهاتهـا أحياناً، أو برؤيتِه العلميةِ أحيـاناً أخرى.

وإنَّ وجـودَ عددٍ كبيرٍ من المستشرقـين في دولٍ ذاتِ تاريخٍ استعماريٍ.. قد عززَ فكرةَ أن المستشرقـينَ لا يعملـون حباً بالعلمِ وفي دراسةِ تراثِ الأممِ لنشـرهِ والتعريفِ به، وإنَّما كانوا يعملونَ لأهدافٍ سياسيةٍ أو عسكريةٍ أو فكريةٍ خاصةٍ بدولهم.

✻ باحث في التراث العربي ووزير دولة سابق.

وعلى كل حالٍ إذا ما دققنا في أعمالِ معظمِ المستشرقين نجدُ أن صفاتٍ مشتركة تجمعُ بينهم منْ أهمها:

المنهج العلمي:

لقد أُسّس للمنهج العلمي واتبعهُ عددٌ من مفكري الغربِ أمثالِ مونتسيكو وديكارت وغيرهما... وهذا المنهجُ يقومُ أساساً على الإحاطةِ والموازنةِ والترتيبِ للوصولِ إلى الحقيقة. ولقد التزمَ علماءُ الغربِ بهذا الاتجاه التزاماً تاماً، وطبّقهُ المستشرقون في دراسةِ وتحقيقِ علومِ وآدابِ وفنونِ الأممِ الأخرى.

وبادئ ذي بدءٍ قامَ المستشرقونَ بدراسةِ اللغاتِ الشرقيةِ ساميةً كانت أو آريةً، فدرسوا اللغاتِ الكلدانيةَ والآشوريةَ والسريانيةَ والعبريةَ والحبشيةَ والأرمنيةَ والفارسيةَ والتركيةَ وسائرَ لغاتِ الشرقِ وصنّفوا في قواعدِ كلٍ منها وفقهها ومعاجمها ولهجاتها وتاريخها. وقارنوا بينَها وحددوا صلاتها باللغاتِ الأخرى واللغاتِ الآرامية. وحلّوا لغزَ الكتابةِ الهيروغليفيةِ والمسماريةِ والفينيقيةِ والنبطيةِ الجنوبيةِ وغيرها فأدى ذلك إلى اكتشافاتٍ أضاءت وجهَ التاريخ، والأدلةُ على ذلك كثيرةٌ. كذلك فقد حققَ المستشرقونَ التراثَ الإنسانيَ في مجالاتهِ كافة.. في لغاتهِ وأديانهِ وفنونهِ وآدابه وعلومه. فدرسوا تفاعلَهُ وتأثرهُ وتأثيرهُ وتطورهُ من بداياتهِ حتى عصرنا.

ففي مجالِ الفلسفة درسوا الفلسفةَ ذاتَ الأصولِ اليونانيةِ والسريانيةِ والعربيةِ والعبرية واللاتينيةِ وسائرِ اللغاتِ الغربية. كما درسوا علمَ الكلامِ لدى جميعِ الأممِ على مرِ العصورِ. وقارنوا الفقهَ الإسلاميَّ بالقوانينِ الدينيةِ والمدنيةِ العالمية. وأرّخوا للحروبِ الصليبية نقلاً عن المؤرخينِ العربِ والأرمنِ واللاتين.. كما كتبوا عن انتقالِ الفكرِ اليوناني إلى العربِ وما أضافهُ العربُ في المجالاتِ العلمية إليه، وأثرِ الفلسفة الإسلاميةِ في التفكيرِ الأوروبي، ومساهمةِ الثقافة العربيةِ في التراثِ العالمي.

والذي يميزُ أكثرَ المستشرقينَ أنَّ الواحدَ منهم يتخصصُ بلغةٍ أو دينٍ أو علمٍ أو أدبٍ أو فنٍ. فهذا باللغةِ العربيةِ وفقهها وبلاغتها، وذاك بالتشريعِ الإسلامي ونشأته وتطوره، وثالثٌ بالجغرافيا أو التاريخ. وسواهُ بالموسيقا العربيةِ ومصادرها وآلاتها ومصنفاتها، وغيرهُ بالنباتات أو الحيواناتِ المذكورةِ في المؤلفاتِ العربية..

جَلَدُ المستشرقين ومثابرتُهم:

يتميزُ المستشرقون بجَلَدِهم على العملِ، فلربما يقضي أحدُهم عمرهُ في تحقيقِ مخطوطٍ أو تصنيفِ كتابٍ فـ «إدموند كاستل» أمضى ثماني عشرةَ سنةً في وضعِ معجم اللغاتِ السامية، و«فلوجيل» أمضى في جمعِ مخطوطاتِ كتابِ الفهرست لابن النديم من مكتباتِ فيينا وباريس ولندن خمساً وعشرين سنةً وسلخ «دي مينار» و«دي كورتاي» عشرَ سنواتٍ في تحقيقِ وترجمةِ مروج الذهبِ للمسعودي.

دوافع المستشرقين:

لم يكن الدافعُ للمستشرقين واحداً، بل كانت هناك دوافع مختلفةٌ، وإن غلبَ عليها الطابعُ العلميُّ، ولذلك لا يمكنُ أن يكونَ التقييمُ واحداً.

١- فأساتذةُ اللغاتِ الشرقيةِ في العصرِ الوسيطِ وتراجمتُه عملوا لقاءَ أجرٍ. وعلماءُ الجدلِ والموسرون نالوا جزاءَهم بإرساءِ النهضةِ الأوروبيةِ على التراثِ العربيِّ، وبتفسيرهم وبترجمتهم للكتبِ المكتوبة باللغاتِ الشرقية، التي مثلت الثقافةَ الوسطى بين اليونانية القديمة واللاتينية الحديثة.

٢- ولما أرادتْ معظمُ دولِ الغربِ عقدَ الصلاتِ السياسيةِ بدولِ الشرقِ والاعترافَ من تراثه والانتفاعِ به والتزاحمِ على استعماره أحسنتْ كلُّ دولةٍ إلى مستشرقيها، فضمَّهم ملوكها إلى حاشيتهم أمناءَ سرٍّ وتراجمةً، وانتدبوهم للعملِ في سلكي الجيشِ والدبلوماسية إلى بلدانِ الشرق، وولوهم كراسيَّ اللغاتِ الشرقية في كبرى الجامعاتِ والمدارسِ الخاصة والمكتباتِ والمطابع الوطنية، وأجزلوا لهم العطاءَ ومنحوهم ألقابَ الشرفِ وعضويةَ المجامعِ العلمية.

٣- ومن المستشرقين مَنْ هوى الاستشراقَ واتخذه مهنةً كأي مهنةٍ أخرى، فعملوا في المعاهدِ والمكتباتِ والمتاحفِ والمطابعِ ودورِ النشر وتحريرِ المجلاتِ التي تُعنى بالاستشراق، إلاّ ذوي اليسارِ منهم، فحققوا وترجموا وصنفوا في تراثنا الذي أضحى جزءاً هاماً من تاريخ العلومِ والآدابِ والفنونِ العالمية، لا مطمعَ لدولهم فيه، ولا إقبالَ لمواطنيهم عليه بعد ثورةِ المعلومات وما استُحدثَ من فنونٍ وعلومٍ، فلا ثراءَ للمهنةِ ولا أملَ لصاحبها في ثراءٍ.

٤- ومن المستشرقين من تسللَ إلى مجامعِ اللغةِ العربيةِ في حين كان عملُه الأساسيُّ في خدمةِ المؤسساتِ الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب، واتَّجه إلى غرسِ مبادئ التربيةِ الغربية في نفوسِ المسلمين حتى يشبُّوا «مستغربين».

٥- وهناك مَنْ حدَّد أهدافَ المستشرقين بالتبشيرِ فادّعى بأنَّ طليعةَ هؤلاءِ المستشرقين كانتْ مستشرقين مبشرين، أخذوا يستخدمون الإسلامَ في الطعنِ عليه، ويختارونَ الأشياءَ التي تثيرُ الأوروبيين على المسلمين.

٦- ومن بعدهم جاءَ المستشرقون غيرُ المبشرين، ولكنهم سلكوا مسلكهم واحتذوا حَذْوَهم، ولم يسلكوا مسلكَ البحثِ النزيه المجرد، بل كانوا يضعون الاتهامَ أولاً ثم يبحثونَ عن الأدلةِ التي تقوّي هذا الاتهام، ما عدا القليل منهم.

٧- ومن المستشرقين من اتُهم بالتبشيرِ والاستعمار معاً: حيث كانت الحروبُ الصليبيةُ منبعاً مهماً من منابعِ الاستشراق. أطلعت الغربيين على مواطن في دينهم بعدَ المقارنة بينَ الإسلامِ وبينَه تحتاجُ إلى مراجعةٍ أو تعديلٍ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة الإصلاح الدينيّ... فاستدعت المراجعةُ نوعاً من الدراساتِ العبرية. ثم انتقلوا إلى الدراساتِ العربيةِ الإسلامية، ثم كانت هناك الرغبةُ في التبشيرِ بالمسيحية في الشرق، فاستلزمَ هذا دراسةَ اللغةِ العربيةِ على أيدي المستشرقين،

ومِنْ هنا تلاقَتْ وجهةُ الاستعمارِ ووجهةُ التبشيرِ ووجهةُ الاستشراقِ.

٨- وبهذا تكونُ الحـروبُ الصليبيةُ قد أدت إلى ازديـادِ روحِ التعصبِ الدينيِّ، وانعكست هذه الـروحُ علـى الاستشراقِ فـكانَ ثمـرةً للحروبِ الصليبيةِ، وقد أُحسِنَ تنظيمُ هذهِ الثمرةِ، فكانت أشبهَ بحركةِ مقاومةٍ علميةٍ للإسلامِ.. عن طريقِ الهدْمِ المعنويِّ في حركـةٍ ظاهرُها العلمُ والبحثُ وباطنُها المكرُ والخبثُ.

٩- وهناكَ مـن جعلَ أهـدافَ المستشرقينَ موزعةً بين التبشيرِ والسياسةِ:

١٠- حيـثُ نظرتْ أوروبة إلى هذهِ الحضارةِ -الحضـارةِ العربيـةِ الإسلاميةِ- نظـرةَ إكبارٍ وتقديرٍ، ولكن الرهبـانَ أخذوا يحاربونها بدافعٍ تعصبيٍّ.. فبـدأ جماعةٌ من الرهبـانِ يدرسونَ الثقافةَ الإسلاميةَ، رائدُهم في ذلك تتبعُ العوراتِ وتلمسُ السيئاتِ، إضافةً إلى أنَّ هذه الدراسةَ كانـت تدفعُ بهم إلى الرقيِّ في مجـالِ الرهبنةِ.. وتعاونَـت الكنيسةُ وملوكُ أوروبـةَ على شدِّ أزرِ المستشرقينَ والتمكينِ لهـم في مهمتهم فنصفُها الأولُ سياسيٌّ ونصفها الآخرُ تبشيريٌّ تعصبيٌّ.

١١- يُنسَـبُ إلى بعضِ المستشرقين نوازعُ ثأرٍ قـديمٍ بين الشرقِ وأوربةَ والذي بلغَ ذروتَهُ في القرنينِ الحادي عشـرَ والثاني عشرَ الميلاديين.. لقد رأى المستشرقونَ آثارَنا ونقوشَنا ومخطوطاتِ تراثِنا، فنقلوا إلى بلادهم ما استطاعوا أن ينالوهُ منهـا إما بالسرقـةِ أو بالشـراءِ أو بالاستهداءِ.. فبدأوا بدراسةِ الدينِ الإسلاميِّ ثم أهوى البعضُ عليه بمعاولِهِ ليشوهوهُ أو ليقتلعوهُ، وحفروا كذلك حولَ تاريخنا وأدبنا ولغتنا ..ونصَّبَ بعضهم نفسهُ لمخاصمةِ زملائـهِ دفاعاً عن العروبةِ والإسلامِ.. إمعاناً في التمويـهِ والتضليلِ.. فتراهم يضيعون كثـيراً من الوقتِ وينفقونَ كثيراً من المالِ في نشرِ بعضِ تراثنا القـديمِ.. فإذا نظرْتَ فيما ينشرون وجدتَ أكثرَه من مؤلفاتِ المتصوفين أو المشككينَ أو دعاةِ الفرقةِ بين المسلمين.

أخطاء المستشرقين وأخطاؤنا:

التمـسَ بعضُ علمائنـا العـذرَ لأغـلاطِ المستشرقينَ في التحقيقِ فقالوا:

«إنَّ الأسفارَ الأدبيةَ الأولى كانت تنسخُ نسخاً وكان سوقُ النساخِ رائجاً، دفعَ بعضهم إلى الصنعةِ التجاريـةِ، فوقعَ تحريفٌ كثيرٌ، وظهرت الكتاباتُ فما يستطيعُ المحققُ اليوم بعد طولِ عهدِ الكتابةِ أن يتميزَها، فاستعصتْ بعضُ الكلماتِ على بعضِ المستشرقينَ، وهذا وقـعَ في ذيلِ المعاجمِ العربيةِ لـ«دوزى»، منها: أتـانُ وصحيحُها آثـارٌ، مؤدى – مودة، الإبرسيـم – الإبريسيم، ألفُ مئةِ دينارٍ – مئةُ ألفِ دينارٍ. وقـد صححَها الشيخُ إبراهيم اليازجي».

وكذلك قابَلَتْهُم تلك الصعوبةُ في الشرحِ على الطريقةِ الكلاميةِ من دونِ معرفةِ القصدِ الذوقيِّ منها: كشرحِ «كاترمـير» الأحداثُ بالغوغاءِ. وفي ترجمةِ بعضِ النصوصِ، كجمعِ بعضهم لورد على لورديـن، بدلَ لوردات، لأنهـا جمعُ مذكرٍ عاقلٍ، وقد أجيـزَتْ من بعد. وترجمـةِ «كازيميرسكي»

قـول الله للملائكة «اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى» بـ«اعبدوا آدم!».

وقد صحح الأبُ أنستاس الكرملي الأغلاطَ اللغويةَ لـ«فراتيـاج» في معجمه العربي اللاتيني، وللدكتور «ليكلير» في مفردات ابن البيطار المترجم إلى الفرنسيـة، ولـ«كليمان هيار» في كتاب البدء، والتاريخ للمقدسي، ولـ«دي خويه» في كتاب فتوح البلدان للبلاذري.

وقـد ردّ المستشرقـونَ أنفسُهـم علـى هذه التصحيحـات والادعـاءات وكانَ لهـم فيهـا استـدراكاتٌ وتحقيقـاتٌ وإصابـاتٌ كتصحيح «بروكلمان» كتابَ عيونِ الأخبار للدينوري المطبوعَ في دارِ الكتب المصرية.

وقـد وقعنا في مثـل أخطائهم فيمـا نقلنا عنهم، وكتبنا في تراثنا على غرارِهم: فنقلنا جبلَ هرمون بدلَ حرمون، والنزاري عوض الناصري، وفي تاريخ الآداب العربية لبروكلمان: تحول الأب أنطون صالحاني اليسوعي إلى أحمدَ صالحاني، وملحـمُ الأسودُ إلى ملهم، والغزيريُّ إلى كاسبري، والسمعـانيُّ إلى اسماني، وهي كتـبٌ لنا منقولةٌ عنهم! أما مصنفاتنا بالعربيـةَ فلا تقلُّ تحريفاً فعلى سبيـلِ المثـال انقلب الدكتـور مندور إلى غندور.

ومـن كتّابنا من وضعَ الحـدَّ بينَ ما يستطيعُ المستشرقون النهوضَ به وما يعجزونَ عنه بقوله: «إنَّه من تحصيل الحاصلِ أن يقال إنَّ المستشرقينَ نشروا كثيراً من كتبِ العربِ المطويةِ، وأنهم وقفوا على طبعِها فأحسنوا إخراجَها وتبويبَها، ولكنهم في أصـلِ صناعتهم حفّـاظٌ مسجلون يغلبُ على الجلّـةِ منهم ضعفُ الملكة الأدبية، ومن كان منهم ألمانياً أو فرنسياً أو انجليزياً تسألُه عن أدباءِ قومه فلا تسمعُ منه رأياً يعولُ عليه، فليس من المعقولِ أن يعطيـك رأياً يعـولُ عليه في نقـدِ البحتري والمتنبـي والمعري لمجـردِ علمهِ باللغـةِ العربيةِ. وعلمهم بمعـاني الأدبِ والبلاغة في الغالبِ علمٌ معجميٌ يضعُ الكلمةَ أمامَ الكلمةِ، ولا ينفذُ منها إلى اللب. وقد أُسيء الظنُ بالمستشرقينَ القدماء لأن الاستشراقَ كان في نشأته الأولى مؤسساً على التبشيرِ، ولكنَّ المستشرقينَ اليوم منْ غيرِ المبشرينَ كثيرون».

فضائل الاستشراق

إنَّ للمستشرقينَ فضلاً على تراثنا لا يجحده إلا جاهـلٌ أو مكابر، إننا نديـنُ لهم بجمعِ ذلك التراث وصونه من الضيـاع.. وربَّ سائلٍ يسألُ: ماذا لو تركوا تراثنا لنـا؟ هل نحنُ أهلاً لجمعه وصونه؟ والجوابُ الأكيد هو: كلا... كنا في غفلة عنـه لا نكادُ نحـسُّ وجوده أو نعـرفُ قيمتَه أو نقـدرُ حاجتنا إليه!.. خـدامُ دورِ العبادةِ يبيعون نفائسَه بالكومِ لتجّار الحلوى والبقول.. ولم يقفْ جهـدُ المستشرقينَ في الجمعِ على مجرد الاقتناء، بـل فهرسوا ما جمعوا مـن تراثنا فهرسةً علميةً دقيقـةً.. ومن ثـم انتقلوا إلى نشـر ذلك التراث نشراً يعتمد علـى أدق منهج للتوثيق والتحقيق.. وصحونا من نومنا، فـإذا آلاف الذخائر العربية بين أيدينـا، محررة موثقة نلوذ بهـا في دراستنا العالية ونعدُ الرجوع إليها في أبحاثنا المتخصصة

مدعاة للفخر والمباهاة.. وبلغوا في دراساتهم للشرق والعربية والإسلام حداً مذهلاً من العمق والتخصص.. فبعض المستشرقين تخصص في شاعر من شعرائنا كـ«بلاشير» الذي تخصص في المتنبي وفنَّد آراء جميع نقاده، من إبراهيم اليازجي إلى شفيق جبري، وقد نَقَل كتابه إلى العربية الدكتور أحمد بدوي.

ومن يؤيد هذا الرأي ولو بعد حين فيحصي ٤٦٠٣ مخطوطة قديمة، يرجع بعضها إلى أكثر من ألف سنة معرضة للضياع بسبب السوس داخل مكتبة الإسكندرية. ففي هذه المكتبة ترقد آلاف المخطوطات النادرة التي لا مثيل لها في العالم كمخطوط قانون ابن سينا في الطب، وعلم الهيئة والفلك لابن الهيثم. والكثيرون من علماء العالم يحضرون للإسكندرية للاطلاع على مختلف فروع العلم من أصوله ولدراسته وكان آخرهم الدكتور «دافيد كنج» الأمريكي و«همفري دافيد» الأستاذ بجامعة بيل وكثيرون من المستشرقين الغربيين.

وفي المكتبة مخطوطات نادرة للقرآن الكريم يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام كُتب بعضها بماء الذهب على جلد الغزال، كما تضم المكتبة مخطوطات أخرى لكبار العلماء مثل البخاري والزمخشري وابن سينا والفارابي، ومخطوطات تبحث في ثلاثة وستين فرعاً من فروع العلم والدين والكيمياء والموسيقى والتنجيم والهندسة والطب.

ويقول عبد الفتاح نوار مدير مكتبة الإسكندرية: «إنَّ تلك المخطوطات معرضة للتلف لما أصابها من حشرة السوس التي انتشرت بصورة مفزعة، وتعرض ذلك التراث الذي لا يُعوَّض للضياع». ويتابع فيقول: «لقد حاولنا منذ ثلاث سنوات مقاومة السوس بطريقة التبخير. وكانت أعمال المقاومة تكلفنا القليل من ميزانيتنا الضئيلة، ولكن أسعار التبخير أخذت ترتفع حتى تجاوزت قدرات الميزانية. وتوقفت عمليات التبخير، وأصبحت مخطوطات المكتبة تحت رحمة السوس!»

ومن قلائل الجامعيين الذين أنصفوا المستشرقين من يقول: «إننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين، ولا يمكن أن ننكر تماماً فضلهم، ولا يجوز لنا أيضاً أن نستغني مطلقاً عن دراسات المستشرقين وأبحاثهم، بل من واجبنا الإطلاع على وجهات النظر الغربية في موضوعات تاريخنا العربي والإسلامي، وإن القارئ المثقف، والمطلع الفطن، أو الباحث المتخصص يستطيع أن يقيِّم أبحاث المستشرقين تقييماً صادقاً يمكنه أن يميز بين الغث والسمين، وبين وجوه الإنصاف والإجحاف»..

المثقفون العرب والمستشرقون:

إنَّ الدراسات التي يقوم بها المستشرقون الآن في جامعاتهم الأوروبية والأمريكية يقدمونها غالباً لمواطنيهم، ولم يعد العرب والشرقيون يهتمون بها كثيراً، فقد أغناهم العلماء والمفكرون العرب في العصر الحديث ببحوث قيمة تبز أحياناً أبحاث المستشرقين. وأصبحت الجامعات العربية تمنح

درجة الدكتوراة في مجالات الاستشراق.. ويمكننا أن نلاحظ أن الكتب الأجنبية التي تتناول دراسات عربية وإسلامية التي تصل إلينا في الوقت الحاضر لا تتصف غالباً بالعمق والدسامة، بل هي غالباً ما تكون سطحية كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم، لأنها لا تفيد العرب، ولا تسمن ولا تغني من جوع؛ ولذا فإننا نقول إن الاستشراق غدا محدوداً، وإن مجالاته انكمشت وأصبحت كفة الباحثين العرب هي الراجحة الآن، وأصبح العرب في غير حاجة إلى فكر مستورد وبات المستشرقون يجترون جهودهم السالفة، وانحصرت أبحاثهم الجديدة في دوائر محدودة.

ومن الدارسين العرب من يقول عن المستشرقين أن كلهم أو جُلّهم يقبلون على الدراسة طلباً للمعرفة الخالصة والعلم النزيه وما هذا إلا مبالغة، وهناك من يقول بأن الصلة بين الاستشراق والسياسة الاستعمارية واضحة تماماً وعكوف اليهود على الدراسة الإسلامية لا يمكن أن يكون كله خالصاً لوجه الله.

وهناك من يقول بأن الرهبان لو استهدفوا الجدل والتبشير فحسب لاكتفوا بتعلم العربية، وأهملوا ما عداها من اللغات التي قل أو انقرض المتكلمون بها كاليونانية القديمة والعبرية والسريانية والكلدانية، وما كلفوا أنفسهم إنشاء بواكير مكاتب الترجمة والمعاهد والمكتبات والمطابع والمجلات لحفظ التراث ونشر ذخائره والتصنيف فيه وترجمته إلى لغات العالم. حتى إذا استقروا في شمالي أفريقيا منذ القرن الثالث عشر، وفي الشرق الأوسط في مطلع القرن السابع عشر أنشأوا في عواصمه أولى المؤسسات على غرار ما في الغرب وأعادوا إلينا تراثنا الذي أخذوه عنا من الأندلس والبرتغال وصقلية وغيرها لإرساء نهضتهم الأوروبية عليه، ونحن بدورنا أرسينا عليه نهضتنا الحديثة، ثم لحق بهم الإرساليات البروتستانتية، والبعثات العلمانية وزاحمتهم في نشاطهم، من دون أن يفلح أي منها في منع نصراني من إشهار إسلامه، أو فتن مسلم عن دينه، وكان المبشر «كاتون ديل» أول وأدق من نقل القرآن الكريم إلى اللغة السواحلية، واتخذ الدكتور «ليندون هاريس» كبير المبشرين في القارة الأفريقية قول «صموئيل جونسون» قاعدة لتبشيره: وهي «إن المسيحية والإسلام في عالم العقيدة هما الديانتان الجديرتان بالعناية، وكل ما عداهما فهو باطل». ومن هنا وجدت اللغة العربية مؤئلاً لها في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين، ثم فيما علمونا إياه من علوم وآداب وفنون تعليمهم أبناء مللهم في أوطانهم وقد رجح العلمي على الديني رجحاناً كبيراً.

أوروبة والمستشرقون:

ولئن استجاب بعض الملوك والأمراء والوزراء إلى أتباع الفاتيكان فأعانوهم على مآربهم ببعض الوسائل فإنهم لم ينقادوا لهم تمام الانقياد، ولهم أغراض غير أغراضهم «فشارل مارتل»، و«لويس التاسع» صادرا أموال الكنيسة للإنفاق على

حروبها. و«روجيه» الأولُ أضافَ شارةَ محمدٍ إلى شارةِ المسيح في ضربِ نقوده، والحملاتِ الصليبية نفسها لم تكن جميعها خالصةً لوجهِ الدين، واتهم الفاتيكان «فردريك» الثاني ملكَ صقلية بالتواطؤ مــع المسلمين على المسيحيــة، وعندما تولى أمرَ الحملــة السادسة وما زال محرومــاً أشادَ شعراءُ الفرنجة بنجاحهـا وإخفاقِ حملــةِ الملك لويس القديــس، وتعــاونَ السلطانُ الغــوري والبنادقةُ الكاثوليك على البرتغالين الكاثوليك، وحرمَ البابا تجارَ البندقية وجنوى مــن التعاملِ مع المسلمين فلم يفلح، وخرجت بعضُ الجامعات التي أنشأها رجــالُ الدينِ على الكنيســة، فذهبَ من جامعة بولونيا القولُ المأثورُ: حيــثُ يجتمعُ ثلاثةُ أطباء يكونُ اثنان منهم كافرَيْن أي مُسلمَيْن! وأقرَّ لويسُ الحادي عشرَ ملــك فرنسا تدريس أرسطو بشرحِ ابن رشــدٍ في جامعــة باريس، علــى الرغم من تحريمِ الفاتيــكانِ إياها بقراراتٍ متواترة، وأنفذ كارلوســ ملكُ إسبانيا زعيمــاً تيرولياً على رأسِ فريــقٍ من المرتزقة فنهبوا روما، وهتكوا أعراضَ المحصنات، وأعملوا السيفَ في رقابِ الناس حتى المرضى واليتامى والمحتمينَ بالكنائس.

ثم جاءَ عهــدُ الإصلاح الدينيُّ الــذي قَسَّمَ أوروبــةَ إلى معسكريــنِ داميــين حيــث انفصلَ البروتستانــتُ عــن الفاتيكان، وتبــعَ ذلك عصرُ المفكرينَ الأحــرارِ والثــورة الفرنسية والمذاهبُ المستحدثة في العلومِ والفنونِ والآداب، وانفصالُ الدولة عن الدينِ وازدهارُ الأفكارِ العلمية الحرة. جميعُ ذلــك يدل دلالةً واضحةً علــى أن الغربَ لم يكــن أو لم يبــقَ على حالٍ واحدةٍ مــن التفكيرِ الديني والتعصــب له مقرونــاً بالاستعمارِ، وأن ملوكَهُ وأمراءَهُ ووزراءه وحكامَهُ استهدفوا التجارةَ والسياسةَ والفتحَ أكثرَ من أي شيءٍ آخر.

ويمكــنُ تصنيــفُ المستشرقــين العلمانيين الأوروبيين في الفئاتِ التالية:

١- فئة طلابِ الأساطيرِ والغرائبِ فانقرضت بانقراضِ العصورِ الأولى.

٢- وفئة من المرتزقة الذين وضعوا أقلامَهم في خدمةِ مصالح بلدانهم الاقتصاديةِ والسياسية والاستعمارية.

٣- وفئــة ثالثة من المتغطرسة الذين أعمتهم الضلالةُ عن الموضوعية المتفهمة وقد غلبَ على نظرتهم الاعتقادُ بــأن الإسلامَ دينٌ قليلُ الشأن، شأن «بدويل» و«بريدو» و«سيل» من القرن الثامنَ عشــر، وجميــعُ مصنفات هذه الفئــات لا قيمةَ علميــةً لها، ثم أضيفت إليهــا مؤلفاتُ الملحدين الذين ينالون من الإســلامِ نيلهم من النصرانية، لأن الأديــانَ في عرفهــم عقبةٌ تعترضــ الرقيَّ البشريَّ!

٤- وفئة رابعة تعرَّضت للإسلامِ من دون أن تقصدَ الطعــنَ به، وإنما دَرَسَتْــه دراستَها كتبها الدينيــةَ، فقد درجَ العلمــاءُ ومنهم الرهبانُ على نقدِ الكتــابِ المقدس مثــل «رايماروس» المتوفى ســنة ١٧٦٨م أستاذ اللغــات الشرقية في جامعةِ هامبــورغ الذي خلَّــفَ مخطوطاً في نقــدِ حياة المسيــحِ في ١٤٠٠ صفحة، نشــر «ليسنج» أجزاءً منه بعــدَ سنواتٍ، وهاجمَ المسيــحَ «بوبر» ١٨٤٠

و«رينان» ١٨٦٣ و«القسُّ لوازي» وغيرهم كثيرون، وليسَ أقلَّ منهم عدداً أولئك الذين تعرضوا للقديسين، فقد نقدَ «بور» رسائلَ القديس بولس نقداً عنيفاً مقذعاً. أما كيف كُتِبَتْ أسفارُ العهد القديم؟ ومتى وأين؟ فأسئلةٌ صُنِفَ للردِ عليها خمسونَ ألفَ مجلدٍ.

٥- وفئة خامسة أنصفت الإسلامَ وإن لم تَدِنْ به قولاً وعملاً وكتابة، فلم يُؤخذْ عليها هفوة على كل ما دبجته فيه، ومنها من ذهبَ إلى إخلاصه إلى اعتناقه من أمثال: بوركهارت، وكرنكوف، وزونستين، وشنيتسر، ودينه، وفولري، وميشو- بيللر، ومارمادوروك، وفيلي، وجرمانوس، والعديد من البولونيين. والأحدَ عشرَ ألمانياً الذين أشهروا إسلامَهم في برلين وتسموا بأسمائه، والذين أسلموا على يدِ الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومنهم: الدكتورة وارزولايان الألمانية، وقد تَسَمَّتْ بسامية الأزهرية، والأمريكيانِ خديجةُ دلتك، وليورس الذي تسمى بالشيخ محمدٌ الأزهري، والسويسريان: جميلةُ زوسترنغ وألبرت كادلر. والبريطانيون: المستشرق جونس والصحفي لويس هارد الذي أطلقَ على نفسه اسم رمسيس محمد يوسف، وإيفون إيفيت كوكا وقد تَسَمَّتْ بإيناس غلام قاسم. فهل عرفَ هؤلاء وغيرُهم الإسلامَ في ما كتبناه عنه أو في كتبِ المستشرقينَ الذين استهوتْهم فاعتنقوه؟؟

وهكذا نرى أن الذينَ وقفوا ضدَ الإسلامِ قلّةٌ لا تساوي الذين وقفوا ضدَ النصرانية، ولا تذكرُ بالنسبة إلى الذين أنصفوه، ولا تُحتسبُ بين مئاتِ المستشرقينَ الذين تبرأ معظمُهم منها، وفي ذلك يقول «ستورى»: «إنكم في البلادِ العربية تعتقدونَ أن المستشرقين متعصبون ضدَ الإسلام، وما أرى هذا الاعتقادَ صحيحاً من دون قيدٍ. إن هناك فريقاً تعصَّبَ بحكمِ صنعته التي يرتزقُ منها، ولكنَّ هذا الفريقَ معروفٌ عندنا كما هو معروف عندكم، وليسَ منَ الإنصافِ أن يشملَ الحكمُ جميعَ الباقينَ. إن الذين خدموا العربيةَ كثيرون وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكنُ لإنسان أن يكونَ منصفاً، وإن أخطأ باحثٌ منْ غيرِ قصدٍ فليس السبيلُ إلى تقويمه أن يُجَرَّحَ ويُقْذَفَ، ثم إنا نبحثُ لغاتٍ بعيدةً عنا، ونخوضُ في موضوعات في غاية الدقة مستعينينَ بالأساليب الحديثة، وكما أنه يشفعُ للطبيب الجرّاح إن أخفقَ في عمليةٍ جراحيةٍ حسنَ نيتهِ، كذلك يجب أن يشفعَ للباحثِ طيبَ طويته وحرصه على الوصولِ إلى النتائج من دون تعصبٍ».

خاتمة:

لقد كانَ للمستشرقين أثرٌ في أساليبَ وتحقيقِ تراثنا وترجمته ودراسته والتصنيف فيه، وتقييمه بالنسبةِ إلى التراثِ العالمي، وإنَّه من العبثِ أن نضربَ صفحاً عن بوادرِ النهضة العلمية والأدبية والفنيةِ العربيةِ الحديثةِ التي بزغَتْ في أفقِ العصرِ الحديثِ للنهضة العربية مستلهمةً بعضاً من أسلوبها وطريقتها منَ المستشرقينَ.

أما القولُ عن تراثنا بأنَّنا في أهلهِ وأصحابه ولا يجوزُ لنا بعدَ اليومِ أن نتخلى لسوانا منَ الأجانبِ الغرباءِ فقولٌ مردودٌ: لأنه يحرمُنا حقَّ

درس التراث الإنساني، ولأولئك الأجانب الغرباء نصيبٌ فيه ويسقطُ في الوقت نفسه عن تراثنا صفتَهُ الإنسانية في تأثرهِ بالثقافة العالمية وأثره فيها. ولولا جهودُ المستشرقين لما أحطْنا به أو اهتدينا إلى كلِّ عظمة أسلافنا وحققنا تواريخَ أُولى دولنا، ومادامَتْ ثقافتُنا عالميةً ومن سماء الشرقِ انبثقت الأديانُ الثلاثةُ المنَزّلةُ حقَّ لعلماء العالم تمحيصُها لمعرفةِ مصادرِ حضارتهم.

فهلْ قصدوا بهذه العملية الضخمة المنظمة خدمةَ العربِ والشرقِ والإسلامِ؟؟.. وما نشهدُهُ بينَ الفينة والفينة من التواءِ أساليبِهم في توجيهِ العباراتِ، واضطرابِ مناهجِهم في سوقِ الأخبارِ، واعتسافهم في تأويلها بغيةَ استخلاصِ نتائج خطرة سامة، هل تمسُّ دينَنا وتاريخَنا؟ الحقُّ يقال إنه لا يجوزُ لنا بعد اليوم أن نتخلى عَنْ تراثٍ غالٍ نحنُ أهلُهُ وأصحابُهُ لسوانا من الأجانبِ الغرباءِ الذين كثيراً ما تعوزُهم النزاهةُ والإخلاصُ بقدرِ ما يعوزُهم ذوق العربيةِ وإدراكُ أسرارِها في التعبيرِ والأداءِ.

المراجع

١- حتي، فيليب، جرجي إدوارد، جبور، جبرائيل، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤م.
٢- سعيد إدوار: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ١٩٨١م.
٣- سعيد، إدوار، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٦م.
٤- سعيد، إدوار، تغطية الإسلام، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٥م.
٥- سعيد، إدوار، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة وتحرير صبحي حديدي، دار الفارس للنشر. د. ت.
٦- العقيقي، نجيب: المستشرقون. ثلاثة أجزاء، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.
٧- غارودي، روجيه، نحو حرب دينية وجدل العصر، ترجمة صياح الجهيِّم، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٦٦م.
٨- فروخ، عمر ومصطفى، الخالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية - المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٨٢م.
٩- قباني، رنا، أساطير أوروبة عن الشرق، لفق تسد، ترجمة صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٣م.
١٠- مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية. جزءان. دار الفارابي بيروت ١٩٧٩م.
١١- الموسوي، محسن جاسم، الاستشراق في الفكر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
١٢- هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، «أثر الحضارة العربية في أوروبة» ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط٦ سنة ١٩٨١م .

مبدعــون
من ذوي الاحتياجات الخاصة

د. خير الدين عبد الرحمن ✽

كان إظهار الإشفاق والتعاطف -صادقاً تلقائياً أو نفاقاً مفتعلاً - مع المصابين بعجز دائم أو إعاقة جسدية هو السلوك السائد الذي لفت نظري منذ تفتح وعيي، وكثيراً ما كانت المبالغة في هذا التعاطف والإشفاق والرياء تذهب إلى مدى يصوّر الإعاقة رديفاً للفناء. هكذا تكرّس مفهوم بــات أقرب إلى عرف راسخ خلاصته أن المعاق، أياً كانت إعاقته، غير مؤهل للحياة الطبيعية أو للإنتاج أو حتى للمساءلة، وبالتالي فهو عالة على المجتمع، أو كائن يمثل صفراً إنتاجياً. هذا ما تربــى عليه أكثر أبناء جيلنا. لكن مقولــة « كل ذي عاهة جبار » المتصادمة مع هذه التربية قد شكلــت لغزاً صعب فهمه أو قبوله على بعضنا في طفولتنــا، إلى أن يتضح مع الأيام مدى خطأ معاملة ذوي الاحتياجات الخاصة على أنهم عجزة وعبء على المجتمع. كثيراً ما يكتشف المتمعن

✽ أستاذ الصحة النفسية- جامعة حلب.

الواعـي أن لكل إنسان شيء مـن إعاقة سافرة أو مستترة، جسديـة أو نفسيـة أو عصبية أو عقلية أو سلوكيـة، بمستوى أو بآخر. فكـم من المعاقين إعاقات ظاهرة جسدياً قد أظهروا إبداعاً وتفوقاً بزوا به من يعتبرون أنفسهـم سليمين! في الذاكرة مثلاً إحدى الحالات المبكرة هي الأخ الأكبر لزميل طفولة ودراسـة لي رأيته للمـرة الأولى حين كنت في العاشـرة من عمري فارتعـدت، إذ كان أحدب الظهـر، مقوس الساقين، ومقوس الكفين أيضاً، تدفع رقبته رأسه دائمـاً إلى الخلف، فلا يستطيع السـير والحركـة إلا بصعوبـة بالغـة وبمساعدة شخـص ما. أطلعني زميلـي -شقيق المعاق- على صورة لشقيقه جالساً فوق حلقة سلة تسديد الكرة المثبتة على أحد اللوحـين المربعين لعمودي ملعب كـرة السلة! لم تكـن تقنيات التلاعـب بالصور أو التحكم بها معروفة آنذاك، لذلك ذهبت بالتفسير إلى فرضيـة أن هناك من حمـل الفتى مستخدماً سلّمـاً ووضعه على تلك الحلقة المعدنية. عارضني زميـل الدراسة مؤكداً أن شقيقـه المعاق قد تسلق دون أي مساعدة إلى حيث أظهرته الصورة جالساً على نحو يصعب على معظم الناس الأصحاء فعله! كررت تشكيكي فتحداني قائلاً أنه سوف يقنع أخاه بتكرار التسلق في اليـوم التالي بحضوري. وهكذا كان، راح الفتـى يتسلق بثقـة وتصميم غير عابئ بإعاقتـه، فأثار ذهولي وذهول عـدد من العابرين لفت مشهد الفتـى أنظارهم فاعترفوا، واعترفت، بالعجز عن مجاراته!

من بين آلاف الحـالات العربية المعاصرة التي أتيحت لي فرصة الاطلاع عليها مثلاً حالة الكفيف حسن العنـداري الذي أنعم الله عليه بموهبة فذة هي صيانـة وتصليح الآلات الكاتبـة والعديد من الأجهزة الإلكترونية، وهو يقـوم بتعليم المكفوفين تصليح أعطال الآلات الكاتبة وصيانتها، علماً بأنه يبرع - إضافة إلى هذا - في تشغيل وصيانة مقاطع إلكترونية مثل ذاك الذي يتحكم بمقاسات وأحجام الـورق الذي يـراد تقطيعه، كمـا يستطيع صيانة وتشغيل أجهزة الكمبيوتر وتركيب أجهزة استقبال البـث الإلكـتروني (الديجيتـال). إن اعتماد مثل هذا الكفيف على البصيرة والذاكرة وحاسة اللمس قد عوضه عن نعمة البصـر في تخصصه بحرفة دقيقـة تستعصي علـى معظم المبصريـن (موقع شيوه نت الإلكتروني، منتديات ياهو مكتوب). ومن الحالات العديدة أيضاً ذوو أطراف علوية ضامرة يستخدمون أصابع أقدامهـم في الرسم أو العزف على آلات موسيقية أو استخدام الكمبيوتر أو سوى ذلك.

استوقفني يوماً حديث بالغ الدلالة لرسول الله محمد، صلـى الله عليه وسلم جـاء فيه: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم». فكانت لي رحلات فكرية متكررة الأوقـات ومتعددة الاتجاهـات لاستكناه مدلولات هذا الحديث وحكمته، فما دامت الإعاقة الجسدية هي بالتأكيـد ابتلاء إلهي للمصاب بها، اهتممـت بما يتجاوز التسليم بمحبة الله عز وجل للصابرين ممن ابتلاهم بإعاقة، وصولاً إلى بعض تجسيدات هذه المحبة من تفوق وإبداع في مجالات عديدة يتمنى الأصحاء مثلهما.

قرأنا وسمعنا عن هيلين كيلر Helen Adam Keller (١٨٨٠/٦/٢٧ - ١٩٦٨/٦/١) في وقت مبكر، واعتبرناها نموذجاً بارزاً لتحدي الإعاقة بقوة الإرادة والتصميم. فقد أصيبت تلك الكاتبة والناشطة السياسية الأمريكية بالتهاب السحايا عندما كانت في منتصف السنة الثانية من عمرها، وسرعان ما أفقدتها الإصابة أكثر حواسها وحولّتها إلى طفلة عمياء وصمّاء وخرساء! لم تتعاجز أمها المفجوعة أو تستسلم، بل استلهمت تجارب حالات مماثلة، مثل تجربة لور بردغمام التي استطاعت أن تتخرج في الجامعة بشهادة في اللغة الإنكليزية، على الرغم من إعاقتها، إذ كانت عمياء وصمّاء. وهكذا ساعدت الأم ابنتها هيلين في تعلم القراءة بطريقة برايل في مدرسة للمكفوفين، فأتقنت الإنكليزية والألمانية واللاتينية والفرنسية واليونانية،كما درست الجغرافيا وعلم النبات وعلوماً أخرى، وتابعت تحصيلها العلمي إلى أن نالت شهادة دكتوراه في العلوم، ثم شهادة دكتوراه في الفلسفة. وربما قرأ كثير منا عن هيلدكاتا مثلاً، الفتاة النروجية الصمّاء البكماء التي تعلمت النطق والكلام.لا يصح كذلك أن تفوتنا الحالة المدهشة للعالم البريطاني البروفيسور العبقري ستيفن هاوكنغ Stephen Hawking أستاذ كرسي الرياضيات، الكرسي نفسه الذي شغله من قبله العالم الشهير نيوتن، وهو الذي أقعده الشلل وعطّل معظم حواسه وقدرات جسده، فراح يتنقل على كرسي متحرك، لكنه تمكّن من استخدام بصيرته وذكائه في التوصل إلى اكتشافات وحقائق مبهرة غير مسبوقة. وقد أصدر هذا العالم العبقري المعاق كتباً علمية هامة منها: تاريخ موجز للزمن، وكتاب ثقوب سوداء.

قرأنا أيضاً عن حالة طفل اسمه جاسون أصيب بالعمى في شهوره الأولى. لم تمض سوى أسابيع قليلة حتى أصيب بالشلل أيضاً، وعجز الأطباء عن علاجه. كانت أم هذا الطفل تحب الموسيقى وتعزف على البيانو الذي صار سلواها التي خففت عنها ثقل مصيبتها بشلل طفلها وعماه. وقد اعتادت الأم أن تضع طفلها في حجرها أثناء عزفها، ولم تتذمر عندما كان يتحسس البيانو بأصابعه أثناء عزفها. وكانت مفاجأة مذهلة أنه ما إن بلغ جاسون الثانية من عمره حتى كان قادراً على الكلام والغناء والعزف! تحسن أداء الطفل الضرير المشلول شيئاً فشيئاً من غير أن يأخذ دروساً في الغناء والموسيقى. وما إن بلغ العاشرة من عمره حتى بات يعزف ويغني مثل أي مطرب وعازف كبير. وعندما بلغ سنته الثالثة عشرة راح يغني ويعزف في الحفلات الكبيرة والنوادي الراقية. سأله كثيرون مراراً: كيف نجحت في العزف والغناء وأنت ضرير ومشلول تتنقل بصعوبة بالغة على عكازين؟ فكان يجيب دائماً:لقد صممت على النجاح لأقهر عاهتي..هذا كل ما حدث!

تتلاحق نماذج حية كثيرة جداً لمعوقين عباقرة ذوي قدرات استثنائية أو إبداعات مبهرة، ممن أثبتوا أن العجز الحقيقي هو عجز العقل وعجز الإرادة، لا العجز الجسدي مهما بلغت شدّته وقسوته.إنها نماذج تعزز القناعة بأن آلام المعاق

لا تفجر مكونات إبداعه فحسب، وإنما تمتحن مدى قدرته على الاحتمال، وتختبر تعاليه على مسبباتها وتجاوزه لنتائجها من خلال إنجازات فذة، مع تمسكه بالقيم التي يدعو الآخرين إليها، وتشبثه بالمعايير الأخلاقية التي كثيراً ما يغفل عنها بعض الأسوياء.

• • •

كانت حالة الفرنسي جان لوي ديفي من أكثر حالات الإعاقة الجسدية تأثيراً بي. فقد هزتني من الأعماق لغرابتها، ولم أستطع مقاومة دافع قوي جعلني لا أقارنها بما قد يدانيها أو يماثلها من حالات فردية، وإنما أعتبرها حافزاً لمعالجة حالة عجز جمعية متوهمة. استلهمت من تلك الحالة مثلاً مقالة مطوّلة كتبتها جاعلاً عنوانها (متى تكتشف الأمة أن شللها وهم؟). نشرت صحيفة الخليج الصادرة في الشارقة هذه المقالة في تشرين الأول من العام ١٩٩٧م، ومحورها رفض قاطع للزعم بموت أمتنا أو شللها، وبشرى بنهوض شعبي عربي جارف قادم بلا ريب. أما عن خلاصة حالة ديفي فهي أن الرجل قد أصيب بالشلل الكامل في أواخر العام ١٩٩٥م، فنقل إلى مشفى أمضى فيه سنة ونصف السنة راقداً بلا حركة إطلاقاً، فلم يكن أيّ عضو أو جزء من جسمه قادراً على الحركة، اللهم سوى حركة جفن واحدة من عينيه فقط، إذ شاء الله أن يبقى في جفن عينه تلك رمق حياة. استطاع هذا المشلول أن يؤلف كتاباً كاملاً بينما كان في هذه الحالة: لا ينطق، بل لايستطيع تحريك شفتيه ولا يديه ولا أيّ جزء آخر من جسمه! لقد اعتمد ديفي على مساعدة امرأة ذات إرادة فولاذية تستحق الإشادة، فقد كانت تحضر إلى المشفى يومياً وتمضي معظم النهار معه. وكانت تتفاهم معه عبر حركات جفني عينه السليمة، حيث تنطق حروف الأبجدية حرفاً بعد حرف وهي تراقب جفنيه، وعندما تنطق الحرف الذي يريده ديفي يرفّ جفنه في تلك اللحظة فتسجل الفتاة ذلك الحرف، بعدما تتأكد منه، ثم تعود إلى البداية، فتنطق حروف الأبجدية من جديد وتتوقف عندما يرف جفن ديفي لدى سماعه الحرف التالي المطلوب! وهكذا كانت تجمع الحروف حرفاً بعد حرف بتلاوة حروف الأبجدية، إلى أن تكتمل تلك الكلمة التي أرادها ديفي فتكتبها. تتكرر العملية المضنية على هذا النحو لكي يعلن جفن ديفي الكلمة التالية التي أراد الرجل التعبير عنها بحركة جفنه، حرفاً بعد الآخر! وهكذا، كلمة بعد كلمة فتكتمل جملة، وجملة بعد جملة حتى تكتمل فقرة، وفقرة بعد فقرة حتى أنجز فصل من الكتاب، ومن ثم اكتملت فصول الكتاب الذي جعل ديفي عنوانه (لباس الغوص والفراشة)! تمت طباعة الكتاب وعرضته المكتبات على نحو بارز. أما مؤلف الكتاب جان لوي ديفي فقد كانت سعادته هائلة وهادئة عندما شاهد كتابه المعجزة مطبوعاً في يد الفتاة التي أعانته على تأليفه بدأب وجلد نادرين. مات ديفي راضياً عقب رؤيته كتابه في مطلع آذار سنة ١٩٩٧م، وكأنما انتهى دوره في الحياة الدنيا بعدما قدّم هذا الدرس. تهافت الناس على الكتاب المعجزة الذي لم يسبق لأحد على امتداد

تاريخ البشر أن أنجز مثيلاً له بتلك الطريقة! بعد عرض تلك الواقعة استعرضت المقالة المشار إليها حال أمتنا العربية لتؤكد أن الذي أوهم بشلل أمتنا الذي أشاعه غزاة وطننا والذي كرّسه أعداء الخارج والداخل في أوساط كثيرة، حتى انتشر وباء التعاجز والوهن، إنما هو باطل لا يصمد عندما تحلّ لحظة الحقيقة التي تلي صحوة وعي، فهي آتية حتماً، وسوف يكون بعدها النهوض العظيم عنواناً لتجديد حيوية الأمة المستباحة، وإعلاناً عن انعتاق إرادتها المصادرة. زعَمني أصدقاء علّقوا على مقالتي (متى تكتشف الأمة أن شللها وهم؟) طوباوياً، حالماً، غارقاً في الخيال، لا يدرك أن الأمة ماضية بتسارع إلى الانهيار، وباتت حالة ميؤوساً منها! لكنني تشبثت بيقين أكده الحراك الشعبي في تونس ومصر واليمن وليبيا: لم تمت الأمة ولا أصيبت بالشلل! وقد ظهرت حالة مماثلة لحالة ديفي مساء ٢٠١١/٥/٢١م في برنامج (للنشر) على شاشة تلفزيون الجديد اللبناني لفتى اسمه علي، مصاب بالشلل الدماغي، فلا يستطيع استخدام يديه وقدميه، لكنه تغلب على إعاقته وأسس علاقات عديدة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، مستخدماً أنفه لنقر مفاتيح الكمبيوتر بدل أصابعه المشلولة.

تتشعب التساؤلات عن أسباب ومدلولات غياب آلاف من حالات إبداع عرب ذوي الاحتياجات الخاصة التي يزخر بها تاريخنا وحاضرنا على حد سواء. لماذا يستشري الاستلاب إلى حد كاد معظم المتداول لدينا عن إبداع ذوي الاحتياجات الخاصة يقتصر على نماذج وحالات أوروبية وأمريكية. ليس مقنعاً التذرع بالهيمنة الغربية على وسائل التواصل والاتصال وتحكمها بالدفق المعلوماتي واختيار مواده. فثمة آلاف الحالات العربية التي تتسم بالفرادة وتتميز بالأصالة، وتستحق أن تخترق حصار الهيمنة! ما أعجب حالة ابن الأثير مثلاً، أعظم مؤرخي عصره، إذ أصاب الشلل أطرافه فظل ممدداً على فراشه لثلاث سنوات لا يستطيع تحريك يد أو رجل، وفشل الأطباء في علاجه، فظلّ يملي على كاتب يعينه ويخدمه، إلى أن جاء مغربي عرض أن يشفيه، على ما روى المسعودي في (مروج الذهب)، وازداد المغربي إصراراً على مداواته بعدما شكك ابن الأثير يائساً في نجاحه حيث فشل عشرات الأطباء. داواه المغربي فعلاً بعد ممانعة ابن الأثير وتردده بأعشاب وسواها، فعاد الإحساس إلى أطرافه المشلولة بعد نحو شهر، ثم بدأت تلك الأطراف تتحرك ببطء. عندئذ قال ابن الأثير لخادمه: «أكرم الرجل واصرفه»! قال الخادم متعجباً: «لكنه لم يستكمل علاجك بعد!»، فرد ابن الأثير على خادمه قائلاً: «فكرت في حالي وأنا مشلول معتزل الناس، لا أمشي ولا أقف ولا أقعد، فوجدت أنني كنت في هذه السنوات الثلاث أحسن حالاً في عزلتي، لذلك قررت أن لا استكمل العلاج، حتى لا أعود إلى ما كان يصيبني من مخالطة الناس»!

ومن النماذج البارزة لأصحاب الاحتياجات الخاصة التي تغيب عن الذهن غالباً النبي موسى الذي اعتذر إلى خالقه عن حمل الرسالة بالإعاقة

في نطقه، إذ إنه عانى من التأتأة والتلعثم. فعندما كلّفه الله عز وجلّ الذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الإيمان قال متهيباً: «لا ينطلق لساني». جاء تفصيل الواقعة في سورة الشعراء: «قال ربِّ إني أخاف أن يُكَذِّبون، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون» وقد عبّر سيدنا موسى عليه السلام عن حالته أثناء التلعثم بقوله (يضيق صدري)، واصفاً ما يعانيه من ضغط وضيق عندمحاولته الكلام. لذلك دعا موسى ربه في سورة طه قائلاً: « رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي». فسر بعض الفقهاء هذه الآيات على اعتبار أن خوفه -عليه السلام- لم يكن من مجرد التكذيب، ولكن من حصول التكذيب المتوقع في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين الحق، ولا أن يناقش هذا التكذيب ويفنده. فقد كانت بلسان موسى حبسة دعا ربه أن يخلصه منها: « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي». فتلك الحبسة وليدة حالة من ضيق الصدر سببها عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. تزداد تلك الحبسة كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً، وهكذا.. لقد خشي موسى أن تعيقه مفاعيل هذه الحالة لحظة مواجهته الطاغية المتجبّر الظالم فرعون بالرسالة. وهكذا شكا موسى إلى ربه ضعفه وخشيته من تأثير إعاقته على تبليغه الرسالة. فطلب إلى ربه أن يوحي إلى هارون أخيه، ويشركه معه في الرسالة.

ومن الحالات العربية القديمة أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، عمّ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشتهر بأبي طالب. كان وجيهاً بارزاً ومن الخطباء والشعراء العقلاء،مع أنه كان يشكو العرج. ولم تحل إعاقته دون رعايته للنبي في طفولته وصباه، ومساندته وحمايته لاحقاً في أوائل سنيّ الدعوة.. وكان العرج - بالمناسبة - إعاقة عانى منها كثير من صحابة الرسول العربي. من هؤلاء الصحابة مثلاً عبد الرحمن بن عوف الذي ولد سنة ٤٤ قبل الهجرة، وكان من أول ثمانية اعتنقوا الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وأحد المرشحين الستة الذين اختارهم عمر بن الخطّاب لخلافته. كان اسمه أصلاً عبد عمرو، وقد أسماه النبي (ص) عبد الرحمن عندما أسلم. شارك في الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، ورافق النبي (ص) في غزواته. أصيب بعشرين جرحاً في جسمه عندما شارك في معركة أحد، وقد أدت بعض جروحه إلى إصابته بعرج شديد دائم في ساقه، كما حطمت إحدى إصاباته عدداً من أسنانه مما أثر على نطقه. تأخر النبي في وضوئه فجراً في غزوة تبوك ومعه المغيرة بن شعبة، فتقدم عبد الرحمن بن عوف وأقام الصلاة وأمّ المصلين. فلما أدرك النبي والمغيرة الصلاة في الركعة الثانية وقف وراء ابن عوف. وبعد انتهاء الصلاة أعظم بعض الناس ما وقع لكن رسول الله قال لهم: « أحسنتم وأصبتم»، ولم يعتبر صلاته خلف عبد الرحمن بن عوف حدثاً جللاً كما اعتبره بعضهم. توفي بن عوف سنة ٣٢للهجرة.

هذا هو حال سعد بن أبي وقاص أيضاً،

الصحابي الجليل الذي لم يُعرف أن رسول الله محمد (ص) قد فدا أحداً سواه بنفسه وروحه إلا هو، فقد قال النبي يشجعه في المعركة: «ارم سعد. فداك أبي وأمي». وهكذا ذهبت مثلاً أن رسول الله لم يجمع أبويه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص. عاش أربعين عاماً في حالة إعاقة لم تحل دون أن يصبح قائد جيوش الفتح الإسلامي في العراق.

ومثلهما كان القائد العظيم موسى بن نصير ابن ربعي بن عامر ابن قبيلة بكر بن وائل، يعاني من عرج شديد، لكن إعاقته لم تحل دون خوضه عشرات الحروب والمعارك وكان أحد أبرز القادة الفاتحين المسلمين، فقد قاوم جيوش الروم وأسهم في هزيمتها، وقاد الجيوش التي فتحت قبرص وشمال أفريقيا والأندلس ومناطق كثيرة في أوروبة، كما كان والياً على شمال أفريقيا ثم على الأندلس.

هذا هو أيضاً حال عطاء بن رباح، إمام أهل مكة وعالمها وفقيهها، الذي كان شديد العرج. فعلى الرغم من أنه كان أعرج مما يعيق حركته بين الناس، ما جلس في حلقته العلمية إلا وتدافع الآلاف من طلاب العلم على النهل من علمه وعطائه. لذلك كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يقول: لا يفتي الناس في موسم الحج إلا من عطاء بن رباح. ومثلهم كان عمرو بن الجموح،أحد شهداء معركة أحد التي خاضها على الرغم من أنه كان قد ناهز التسعين من عمره.

لقد كان هذا النوع من الإعاقة شديد الوطأة على الصحابي الجليل ربعي بن عامر الذي عانى من صعوبة مشيه وحركته لشدة عرجه، لكنه قد تميز بطلاقة اللسان وبراعة التفاوض حيث أرسله سعد بن أبي وقاص إلى قائد الفرس رستم فكان من أنجح السفراء والمبعوثين السياسيين نظراً لصلابة عقيدته وشجاعته وإخلاصه في المهمة ولم تحل إعاقته دون اختياره لتلك المهمة الصعبة، وكتب التاريخ أن معاقاً أعرجاً من المسلمين تحدى أكبر قادة جيوش العالم في قصره الإمبراطوري.

أما أبو الأسود الدؤلي، واسمه الحقيقي ظالم بن عمر لكنه اشتهر بأبي الأسود الدؤلي لسواد لونه، ولأن أحد أجداده من الدئل فهو من أسرة عربية عريقة أصيلة هي (كنانة)، وقد عانى من إعاقات عديدة فقد كان أعرج، أصلع، أبخر (أي كريه رائحة الفم)، لكنه كان شجاعاً وذكياً، فأصبح قاضياً للبصرة وأميراً عليها في عهد خلافة علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وجُعل وسيطاً بين علي ومعاوية في معركة الجمل. شارك في معركة صفّين ومات بالطاعون الذي اجتاح البصرة سنة ٦٩ هـ.

أما أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، المنسوب لبلدته زمخشر التي ولد فيها يوم ٢٧ رجب ٤٦٧ للهجرة لأب اشتهر بضلوعه في الفقه وأصول الدين وأم شديدة الورع والتقى، فقد رحل عن خوارزم إلى بخارى للاستزادة من العلم فسقط عن دابته في الطريق وانكسرت ساقه، وهكذا اضطر إلى بترها واتخذ ساقاً من خشب بديلاً عنها. لكن العرج لم يمنعه من استكمال تحصيله في خراسان وأصفهان وبغداد ومكة التي نال لإقامته فيها لقب جار الله، وطاف في أنحاء

جزيرة اليمن، وخاصة اليمن قبل عودته مجدداً إلى مكة ليعكف على تصنيف تفسيره للقرآن المعنون (الكشاف). وعندما عاد إلى موطنه خوارزم كانت شهرته قد عمّت الآفاق، فاحتفى به قومه ولقبوه (فخر خوارزم). اعتبر بحق من أبرز أئمة مفسري القرآن الكريم، وعالماً ضليعاً في اللغة والنحو، وفقيهاً بارزاً، وواضعاً لأسس البلاغة، وقد قرّظه أغلب المؤرخين والعلماء، كابن خلكان والذهبي والسمعاني والسيوطي وابن حجر العسقلاني وياقوت الحموي إماماً في التفسير والحديث والنحو واللغة والفقه والأدب والبلاغة وتصريف الكلام.

من أبرز مؤلفاته التي فاقت الخمسين: المحاجاة بالمسائل النحوية، المفرد والمركب في العربية، الفائق في تفسير غريب الحديث، أساس البلاغة، ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، متشابه أسامي الرواة، النصائح الكبار، النصائح الصغار، ضالة الناشد في علم الفرائض، المفصل في النحو، الأنموذج في النحو، المفرد والمؤلف في النحو، رؤوس المسائل في الفقه، شرح أبيات كتاب سيبويه، المستقصي في أمثال العرب... أما تفسيره للقرآن الكريم المسمى (الكشاف) - الذي عكف على تأليفه في الحرم المكي وأنجزه عام ٥٢٨ هـ فقد امتاز بجمع اللغة وعلومها والعقائد والتوحيد. هكذا تحدى الإمام الزمخشري عاهته مفجراً إبداعه المتنوع، إلى أن توفاه الله يوم وقفة عرفة لسنة ٥٣٨ هـ الموافقة للعام الميلادي ١١٤٤.

حالة أخرى هي للضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين، أبو بحر التميمي، الأمير والعالم، سيد بني تميم، الذي اشتهر بالأحنف بن قيس، وقال بعضهم أن اسمه الأصلي هو صخر وليس الضحّاك. لُقب بالأحنف لحنف رجليه، أي لاعوجاجهما وميلهما، فقد ولد معوقاً بساقين ملتصقتين شديدتي الاعوجاج بحيث تم شق ما بينهما، وبعينين منخسفتين في إحداهما عور، كما كان صغير الرأس، قصير القامة، وقد كان اعوجاج ساقيه شديداً إذ ولد ملتصق الفخذين. لكن هذا كله لم يحل بينه وبين أن يصبح سيد قومه عندما شبّ، فقد امتاز بحسن الخصال والمروءة والحلم والحزم والحنكة والورع، وضُرب بحلمه المثل حتى قيل (في حلم أحنف وذكاء إياس!). قيل أنه كان إذا غضب ارتفعت أيدي قومه مشهرة مئة ألف سيف تأتمر بأمره، من دون أن يسأل فيم غضب! لكن زعامته لقومه لم تكن امتيازه الوحيد، فقد كان من أشهر وأقدر خطباء زمانه، حتى قال الجاحظ عنه أنه أبين العرب! وقد حسن إسلامه فدعا النبي (ص) له قائلاً: اللهم اغفر للأحنف. بعثه الخليفة عمر بن الخطاب على رأس جيش إلى خراسان، حيث تصدت لجيشه أربعة جيوش أقبلت وفي مقدم كل منها قارعو طبول صوتها يثير الرعب. ركب الأحنف فرسه ورفع سيفه وانطلق نحو أقرب أصوات الطبول منشداً:

إن على كل رئيس حقّاً
أن يخضب القناة أو تندقا

وقتل قارع الطبل في أول الجيوش، فهرب جند العدو عندما غاب عن أسماعهم قرع الطبل،

ومضى إلى ثـاني الجيوش فقتل قارع الطبل الذي يتقـدم صفوفه، وكرر الأمر في الجيشين الآخرين، فهرب جنود جيوش العدو الأربعة. عندئذ عاد إلى جيشه واستحث جنده ليسرعوا خلف العدو المهزوم يقتلون مـن تطاله نبالهـم وسيوفهـم ورماحهم. وهكذا فتح مدينة (مرو الروذ).

ومـا دمنا قد ذكرنا الجاحـظ، أليس جحوظ عيني هذا الأديب المفكـر الفيلسوف البارز يشكل عاهة في عرف أكثر الناس، ومع ذلك لم يمنع حاله هذا إبداعه من أن يبلغ مدى بعيداً وشأناً كبيراً؟

كذلك كان الإمام ميمون بن مهران أعرج أيضاً، وهو الـذي روي عنه علم الحديـث وله إسهامات كثيرة في كتب السنن.

أمـا إعاقة أبان بن الخليفـة عثمان بن عفان فكانت مركبـة، حيث أنه عانى في البدء من صمم وحـول وبرص، ثم أصابه الفالج، وهو شلل نصفي يصيب أحـد شقي الجسم طـولاً... مع ذلك كان أبان من أبرز فقهاء التابعين وعلمائهم في الحديث والفقه وأول من ألّف في السيرة النبوية. وقد عينه عبد الملك بن مـروان والياً على المدينة عام ٧٦هـ إلى جانب كونه قاضيها في الوقت نفسه. توفي عام ٨٥ هـ.

أعـرج آخـر مشهـور مـن غير العـرب هو تيمورلنـك، الذي وُلد سنة ٧٣٦ هـ في سمرقند، وقيـل أن تنبـؤات سبقت ولادته قـد قالت بقرب ظهـور رجل عظيم.. كان تيمور لنك طويل القامة، واسـع الجبهة، ضخم الرأس، أبيض اللون،عريض الكتفـين، مسترسل اللحيـة، مشلـول اليد أعرج الرجل اليمنى، جهوري الصـوت، شديد القوة، لا يهاب المـوت... وبقي متمتعاً بقوتـه حتى شارف علـى الثمانين عامـاً فظل يصلي قائمـاً، وعانى في أواخـر عمـره مـن ضعف شديـد في البصر. ولئـن اعتدنا أن نقرأ ذكره سيئـاً في كتب التاريخ المتداولة لدينا، فإن كتب التاريخ والسيرة المتداولة المتوارثـة في مجتمعات آسيـا الوسطى الإسلامية تعتـبره من أعظم القادة في التاريـخ، وتنسب إليه فضل إنجازات حضارية وتنموية وعلمية ضخمة. وهكذا يظلّ ذكره مؤكداً أن تدوين التاريخ أو تفسير أحداثه كثيراً ما يتعرض لأهواء ونزوات متباينة.

نذكـر أيضـاً من الأجانـب اللاحقـين السياسي الفرنسـي شـارل موريشدوتاليران الـذي أصيب بالعرج في طفولتـه المبكرة فأهمله أهله، كما نبذه رفاق طفولته فتحاشوا إشراكه في ألعابهم ولهوهم، لكنـه صمم على انتزاع النجاح، واستطاع أن يتولى منصب وزير الخارجية لسنين عديدة أثبت خلالها أنه من أذكى وأقدر قادة فرنسا وأشدّهم دهاء!

بعيداً عن العرج، كان الإمام الحافظ المحدث، محمد بن عيسى الترمذي رحمه الله، صاحب سنن الترمـذي وأحـد الأئمة الستة الذيـن يقتدى بهم في علـم الحديث، أعمى، لكنـه أوتي من المواهب والأخلاق ما جعله من أبـرز العلماء. وقد برع في علم الحديث وحفظـه وأتقنه وطاف البلاد وسمع الشيـوخ والعلماء وصنف عدداً من الكتب، أهمها: سنن الترمذي، والشمائل المحمدية، والعلل المفرد، والزهـد. قـال الإمام الحاكم عـن عماه: سمعت عمـر بن علك يقول: « مـات البخاري فلم يخلف

بخراسان مثل أبي عيسى، في العلم والحفظ والورع والزهد، بكى حتى عمي، وبقي ضريراً سنين». توفي في العام ٢٧٩ للهجرة.

لا تفوتنا حالة ضرير آخر هو عبد الله بن أم مكتوم، شهيد أهل الجنة ومؤذن رسول الله الذي كان من أوائل مهاجري المسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، والذي نزلت فيه سورة عاتب الله عز وجل فيها رسوله لأجله بقوله: « عبس وتولى أن جاءه الأعمى». وقد استخلف النبي العربي عبد الله بن أم مكتوم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته وفي خروجه إلى حجة الوداع. لم يمنع العمى شهيد أهل الجنة الواعظ ومعلم القرآن والحديث هذا من القتال في معركة القادسية التي حمل فيها اللواء، على الرغم من أن من له مثل عاهته معفى من الجهاد. كان سعيد بن المسيب، سيد فقهاء التابعين،أعوراً كذلك. وقد ولد في المدينة المنورة سنة ١٥هـ. واشتهر بسعة العلم والفقه، إذ اعتبر سيد علماء المدينة السبعة، ولُقب بـ(فقيه الفقهاء). كما أنه كان نسّابة عالماً بأنساب الناس،حاد الذكاء، ذا نباهة لافتة وذاكرة عجيبة.. توفي سنة ٩٤ هـ دفن في البقيع وعمره ٨٠ سنة.

وهل يغيب عن الذهن من اللاحقين الشاعر العباسي بشار بن برد الذي ولد ضريراً، لكنه لم ييئس ولا استسلم، وإنما تحدى إعاقته وصقل موهبته فكان وصفه للأشياء وتشبيهاته وهو الأعمى أدق وأبرع مما استطاعه البصراء. ولما سئل عن السرّ في هذه المقدرة النادرة قال: « إن عدم النظر يُقوي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من أشياء، فيتوفر حسه».. كم من الأدباء والشعراء يستطيع مداناة بشار بن برد في الوصف واللعب بالمعاني والألفاظ والاشتقاق كما هو شأن أئمة اللغة؟

لا يمكن أن يغيب عن المرء ذكر ضرير آخر هو المفكر الفيلسوف الشاعر المبدع أبو العلاء المعري الذي ولد أعمى، لكنه جمع الموهبة والإبداع والاجتهاد فصار من أعظم أدباء العرب ومبدعيهم على مرّ الزمان؟ ولعل أشهر ضرير من الأدباء غير العرب، ما دام الشاعر بالشاعر يذكر، هو الإغريقي الشهير هوميروس مبدع أشهر ملحمتين في التاريخ: الإلياذة والأوديسة، في القرن التاسع قبل الميلاد..

إعاقة مختلفة عانى منها الإمام محمد بن سيرين إمام التفسير وأحد أشهر المؤولين هي الصمم. فقد استطاع ابن سيرين بنباهته الفذة وذكائه المبهر التغلب على تأثيرات عاهته، وخاض في بحور العلم فجمع وأوعى وأبدع، حتى بات علماء عصره ينصحون المستفسرين عن مسائل غامضة ومعقدة أن يقصدوا محمد بن سيرين بقولهم: « عليكم بذلك الأصم»!.. كان مثالاً في الورع والزهد والعلم والنباهة والعبادة والخشوع، حتى صار الناس يهتفون كلّما رأوه: « الله أكبر»!

وإذ نتذكر بشار بن برد وأبا العلاء المعري، وهما أكثر بروزاً من بين عدد كبير من الشعراء العرب العميان أو ذوي إعاقات أخرى، فإننا نقف عند دراسة د.عبد الله بن أحمد المغامري الفيفي التي نال عنها شهادة الدكتوراه من كلية الآداب في

جامعة الملك سعود، وأصدرها النادي الأدبي في الرياض سنة ١٩٩٧م، وعنوانها: (الصورة البصرية في شعر العميان). فقد بحثت هذه الدراسة المتقنة في المفارقة بين العجز الحسي والإبداع الفني في التصوير البصري لدى عدد من الشعراء القدامى والمعاصرين، أبرزهم أبو العلاء المعري وبشار بن برد وعبد الله البردوني. مما خلصت إليه الدراسة تأكيد أن معاناة الشعراء العميان الوجودية وطباعهم النفسية الخاصة تعد مولداً رئيساً لأكثر أنماط صورهم البصرية شيوعاً وأكبرها، الأمر الذي يجعلها نسيج وحدها برموزها المشتركة بينهم، وأهمها نمطا (الظلام) و(المرأة). ولاحظ أن صورهم البصرية تأتي جامحة الخيال، تسمو على الحس الواقعي القريب بأجنحة من التخييل والتشخيص والتجسيد.. (ص٢٧٦). وقد خلصت دراسته عبر مقارنات وإحصائيات واسعة إلى أنه قد اتضح تفوق العميان على المبصرين في كثافة التلوين، ومجموع العناصر الحسية، والأدوات الفنية، وبعدئذ في مفردات المعجم الفني كافة لتصويرهم البصري، وبقياس معدل تفوق العميان قد وجده ٢٦٪. (ص ٢١٠). كما أنه رأى على الرغم من الهوة المعرفية بين عالم الضرير وعالم النور، فإن الضرير ليس محروماً من الذكاء العام، إضافة إلى ما يحدث من تنمية حواسه الأخرى وتقوية ذاكرته، رغم أن للمعرفة مسارب مختلفة، من أهمها مستودع الأفكار الفطرية التي تستنبطها النفس من ذاتها، وكذلك (اللاوعي الجمعي) بما يمكن أن يمد الإنسان به من خبرة وراثية لا تقتضيه اكتسابها.

هذا إلى شغف العميان بالاستماع والقراءة، يجدون في ذلك منفذاً يطلون منه على عالم المجهول. وبهذا تحسم تجربة العميان الجدل حول أهمية (الواقع الحسي) إلى (التمثل الثقافي) لتتفتح على التخيل والإبداع منافذ شتى، أسمى من الإدراك الحسي المباشر للواقع.. (ص٢٧٨). من المعاصرين ضرير آخر هو طه حسين، الأديب والناقد والمفكر المصري الذي ولد عام ١٨٨٩م وتوفي عام ١٩٧٣م. فمهما اختلفت المواقف إزاءه أو التحفظات بشأن فكره، يظل من أبرز أدباء العربية في القرن العشرين. أصيب بالعمى في الرابعة من عمره، ولم تمنعه إعاقته من الذهاب إلى فرنسا في وقت مبكر عندما فشل في إتمام دراسته الشرعية في الأزهر. وقد حصل على درجة الدكتوراه من السوربون، أعرق الجامعات الفرنسية، ثم عاد للتدريس في الجامعة المصرية، وأسس جامعة الإسكندرية وصار مديراً لها ثم أصبح وزيراً للمعارف ثم أسس جامعة عين شمس في القاهرة. له مؤلفات كثيرة ومقالات ومحاضرات وقصص. وأصيب أديب معاصر بارز آخر هو مصطفى صادق الرافعي بالصمم عندما كان في الثلاثين من عمره، لكن هذه الإصابة لم تحل بينه وبين الإبداع الأدبي، فقد كان من أهم أدباء العربية في زمانه. نذكر من كتبه: المعركة تحت راية الإسلام، المساكين، السحاب الأحمر، ومئات المقالات المنشورة. وقد توفي سنة ١٩٣٧م.

من المعاقين البارزين في زماننا الشيخ أحمد إسماعيل ياسين، مؤسس وقائد حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في فلسطين، الذي ولد سنة

١٩٣٦م في قرية جورة عسقلان، واقتلع منها شأن الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطيني سنة ١٩٤٨م لدى إقامة الكيان الصهيوني. كان أحمد ياسين في السادسة عشرة من العمر يدرّب بعض الفتيان على السباحة في (بحر غزة) عندما أصيب بكسر في فقرات عنقه، وتبين بعد وضع عنقه في جبيرة من الجبس لمدة ٤٥ يوماً أنه سيعيش طوال حياته مشلولاً، ولا رجاء في شفائه. أنهى أحمد ياسين دراسته الثانوية عام ١٩٥٧/١٩٥٨م وعمل مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية، وراح يدعو لمقاومة الاحتلال الصهيوني لفلسطين فاعتقله المحتلون وحاكموه مراراً، آخرها يوم ١٦/١٠/١٩٩١م إذ حكم بالسجن مدى الحياة، وتم تحريره في تبادل للأسرى. اغتاله الصهاينة بصاروخ من طائرة حربية وهو يغادر المسجد على كرسيه المتحرك في غزة بعد صلاة فجر ٢٢/٣/٢٠٠٤م.

وضرب الشلل أمريكياً بارزاً هو الرئيس الأسبق تيودور روزفلت، الذي ولد سنة ١٨٨٢م وتخرج من هارفارد، ثم من كلية حقوق جامعة كولومبيا. انتخب عضواً في مجلس الشيوخ عن نيويورك، وصار وكيل وزارة البحرية الأمريكية. أصيب بشلل سنة ١٩٢١م أقعده في التاسعة والثلاثين فلم ييئس، بل واجه محنته وترشح لرئاسة الولايات المتحدة سنة ١٩٣٢ م ففاز، وتكرر انتخابه لأربع ولايات متتالية إلى أن توفي سنة ١٩٤٥م. وأصاب الشلل مبدعاً ألمانياً هو شومان (١٨١٠- ١٨٥٦م) فلم يمنعه من أن يصير أحد أبرز عباقرة الموسيقى، كما أصبح الألماني الآخر بيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٧م) أشهر موسيقي في العالم و(أبو السمفونيات)، على الرغم من أنه أصيب بالصمم في شبابه، فأسمع مليارات من الناس موسيقاه التي لم يسمعها هو!

ومن حالات التفوق الجماعي لعميان ما نشرته الصحف قبل سنوات عن نجاح واحد وعشرين شاباً في تسلق جماعي لأحد جبال سلسلة الهملايا في الهند، وصولاً إلى القمة المكللة بالثلج والتي يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف ومئتين وثمانين متراً، عبر صخور ضخمة جعلت التسلق شديد الصعوبة. لم تكن أهمية تسلق ذلك الجبل بسبب علوّه، فهناك قمم أعلى، لكن صعوبة تسلقه كامنة أساساً في عدم وجود طرق ممهدة أو مسارب بين كتله الصخرية. لهذا اعتبر تسلق هذا الجبل مغامرة لا يقدم عليها سوى محترف صاحب خبرة كافية وإرادة صلبة وتصميم قوي وإبصار ثاقب، واثق من نفسه وقدراته، فما بالكم إزاء كون كل أفراد تلك المجموعة التي تسلقته من العميان فاقدي البصر، تكاتفوا وتعاونوا فيما بينهم، فحققوا هذا الإنجاز

تطول القائمة، والعبرة واضحة: الإرادة القوية كفيلة بتحول الإعاقة من ذريعة عجز ونكوص إلى دافع تحد وتصميم على النجاح والإبداع. تظل الإعاقة الجسدية أهون بكثير على أي حال من الإعاقة النفسية أو العقلية أو الأخلاقية أو السلوكية!.

الشعر

إلى رملة.. من جدِّها

✿

سليمان العيسى

سبعين.. أبحثُ عن رحيق الحرف..
أسقيه الرِّمالا
سبعين.. أصرخُ في القفارْ
لا الصوتُ بحَّ.. ولا القفارْ
ردَّتْ صَدَى
رشَحتْ بقَطْرٍ من نَدى

✿ ✿ ✿

سبعين.. ينشُرُ جَدُّكِ البرقَ اليتيمَ
على الطلول..
يُذيعُ للريح السُّؤالا
للصَّخْرِ.. للفلَوات..

✿ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

للماءِ الذي قد ماتَ في ضَرْعِ السماءِ
وغارَ في البيدِ الصَّدى
ووقفتُ فوقَ خرائبِ السبعينَ..
أجمَعُ آخِرَ النَّبَضاتِ..
أنظرُ في المَدى
ورفضتُ موتي.. كانَ جَدُّك يا صغيرةُ
يَبْدأُ السَّفَرَ الجميلَ.. من الرَّدَى

✿ ✿ ✿

سبعين.. أشْرُدُ في الغيوم،
وأستحثُّ على خرائبنا المَطَرْ
وأقولُ شعراً..
في الصغار.. وفي الكبار
أنيخُ رَحْلي فوقَ قارعةِ الخَطَرْ
لا الغَيْمُ بَضَّ بقطرةٍ..
لا الشعرُ أجْدَى
لا الصوتُ أجْدَى
وعلى امتداد الأفقِ والمجهول..
غيرَ حُطامِ حُلْمي لم أجِد..
غيرَ المرارةِ والضَّجَرْ
غيْرَ ازورارِ مَقابري عني..
وتَرْكي في مَتاهاتِ «السُّدَى»
أحنو على حُبِّي القديم..
وأبْدأُ السَّفَرَ الجميلَ.. من الرَّدى

✿ ✿ ✿

سبعينَ..
ما زالَتْ يداي.. وقد تَيَبَّسَتا..
تَمُدَّانِ الظِلالا
عَلَّ الرِّمالا
عَلَّ الطفولةَ تُنبِتُ العشبَ الذي
يَهَبُ النُّشورَ المستحيلَ،



يُفَجِّرُ الغيبَ المُحالا

إنَّا نُحاوِلُ يا صغيرةُ أنْ نكونَ..
وزادنا الارضُ العتيقة..
والسماءُ البِكْرُ..
والشعرُ الذي يَهَبُ البَشَرْ
مَعْنَى البَشَرْ..

إنَّا نُحاوِلُ..
فاقْرئينا..
في جُذورِك.. كلُّ أحلامِ الشَّجَرْ

والشعرُ ديوانُ السماءِ..
ونحنُ أوَّلُ ما يُغَنِّيه..
وآخِرُ ما يُدَنْدِنُه وَتَرْ

الشعر

أعشاب النار

❁
محمد وحيد علي

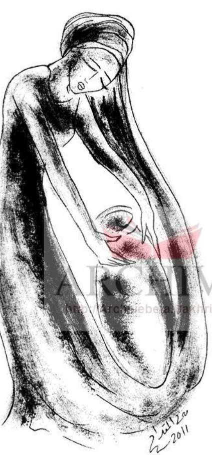
كنتُ أبحثُ عن وجْهِهَا
في دروبِ الهلاكْ..
وجهُها يُشبهُ النَّارَ

يُشبهُ طيرَ الضّياءِ
وتفّاحةَ الارتباكْ..
أدخلُ الآنَ أشواقَها
أدخلُ البرقَ
والتوهانَ
وأنسلُّ من جمْرةِ الانتظار
لأكسرَ هذي الشّباكْ..

❁ ❁ ❁

❁ شاعر من فلسطين.
العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

ولا شيءَ يشبهُ هذا الجنونَ
ولا برقَ يصعدُ
فوقَ الرَّمادِ
ليجعلَ قلبي نشيداً
سواك..
ولا عشبَ
يرقصُ تحت الشّموس
ولا نخْلَ يومضُ بالضّوءِ
والاشْتعالِ المُولّه
مثْلَ رُبَاكْ..
ولا فرسٌ،
ترمحُ الآنَ
في قامتي
لتحطَّ دمائي
على بيدرٍ
في سماكْ..
نجومُكَ أبْهى
لتشْعلَ في تربتي
قمراً
وتُفتّحَ في داخلي
عشْبةَ النَّارِ لألاءةً
منْ هُداكْ..
كأنَّ يديّ حجلٌ
كمْ يطيرُ؟..
ليلمسَ أسرارَكَ الزاهياتِ
بريقاً
على صدْركَ المُشتهى
إذ يهيمُ بأطيارهِ



وترفُّ الحساسينُ
مغسولةً بالحنينِ
إذا ارتفعتْ قمَّتاكْ..
أيّها البحْرُ

هذا مدايَ
وفي برْقِ روحي مَتاهٌ
وتوقٌ
إلى ومْضة في مداك..
ولا شيءَ يُشْبهُ هذا الهوى
والسَّناءَ
سوى النَّار بعدَ المغيب
وقد ضوَّأتْها يداك..

❁ ❁ ❁

لم تكنْ واحتي
لم تكنْ نورَ قلبي فحسبُ
ولكنّها ما يُحبُّ الفراغُ
وما يشْتهي الكونُ
من وردةٍ
أو جنونْ..
كانتِ الكافَ والنّونَ
في طائرٍ من شجونْ..
كنتُ ألْقي عليها
وشاحَ ربيعي
فتلبسني جسداً
وأردُّ عليها المساءَ
ثياباً وعشباً
فتأخذني الأرضُ
بين يديها اشتياقاً
يُبعْثرُ أزهارَهُ
في العيونْ..
لم أكنْ غيرَ وجْهيَ
أو وجهِها:
طائرين
على سندسٍ
يدْفعانِ المَنونْ!..

قصص قصيرة جداً

نجيب كيالي ❁

مسبحة الكهرمان

لا تفارقُ يدَ جدي.

يُدلِّيها بين وجهي ووجهه الغارقِ في المشيب والنور، يقول:

– هذه المسبحة كصندوق الدنيا يا ولد، يمكن أن ترى فيها ما يحلو لك. ألا تعرف أنها سافـرتْ إلينا من بلاد الهند، ومرت بالصين وأرض فارس. وفي قلبها حفظتْ صوراً وحكايا كثيرة!!

هيا أطفئ النور، وقرِّبْ عينَك من حباتها.

في العتمــة يفتح الكهرمانُ أمامي نافذةَ الأســرار، فأرى معابدَ وقصوراً، أسواقاً وخيولاً، غاباتِ موز، ثم فيلاً لطيفاً يمدُّ خرطومه نحوي، فأصرخ ضاحكاً.

بعد جدي اختفتْ مسبحةُ الكهرمان!

قالوا: إنها ذهبتْ معه إلى السماء.

❁ أديب وقاص سوري.

وها أنا أجلس في الليل أنظر إلى فوق، فأراها تتدلى بين النجوم.

٭ ٭ ٭

لغة رشيقة

بإصبعها تكتبُ له: (أحبكَ) على الزجاج المُغبَّش، تكتبها على دفتر الهواء.

تختبئ خلف النافذة، وتُخرجها من بين مصراعيها..

تحرِّكها كالدائخ يميناً ويساراً، فيفهم أنها ملتاعة بحبه!

ترميها نحو الأسفل دفعةً واحدة، فيدرك أنَّ السهر قد هدَّها!

تضرب بها الهواءَ كسكين، فيعلم أنها تنوي القطيعة!

تلمس بها رأسَ أنفه عندما يلتقيان، فتتحرك فيه عشرة آلاف كمنجة لتصبَّ في حنجرته كلمة: (آآآه)!

ذات مرة كان يشاهد برنامجاً للمسابقات، فقرأ على الشاشة السؤال التالي:

ما أرشقُ لغة في العالم؟

الإنكليزية؟

الفرنسية؟

العربية؟

انطلقتْ في داخله صرخةٌ كالبركان: غَلَط. هذه لغاتٌ ميتة. أرشقُ لغة في العالم لغةُ إصبعها!

٭ ٭ ٭

ميراث

معذرةً أيها السادة. إنني أعتقد أنَّ للأخطاء التي تقع في حياتنا آباءً وأمهات أنجبنها مثلنا تماما. مثلاً السرقة أبوها الفقر، والفقر أمه القسوة، والقسوة أبوها الظلم.

بالأمس قتلَ جاري أخاه من أجل ملعقة!

نعم، اقتسمَ الأخوان ميراثَ أبيهما، وبقيتْ ملعقة نحاسية لم يمكن قَسْمُها. أدخلها الأخ الصغير في فم أخيه الكبير قائلاً:

- خذها، اشبعْ بها!

خرقت الملعقة حلقَ الكبير، فمات!

خرجتُ إلى الشرفة مذهولاً، وأنا أفكر على طريقتي: الطمع أمه الأنانية، والأنانية أبوها البخل. اه.. مَنْ هو أبو الأخطاء جميعاً؟

الحقيقة لم أستطع أن أعرف. سألتُ صديقي، قال أيضاً:

- لا أعرف.

سألتُ نجوم الليل، قالت:

- لا أعرف.

سألتُ معلمي، أجاب:

- لا أعرف.

لم يبق إلا أن أسألكم:

- مَنْ هو أبو الأخطاء؟

٭ ٭ ٭

هتافات النبع

يا مالكَ أمرِ السماء والأرض.. أنا نبعُ الماء أناديك.

جفَّ مائي يا سيدي، وصرتُ مجردَ ثقبٍ فاحمٍ مفتوح في الأرض!

أنـا الآن عاطـلٌ عـن العمل، وخجـولٌ من أصدقائي..
من خروف يأتي ليشربَ مني.
من جذر حياته معلقةٌ بي.
مـن وجهَي حبيبين يُسلمـان عليَّ، ويتمرَّيان بصفحتي.
ذروةُ خجلي مـن أغنية تتحدث عني، تسري في الآذان، فتصفق الأيدي، وتضرب الأرضَ أرجل الراقصين!
عقمي ثقيلٌ عليَّ يا إلهي
صباحي ومسائي موحشان
اجعلني عشبةً تمضغها معزاة
قطعةَ حطب في تنور
أو ارجعْ إليَّ الماءَ.

❁ ❁ ❁

هتافات الحليب

جاع طفل رضيع.
أرسل صوتَ بكائه إلى كل أطراف الدنيا.
سمعَـهُ رجلٌ عابر، قـال: لا حول ولا قوة إلا بالله، لو كنتُ امرأةً لأرضعتُه.
عنـزةٌ بيضاء هزَّتها النخـوة، أرادت التوجه إلى بيت الطفل. لكنَّ صاحبها اعترضها مزمجراً: نحن لا نعطي حليباً بالمجان.
أمـينُ الامم المتحـدة كان منشغـلاً بقضية تقسيـم بلد إلى بلدين في العـالم الثالث، انتفض قائلاً: أهذا وقتك يا مقصوفَ العمر؟!
أمُّ الطفـل التي دَهَستها سيـارة منذ يومين ومازالـتْ جثتها في الثلاجـة غمغمتْ في داخل الجليـد المحيط بها: أرجعني يـا رب ساعةً إلى الحياة لأعطيه حلمتي، وأعود.
تعـبَ الطفلُ مـن الصياح. تلاشـى صوته تدريجيـاً، نادته مقـبرةُ الصمت، فأسلـمَ نفسَه لهدوئها!

❁ ❁ ❁

هتافات الفراغ

أنا فراغٌ في قلب شاب.
أخاف منه، ومن شكلي الذي يشبه بحيرةً بلا ماء.
هـل تعرفـون أن الأشيـاء الفارغة لا تحب نفسها؟
حاولتُ وخـزه من داخل صـدره كشوكة، لم يشعر بي!
ناديتُه مستعملاً كلَّ حروف النداء، لم يسمع!
انـه مستغرق بفعـل أموراً كثـيرة، ولا يفعل شيئاً!
عشر مـرات في الساعة يُغيِّر تسريحةَ شعره، يبث ثرثراته في هاتفه الجوال!
عشر مرات يصنع مـن إصبعيه كماشةً يشدُّ بها جلدةَ خده، ويرخيها، كأنها نقَّافة!
عشر مرات يرسم دائرةً صغيرة على الشبَّاك، وينظر منها إلى اللاشيء!
دخل أمس برغـوثٌ إلى رأسه، وَشْوَشَهُ: تريد أن تتسلى؟ قـمْ امشِ على حديـد الشرفة. بعد خطوتين سقط المسكين على دالية الجيران كفرخ دب، واخترقَ حنكَهُ عودٌ يابس!

قالت له في المشفى شفتان رقيقتان هما شفتا أمه: روحك فارغة. ألا تشعر بها؟

وقالت له فيروز من مذياع قريب: (على خط السما الزرقا مرسومه طريق النحل).

* * *

طلب رحمة

ورقة الامتحان نظيفةٌ من الإجابات، تتثاءبُ في وجه المصحح!

في وَسَطها رسمتْ طالبةُ البكالوريا مستطيلاً مزخرفاً، كتبتْ فيه:

(أيها المصحح الطيِّب.. صباحُ الخير، أريد أن تقدم لي خدمة إكراماً لله، للنبيِّ، لأمك وأبيك.

أرجوك قل لقلمك الأحمر أن يرحمني.

أنــا لستُ طالبة عاديــة. عندي وضعٌ خاص سأشرحه لك، واترك الأمرَ بيننا..

سيخطبني يــا أستاذ شابٌّ حلوٌ مناسب لكنَّ شبانَ هــذه الأيام صــاروا لا يسألون عن جمال البنت وأخلاقها، إنهــم يسألون عن شهادتها من أجل الوظيفة والراتب!

أيهــا المصحح الكريم.. أرجوك مرة ثانية أن تساعدني، فإذا لم تفعل طــار العريس وعنوستي في رقبتك).

* * *

نزهة

قطارنــا يتألــف من ســت عربــات فقط. أبي عربــةُ القيادة، ونحن أبنــاؤه الخمسة باقي العربات.

لا يتحرك قطارنا إلا في غرف البيت، يصيح أبــي: تشي.. تشي، ويمشي، وقبــل السير يسألنا أبي:

- أين تريدون أن تتنزهوا؟

نجيبه مثلاً:

- دمشق.

يصفر أبي، وينطلق، ولأنَّ دمشق بعيدة يطيل القطــارُ دوراته قبل أن يقف. عند الوقوف يقول أبي:

- هيا انزلوا. وصلنا.

ويبدأ في الحديث وكأننا في دمشق:

- هذا سوق الحميدية يــا أولاد. انظروا ما أحلاه! هل تريــدون أكل البوظة؟ هيا ندخل إلى هذا البائع الأنيق.

كنَّا صغاراً نُصدِّق أننا تنزهنا في دمشق، وكنَّا نحكي أمام أولاد الجيران، فيحسدوننا على كثرة نزهاتنا التي لا يخامرهم شك في أنها حقيقية. اليوم كبرنا، وفهمنا أنَّ أبي كان فقيراً انتصر على فقره بالمرح.

* * *

رجل هائج

نظرَ وليد إلى الرجل الهائج أمامه في المرآة. قال:

- ماذا تريد؟

- معي حمولة.

- أين هي؟

أشار الرجل الهائج إلى قلبه.

- تريد أن تفرغها؟

- طبعاً.. حمولةُ القلب قاتلة!

- تعال.

خرجَ الرجل من المرآة، ومشى مع وليد.

قالت حبيبة وليد.

- ارتفعت أسعار القماش! دعني وحدي.

قال البحر:

- ابتعـدْ عني. أمـا تكفيني المجـاري التي تصبُّ في جوفي!

قالت السماء:

- آه.. يكفيني دخان الأرض!

قال القلم:

- أصابتني الجلطة! ارحمني قليلاً.

عـاد وليد إلى المرآة. تبادلَ النظرَ مع الرجل الهائج. كانت الحمولةُ تزداد.

❁ ❁ ❁

صدمة

فتحتْ سحابةٌ عينيها بعد النوم، رفعتْ رأسَها إلى فوق، لم تجدِ السماء!

صرخت برعب: وطني الأزرق.. أين أنت؟!

تلفتتْ تبحـث عن العصافير لتسألها. لم تعثر على أيٍّ منها!

كانت السحابةُ تفكر في صباح جميل تقضيه في وطنها الأزرق

تمزمـز فيه رشفات مـن الزرقة كما يمزمز الناسُ القهوةَ في صباحاتهم.

شعـرت السحابةُ برائحة حريـق تخرج من روحها

وجهتْ رأسَهـا نحو الأسفل. اندفعتْ بسرعة جنونية تاركةً وراءها خطاً طويلاً من الدمع.

على شرفة منزل ظهرت امرأة لتنشر غسيلها،

كان علـى الحبل قميصٌ أسـود لم تعرف من أين جاء!!.

المعول والذاكرة

✽
يونس محمود يونس

ضربات المعول التي انهمرت على قبره. أيقظت ذاكرته من سباتها العميق. إذ إنّ دهراً مضى وانقضى من دون أن يعرف مكانه أحد، ومروج الأرض امتصت كل خلايا جسده.

لم يبق منه سوى هيكل من العظام، ولولا اسمه العظيم وسيرته العظيمة لما أدركه خصومه من أجل مواجهة جديدة، ولما اضطرته هذه المواجهة إلى تذكر جيشه الرابض أمام خيمته العظيمة.

إنّ صورة الجيش وحدها تكفّلت بإعادة الطمأنينة إلى عظامه، وها هي ذاكرته تعرض له أجمل انتصاراته، وصهيل الخيول كأنها تناديه. ما يعني أنّ عهده بمرافقيه وقادة جيشه لم يزل على حاله.

وكما لو أنه في خيمته بين الجواري والغلمان. وقف في المكان الذي اعتاد الوقوف فيه ليلقي نظرة على قادته الرابضين على خيولهم. فرآهم وألقى تحيته عليهم. كما

✽ قاص وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان أسامة الهاشم.

رأى صفوف الخيالة الأشداء، ومن بعدهم رأى الجنود المشاة بحرابهم وسهامهم، وإذ رآهم على تلك الصورة المُرْضية. قال يسألهم:

- هل سمعتم؟

فأجابوه بصوت واحد:

- نعم يا سيدنا. لقد سمعنا.

هكذا جاءه الجواب قوياً هادراً كالرعد. فاطمأنّ المحارب العظيم إلى أنّ أحداً لن يجرؤ على الاقتراب منه، وهذا ما جعله يعود إلى فراشه ليرقد من جديد. لكنه وقبل أن يرقد تماماً. سأل الحسناء التي تقدم له الشراب:

- هل الطقس بارد في الخارج؟

فأجابته الحسناء بقولها:

- نعم. الطقس بارد سيدي.

- إذن، هات كأساً من النبيذ.

كان مطمئناً إلى أنه سيشرب النبيذ وينام. غير أنّ ضربات المعول عادت واستأثرت بسمعه من جديد. فنهض وسأل قادته مرة أخرى:

- ألا تظنون معي أنّ هناك من يعلن الحرب علينا؟

فأجابوه كما في المرة الأولى:

- ما تقوله صحيح يا سيدنا.

- إذن، هي الحرب!

- أجل يا سيدنا.

- وماذا تنتظرون؟

- ننتظر خروجك إلينا.

- أخرجوني أيها الحمقى.

- لا نستطيع.

- كيف لا تستطيعون؟

- لأننا لا نعرف مكانك!؟ دهر مضى ولا أحد يعرف أين أنت. الذين شيعوك إلى قبرك أوصيتنا بقتلهم كي لا يفضحوا سرك الأخير.

- وقتلتموهم؟

- نعم يا سيدنا.

تملّك المحارب القديم حزن شديد. لأنّ ضربات المعول لم تتوقف، والمؤامرات كأنها عادت إلى محيطه من حيث توقفت. ما يعني أنّ هناك من يرغبون في الانتقام منه.

«لا شك في ذلك»

هذا ما قاله لنفسه وهو يتذكر صهيل الخيول، وصليل السيوف، وصراخ القتلى، وعويل الخائفين المذعورين. لقد تذكر الكثير ممّا فعله عندما كان محارباً يفني الجيوش، ويستبيح المدن، ويخرب الأرياف.

لقد فعل كل ما بوسعه. حرب بعد حرب، وانتقام بعد انتقام. كأنه خُلق ليحارب، وها هي السنوات تمضي مثل سهم طائش. أدرك ذلك عندما رأى نهايته تقترب، وحينها قرر



الانسحـــاب من هذه الدنيا. لكنه في اللحظة الأخـيرة، أمر قادته بقتـل كل من يرافقه إلى مثواه الأخير.

- اللعنة..!!

استحضر المحارب القديم كل غضبه على هـؤلاء المتآمرين الجــدد، وإذا كان صحيحاً أنّ روحــه لم تهلك، وهي تـرى كل شيء. فقد استنجد برجاله هذه المرة أيضاً. إذ قال لهم:

- إنـنـي أراكـم أيهـا الرجـال. فلِمَ لا تتحركون؟

أجابوه بصوت واحد:

- نحن لا نراك.

فقال متهكماً:

- أنتم لا تروني إذن!؟

قـال ذلك واتكأ على مرفقــه ليفكر هذه المرة في كل الاحتمــالات. إذ أعتقد أن القدر يخبئ له مواجهة أكيدة. ذلك أنّ سيرته وأفعاله في حياته لم تكن اختياراً كما قد يظن البعض، ورأيــه وشريعته لم تكن مطلقــة ونافذة أيضاً، وكيــف تكون مطلقة وهناك من يرغب ويشرّع في الجهــة المقابلة، وحتى الشرائــع المقدسة

تُخرق عادة بشرائع مقدسة أيضاً. هذه أفعال البشر، وهذا تاريخهم.

لـولا ذلك ما الذي جاء بهـؤلاء العابثين؟ وماذا جـاؤوا يفعلـون بمعاولهـم؟ مثل هذا الاعتداء الصارخ لم يكن مألوفاً في حياته. فما الذي تغير؟ وماذا لـو علم هؤلاء المجانين أنه هو من يرقد هنا؟

إذا كانـوا لا يعلمون فالأمر مُهيمن تماماً، وإذا كانـوا يعلمـون فهذا يعنـي أن المؤامرة منسوجة بعناية. لأن ضرب المعول هذه لا يقوم بها إلا من هم أشد بأساً وعداوة.

ساعـة مـن الزمن والعمل جـار من دون توقف، ثم يصل الضوء إلى عظام صدره، وها هو واحد يضحك، ثم يقول آخر متشفياً:

- هذا هو. لقد وجدناه.

شعر المحـارب العظيم بالضعف والإهانة لأنّ الأصابـع الطويلة استمـرت تنزح التراب من حولـه برفق، وها هـي جمجمته تظهر. فيهللون، ثم يصرخ أحدهم:

- لا تحركوهـا ولا تعبثـوا بهـا. إنّ هذه الجمجمـة هي الأكثر قيمة حتـى اليوم، وما سنحصل عليه بعد هذا الجهد لا يقدر بثمن. مجـرد عرضها في مراكز البحوث سيدرّ علينا الكثير من المال والشهرة.

ثم قال وصوته يرتجف طرباً:

- هذه جمجمة أشهر رجل في الدنيا. هل تعلمون ذلك؟

وبعد لحظة أصدر أوامره الجديدة:

استخدموا الفراشـي، وكونوا حذرين، لا تحركوا أية عظمة، والكاميرا.. أين الكاميرا؟ الآن يجب أن نبدأ التصوير.

- الكامـيرا جاهزة. فهل ترغب في صورة لك مع هذه الجمجمة؟

- سأنزل حتماً. لكـن ليس قبل أن يخرج هؤلاء العمـال. بعد قليل ستظهر كل عظامه، وعندئذ ندخل في المرحلة الأخيرة.

إزاء هـذه المقابلة التـي لا قِبل للمحارب القديم بها، وقد اعتبرها وحشية جديدة على كل حال. بل هـي أشد وحشية من كل ما قام به في حياته -إزاء ذلـك- قرر معاقبة هؤلاء الغزاة، وبانتظار اللحظة المناسبة. وقف أمام جنده وقال:

- مهمـا كانـوا، ومـن أي جنس كانوا. سأجعلهم يدفعون ثمن وقاحتهم. هل تسمعون ما أقول؟

فأجابوه بصوت هادر كالرعد:

- نسمعك بكل وضوح يا سيدنا.

- وسترونني عندما أظهر أمامكم؟

- بكل تأكيد يا سيدنا.

عندئذ وبانتظار اللحظة المناسبة. طلب من الحسناء التي تقدم له الشراب قدحاً آخر من النبيذ. إذ كان معتاداً على تناول النبيذ في مثل هذه الأوقات العصيبة. فلما ناولته الحسناء القدح. شربه دفعة واحدة، ثم استلقى على سريره وهو مطمئن إلى نجاح خطته التي أبقاها سرية كما هي عادته دائماً.

لكنه وفي تلك اللحظة ذاتها. كأنه سمع من يقول له:

هيهات.. هيهات..

لقد اخترق الصوت كيانه كالرمح. فلبد في مكانه من شدة الألم، وكم كان قاسياً هذا الألم..

أنثروبولوجيا الثقافة الإنسانية

د. فايز حداد *

ليس خافياً على أحد أن الثقافة هي النبراس الذي يضيء الحاضر والمستقبل، وهي التي تستطيع نقل الفرد من رتابة الحياة إلى متعة البحث والاستكشاف، ويعتبر الوجه الثقافي لأية أمة هو المرآة التي تعكس ما لهذه الأمة من سمات حضارية، ومن ملامح معرفية يمكن من خلالها قياس درجات الوعي الإنساني ومدى اتساقه مع معطيات العصر وآليات التطور والتقدم، ومن هنا فإن إضاءة هذا الوجه الثقافي يعطي العمل الثقافي مطلباً إنسانياً في الدرجة الأولى، ويعطي أن فعل التثقيف مسؤولية كل فرد يحرص على أن يبقى مجتمعه جديراً بالتحقق وسط عالم يركض صوب معرفة أبعد، وصوب آفاق تنفتح بسلطان العلم، ومما يسترعي الانتباه أن الثقافة هي النقطة المحورية التي تتأسس منها رؤيتنا لهذه الأمة أو تلك وتتحدد انطباعاتنا الأولى عنها.

---

* أديب وناقد سوري.

وقد عرَّف بعض الباحثين الثقافة بأنها كل تشابك يعتمد على عقيدة الأمة ونظرتها للإنسان والكون والحياة، وعلى فلسفتها ومثلها يضاف إلى ذلك التقاليد والعادات والقوانين والتعليم والأخلاق والفنون والعمارة... ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن الثقافة لا تتحدد بمجرد الكتابة والقراءة، بل هي الإنسان نفسه، هي الوجه والميسم والعنوان الذي يجسد حركة الزمن وثبوت المكان، وهي الهوية التي يحملها الإنسان، وبها يتعامل مع مختلف التجارب، وبها يتصرف ويتحدث ويعمل.

وفي كتاب «لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟» الذي يعتبر دراسة منهجية جادة ورائدة في مجال الأنثروبولوجيا والثقافة الاجتماعية، يلتزم مؤلفه «مايكل كاردرس» Michael Carrithers أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بجامعة دورهام بإنكلترا، وصاحب الدراسات الأنثروبولوجية النظرية والميدانية العديدة، التي طبق فيها مناهج البحث العلمي الحديثة، الذي تهتم مجمل أبحاثه بمجالات عدة، منها العقيدة البوذية، والعقيدة اليانية، وأنثروبولوجيا حضارات الهند وسيريلانكا، وتطور ذكاء الإنسان منهجاً بحثياً علمياً جديداً، وهو المنهج التفكيكي، الذي يعتبر إحدى أهم ثمار نزعة ما بعد الحداثة، ليطل من خلاله إطلالة عقلانية نقدية، تناقش بشكل علمي ومنهجي جريء وجديد، أسس الروح الاجتماعية المميزة للمجتمع البشري، وإزاء هذه المناقشة، نجد أنفسنا وقد وضعنا في خضم القضايا والتساؤلات التي طرحها الكتاب، عبر فصوله التسعة، حيث لا مناص من مناقشة أنفسنا، ونقدنا المتأني للواقع المحيط بنا، بل والتفتيش في التاريخ الثقافي الذي تربينا عليه، ونحن نظن أنه حقيقة مبرأة من الغرض، ومن ثم نحاول، بالقدر نفسه من الجرأة، مناقشة أنفسنا وفكرنا وعلاقاتنا الاجتماعية، شريطة أن نلمس المنهجية نفسها في البحث والنظر.

يبدأ «مايكل كاريذرس» كتابه بتبيان أن تفسير قابلية البشر للتغير أصعب مما كنَّا نعتقد أو نظن، فنحن لسنا مجرد حيوانات تصوغها مجتمعاتها وثقافاتها في قوالب على نحو سلبي وكل في إطاره، بل إننا أيضاً نصنع مجتمعاتنا بفعالية ونشاط، فكما قال «موريس غودلييه»: «إن البشر على نقيض الحيوانات الاجتماعية الأخرى، حياتهم ليست مجرد حياة في مجتمع، وإنما هم ينتجون المجتمع ليعيشوا فيه، وهذا الفعل يستلزم قدرات ذات فعاليات وتأثيرات تثير الإعجاب». ولهذا يؤكد «كاريذرس» أننا طورنا تلك القدرات نفسها التي يلخصها في عبارة «الروح الاجتماعية» وتشتمل هذه القدرات على الذكاء الاجتماعي، والوعي المكثف بالذات وبالآخر وبالابتكارية، والفكر الروائي، وجميعها تمثل الطبيعة البشرية المشتركة التي تشكل أساساً لقابلية التغير الاجتماعي والثقافي.

ولعلَّ إطلالة المؤلف على الفكر الروائي تهمنا هنا كثيراً، نظراً لأننا مازلنا أسرى حقبة الثقافة الاجتماعية الشفاهية التي تحيا على

الرواية من دون نقدية، ومن ثم فنحن بحاجة إلى تأمل الفكر الروائي الذي يملأ جنبات حياتنا حاضراً وماضياً، فهو الذي ينطوي على مختلف قدرات الإنسان من فهم وتفسير وتأويل وتخييل، وقد تتصف هذه القدرات أو يصيبها من عوامل سلبية، وانحيازات متأصلة في طبيعتنا كبشر.

إطلالة أخرى يجتهد المؤلف في القيام بها، وهي تحليله وتفكيكه الصبور لإحدى الثقافات العالمية وهي: البوذية، إحدى أهم الثقافات الأولى في العالم، من حيث تعداد المؤمنين بها وعراقة تاريخهم الحضاري الطويل، متوصلاً إلى أنها، شأنها شأن كل الثقافات، ابتكار بشري محض في مواجهة الإنسان / المجتمع للحياة، فهي صورة مبتكرة عن الحياة، ونهج إنساني إبداعي للتعامل، لكي تمضي الحياة ولا تتوقف أمام ألغاز معقدة ومتشابكة، وصولاً إلى رؤية إنسانية أشمل، تتطابق مع مقولة الفيلسوف الهندي «رادها كريشان»: «إذا تعالينا عن مظاهر الاختلاف بين المعتقدات والثقافات، فسنجدها جميعاً واحدة لأن الإنسانية في جوهرها واحدة، وإن تنوعت وتعددت ثقافاتها»، وهذا هو عين ما يكشف عنه «كاريذرس» في نهاية كتابه: الجوهر الواحد للإنسانية، روح المعاشرة الاجتماعية، علة نشوء الثقافات وإن تعددت وتنوعت.

وعبر ثلاثة فصول من الكتاب، يستطلع المؤلف القدرات المنطوية عليها عبارته «الروح الاجتماعية» التي عددناها سابقاً، معطياً الأولوية للفكر الروائي، حيث لم يحظ بدراسة كافية، علاوة على أنه يوجز الروح الاجتماعية البشرية، على النحو الذي يتيح للناس إمكانية العمل، وهم على وعي بفيض الأحداث الغارقين فيها، موضحاً كيف أن عالمنا الاجتماعي ومعارفنا في تفاعل دائم، مبرراً كذلك الطبيعة التحولية للخبرة البشرية، أو ما لدينا من خصوبة إبداعية فريدة الأشكال الاجتماعية، وكيف أنها وثيقة الصلة بهذه الخاصية التفاعلية.

وقد ركز «كاريذرس» في النصف الأول من كتابه، على نطاق صغير ومحدود من الخبرة الاجتماعية، متأثراً بشكل واضح بالتيارات العديدة السائدة في العلوم الاجتماعية التي لخصها هو في عبارة «النزعة التبادلية - Mutualsim» ونال أحد هذه التيارات منه اهتماماً خاصاً، وهو التيار المعني بأدق أنواع التحلل الممكنة للتفاعلات، التي تجري بين اثنين أو أكثر من الناس، ويتناولها الواحد بعد الآخر. ومثل هذا النوع من التحليل يجريه -في علم الاجتماع- علماء متخصصون في مناهج البحث أو «الاثنوغرافية- Ethnomethodologis»، وإخصائيون في تحليل المحادثات، كما يجريها في علوم اللسانيات باحثون متخصصون في التفاعل الاجتماعي -اللغوي أو «Interactiv Soccio Linguist».

نستطيع أن نقول أخيراً، إن «مايكل كاريذرس» يعالج في كتابه هذا، ولو بطريقة تخطيطية عادية، مساحة كبيرة من دائرة المسائل التي تؤلف في مجملها مشكلة علم الأنثروبولوجيا والبشرية،

من حيث هي وحدة في تنوع، وذلك بتوجيه ثلاثة أسئلة وثيقة الصلة فيما بينها، أولاً: «ما هي الوحدة التي يقوم عليها التنوع الثقافي للبشر؟ »الذي كانت إجابة المؤلف عليه هي أننا، بصفتنا بشراً، لدينا مجموعة خاصة ومميزة من السمات والقدرات هي الروح الاجتماعية».

وعلى الرغم من استفاضة المؤلف فيشرح إجابته تلك وتأكيدها من الأمثلة والشواهد، فقد ظلت إجابة غير مكتملة، خاصة أنه نفسه قد أسقط العديد من الاحتمالات الواعدة، وأعني الكثير من الصفات التي يمكن أن تشتمل عليها «الوحدة النفسية للنوع البشري»، وعلى الرغم من ذلك أيضاً، يشدد «كاريذرس» على تلك «الأمور المشتركة» بيننا جميعاً، لأنها «هي التي هيأت لنا أن نختلف هذا الاختلاف العقلي العظيم».!

هذه الاعتبارات نفسها، قادت المؤلف إلى السؤال الثاني: «كيف تولد التنوع؟» وأمام هذا السؤال الصعب، لم يستطع «كاريذرس» معالجة كل الموضوعات المرتبطة به، وإنما قنع ببيان «كيف يمكن أن ينشأ التنوع؟» وكانت إجابته: «إن الناس ليسوا فقط قادرين على اقتفاء فيض معقد من النشاط والأحداث، بل أيضاً قادرون على الاستجابة بطريقة ملائمة داخل هذا الفيض نفسه. وهذه الإجابة نفسها تقودنا إلى السؤال الثالث والأخير: «كيف يتسنى لنا أن نفهم عن ثقة ذلك التنوع؟». وكانت الإجابة: إن أساس المعارف الأنثروبولوجية ليس مختلفاً عن أساس المعرفة عند إنسان في العالم الاجتماعي، وعلى الرغم من مجانية هذه الإجابة، فهي تتميز كذلك بملاءمتها للسلوك المرن القابل للتكيف الخاص بالعلاقات البشرية، وكثير من الباحثين الأنثروبولوجيين يحولون هذه المعارف الاجتماعية إلى نوع آخر من المعرفة، هو ما اصطلحنا عليه باسم الإثنوغرافيا، وهو أسلوب من أساليب التعلم القائم على نموذج قياسي وثيق الصلة بجماعة محددة من الناس، في أماكن وأوقات بعينها.

إن تعريف علم الأنثروبولوجيا نفسه، كما يشير «مايكل كاريذرس» في تصديره لهذا الكتاب، هو تحديداً مسألة فهم، أعني أن يفهم أبناء مجتمع ما، أو ثقافة ما، أبناء مجتمع آخر، أو ثقافة أخرى، وإذا ما كان علم الأنثروبولوجيا يقدم علاجاً لأمراض ما، أو -على الأقل- يسهل المقدمات الأساسية لمعرفة عناصر التداخل بين مفهوم الحضارة الإنسانية الواحدة والثقافات المتعددة فإنه يعني، بالضرورة، وضع تحديدات دلالية وقيمية وإبداعية لكل منهما، ويؤدي بالتالي إلى الاندماج والتكيف البنيوي بين الخصوصيات، الثقافية: القومية والوطنية، التي شكلت في مساراتها التاريخية المديدة حضارة عالمية واحدة ذات أنماط ثقافية متعددة، تمتلك طاقتها الذاتية المتمايزة في رؤيتها العامة للعالم. ومثل هذا التمايز الثقافي هو الذي منحها العالمية والشمولية لتشكيل وتمتين وتأصيل الحضارة الإنسانية الواحدة بتعديات أدواتها وارتكازاتها النظرية والوجدانية والروحية والعلمية.

شبكات التواصل الاجتماعي والصخب الإعلامي الجديد

د. تركي صقر

حققت شبكات التواصل الاجتماعي قفزة نوعية في عالم الاتصال والإعلام خلال السنوات القليلة الماضية وتركت الإعلام الكلاسيكي يلهث وراءها وقد لا يمضي وقت طويل حتى يكون هـذا الإعلام قد عفا عليه الزمن الأمر الذي يؤكـد أننا أمام انقلاب حقيقي جديد في ثورة الاتصـالات محورها الأساسي شبكات الإعلام أو التواصـل الاجتماعي إذ لم يعرف مصطلح التواصـل الاجتماعي إلكترونياً إلا في وقتنـا الحاضر، ولم يدرك العقل البشري أن هذه الثورة التكنولوجيـة ستجعل العالم ليس مجرد قرية صغيرة كما يقال، وإنما أقرب ما يكون إلى طاولة مستديرة للاجتماعات والنقاشـات. وعلينا أن نتصور ضمن هذا التقارب الشديد بين البشر التأثير البالغ لهذه الشبكات على الدول والمجتمعات والفضاء الإنساني بوجه عام.

❁ كاتب وصحفي ودبلوماسي سوري.

وما نشاهده اليوم من مفاعيل لها في الحراك الشعبي العربي الجاري سواء سلباً أم إيجاباً يدعونا للوقوف أمام ظاهرة من نوع جديد بدأت تمسك بزمام المبادرة في عملية التغيير وتقرير مصير العديد من القضايا المستقبلية في حياة الشعوب دون أن نتجاهل أو نغفل مقدرة القوى الكبرى في العالم على استغلال هذه الظاهرة لصالحها باعتبارها تمتلك الإمكانيات المؤسسة والمحركة لشبكات التواصل الاجتماعي العملاقة على المستوى العالمي.

١- تعريف شبكات التواصل ونشأتها:

هي عبارة عن خدمات تقدمها الشبكات الاجتماعية التي تؤسسها وتبرمجها شركات كبرى لجمع المستخدمين والأصدقاء ومشاركة الأنشطة والاهتمامات، وللبحث عن تكوين صداقات والبحث عن اهتمامات وأنشطة لدى أشخاص آخرين.

ومعظم الشبكات الاجتماعية الموجودة حالياً هي عبارة عن مواقع ويب تقدم مجموعة من الخدمات للمستخدمين مثل المحادثة الفورية والرسائل الخاصة والبريد الإلكتروني والفيديو والتدوين ومشاركة الملفات وغيرها من الخدمات. ومن الواضح أن تلك الشبكات الاجتماعية قد أحدثت تغيّراً كبيراً في كيفية الاتصال والمشاركة بين الأشخاص والمجتمعات وتبادل المعلومات. وتلك الشبكات الاجتماعية تجمع الملايين من المستخدمين في الوقت الحالي وتنقسم تلك الشبكات الاجتماعية حسب الأغراض فهناك شبكات تجمع أصدقاء الدراسة وأخرى تجمع أصدقاء العمل إضافة لشبكات التدوين المصغرة، ومن أشهر الشبكات الاجتماعية الموجودة حالياً فيس بوك وماي سبيس وتويتر ولايف بوون وهاي فايف وأوركت و جوجل بلس.

أما نشأتها فقد كانت من خلال مجموعة من الشبكات الاجتماعية بدأت في الظهور أواخر التسعينيات مثل Classmates.com عام ١٩٩٥م للربط بين زملاء الدراسة وموقع SixDegrees.com عام ١٩٩٧م وركز ذلك الموقع على الروابط المباشرة بين الأشخاص. وظهرت في تلك المواقع الملفات الشخصية للمستخدمين وخدمة إرسال الرسائل الخاصة لمجموعة من الأصدقاء. وعلى الرغم من توفير تلك المواقع لخدمات مشابهة لما توجد في الشبكات الاجتماعية الحالية إلا أن تلك المواقع لم تستطع أن تدر ربحاً لمالكيها وتم إغلاقها. وبعد ذلك ظهرت مجموعة من الشبكات الاجتماعية التي لم تستطع أن تحقق النجاح الكبير بين الأعوام ١٩٩٩ و٢٠٠١م. و مع بداية عام ٢٠٠٥م ظهر موقع يبلغ عدد مشاهدات صفحاته أكثر من جوجل وهو موقع ماي سبيس الأميركي الشهير ويعتبر من أوائل وأكبر الشبكات الاجتماعية على مستوى العالم ومعه منافسه الشهير فيس بوك والذي بدأ أيضاً في الانتشار المتوازي مع ماي سبيس حتى قام فيس بوك في عام ٢٠٠٧م بإتاحة تكوين التطبيقات للمطورين وهذا ما أدى إلى زيادة أعداد مستخدمي فيس بوك بشكل كبير ويعتقد أن عددهم حالياً يتجاوز

٥٠٠ مليون مستخدم على مستوى العالم.

تلك الشبكات الاجتماعية أصبحت محل الدراسة للكثير من الدارسين في مجال المجتمعات والباحثين في عدد من المواضيع مثل الخصوصية والهوية ورأس مال المجتمعات واستخدامات المراهقين.

٢- شبكات التواصل الاجتماعي العربية:

هناك بعض الشبكات الاجتماعية العربية التي ظهرت مؤخراً ولكنها لا ترقى لمنافسة الخدمات التي تقدمها الشبكات الاجتماعية الكبرى ومن أمثلة تلك الشبكات الاجتماعية العربية «مكتوب» وهو من أكبر وأشهر المواقع والتي طورت في نظامها شبكة اجتماعية تجمع مستخدمي الموقع وتقدم لهم العديد من الخدمات. ومن الشبكات العربية الأخرى إخوان بوك وشبكة مدينة وفايع واكبس و SerirZ.

ولا تتوقف هذه الشبكات الاجتماعية فقط عند الربط بين الأصدقاء والأشخاص بل هناك شبكات تجمع صنّاع الأعمال وأصحاب الشركات والعاملين بها والمثال الأشهر على ذلك موقع لينكد إن والذي جمع أكثر من ٢٠ مليون مستخدم وأكثر من ١٥٠ حرفة مختلفة.

٣- مزايا شبكات التواصل الاجتماعي:

من خلال تلك الشبكات يمكن للمستخدم كتابة سيرته الذاتية في مجال تعليمه وعمله ويمكن أن يدعو أصدقاءه لتزكيته لأشخاص آخرين لبدء مجالات عمل جديدة فيما بينهم، لذلك فتلك الشبكات تعتبر من المجالات التي تتسم بمستقبل كبير بعيداً عن صراع الشبكات الاجتماعية الكبرى.

ومع نضج تجربة تداول الآراء والنقاشات في محيط هذه الشبكات، إلا أن الانفتاح في عالم التدوين والتواصل يحتاج دوماً إلى عوامل مساعدة ترسخ لمفهوم التواصل نفسه، على أساس متين يعمق الأداء المعرفي ويطرح الثقافة الموسوعية البديلة، التي لا تعتمد على النقل وسياسة اتّباع القطيع التي يعتمدها أغلب الموجودين على هذه المواقع. ففي عالمنا العربي لا نزال نفتقد لاستقرار كثير من مفاهيم حرية الرأي وقبول فكرة الاختلاف، واستيعاب التغريدات التي تأتي خارج السرب، من باب احترام الآخر وتثمين آرائه.

فهذه المواقع أوجدت للبعض مكاناً مريحاً مكنّه من طرح بعض إبداعاته، وحفزته على الاستمرار في العطاء وصقل تجاربه الذاتية في الكتابة ونحوها، بل استطاعت أن تقدم بدائل مفيدة في عالم الأخبار وسرعة وصول المعلومة وتعددها. ويمكننا الآن أن نترحم على إذاعة لندن، التي لعبت في فترة ما دوراً في الانفرادات الإخبارية، وكما يقال اليوم «حصرياً»، ولعل هذا ما دفع البعض إلى استثمار هذه المواقع لطرح بعض المشكلات الاجتماعية وعرضها للنقاش، وتبني بعض القضايا والدفاع عنها.

وقد استطاع البعض أن ينفذ في مسام أفكار الآخرين بصورة غير مسبوقة، فإذا أردت أن تتعرف على هذه الشخصية أو تلك، ما عليك إلا الولوج إلى صفحته الخاصة وقراءة عناوين اهتماماته، لتفهم الجزء غير المرئي من شخصيته.

ومن ناحية ثانية، قدمت هذه المواقع خدمة

للمدوّنين لقياس نبض القارئ بصورة مباشرة وسريعة، وقد اعتمدت كثير من الشبكات المتلفزة على هذه المواقع، لرصد ردود الأفعال في حينها وتمكين المشاهد من تقديم مداخلاته في بعض برامجها المباشرة.

ومؤخراً مكّنت هذه المواقع بعض المرشحين للمجالس المحلية والنيابية، من الالتقاء مع الجمهور مباشرة، وكانت استثماراً جيداً لبعض الحملات الانتخابية التي رافقت فترة ما قبل الانتخاب، واستطاع البعض إجراء كثير من المداخلات وبنجاح، لتقريب المسافات، خاصة وأن بعض الشخصيات، مغمورة وغير معروفة لكثير من الناس، فأوجدت مناخاً صحياً للتأثير في الناخب من دون وسيط أو مفاتيح انتخابية.

ولقد لمس بعض المتتبعين لهذه المواقع والمهتمين، ميزة الاستشعار أو القدرة على قياس نبض الشارع، من خلال الاطلاع على بعض الآراء العامة تجاه بعض القضايا التي يتم طرحها عبر وسائل الإعلام اليومية، بل وتفنيدها بناء على معايير الثقافة والبيئة والمستوى الاجتماعي للمدوّن. وربما يمكن القول إن التباين في الآراء يكاد يكون مفقوداً أحياناً، فالاختلاف مطلوب، لأنه يدل على تحرر العقل البشري من الانقياد خلف الآخرين، وتكوين وجهات نظر خاصة لها من القوة والرصانة ما يمكنها من عرضها، من دون محاباة أو تزييف. وكم هي القضايا الاجتماعية التي تقتلها الأحادية المفرطة، والتبني العاطفي غير السوي.

وهذا المناخ الذي يسود بين فترة وأخرى يفرز تأجيجاً للعواطف، بعيداً عن المنطق واعتماد أسلوب الأخذ والرد، وخلق أجواء موتورة يمكن أن تؤثر سلباً في الجهود المبذولة، وتحبط العزائم وتجهض تاريخ بعض الشخصيات، لمجرد هفوات قد تحدث من دون تعمد. وإذا أردنا أن نكون على مستوى حدث ما، فلا بدّ أن نتيح لأنفسنا فرصة للاطلاع، ونمنح الآخر فرصة لأخذ حقه في الرد، وعدم التسرع في الكر والفر، وأن نحسن الظن في بعضنا البعض، حتى تكون لآرائنا مصداقية وبعد نظر، وتكون نتيجة وليست سبباً. فالانفعالية التي يتميز بها كثير من البشر، لا تؤسس لمشروع ثقافي اجتماعي توعوي إنساني على المدى البعيد، بل تجعلنا نراوح في أماكننا.

٤- تأثير شبكات التواصل الاجتماعي في منطقة الشرق الأوسط:

أظهرت دراسة حديثة أن منطقة الشرق الأوسط باتت تعتمد أكثر فأكثر على التواصل عبر الشبكات الاجتماعية الرقمية بالمقارنة مع أشكال التواصل الشخصي الأخرى ومنها التواصل وجهاً لوجه، أو عبر البريد الإلكتروني أو الهاتف. وأشارت الدراسة التي أجرتها «يونيفيرسال ماكان» وهي شركة عالمية متخصصة في مجال تقديم الاستشارات الإعلامية والتسويقية، إلى أن هناك اتصالاً بين كل فرد في المنطقة، مع حوالي ٣٨ شخصاً عبر شبكات الإعلام الاجتماعي بشكل منتظم.

ولفتت نتائج الدراسة إلى تطور دور هذه

الشبكات من مصدر للمعلومات والتسوق لتصبح مرآة لحياة المستخدمين الذين يقومون بتحديث صفحاتهم باستمرار لنقل أحوالهم وتغطية مجريات حياتهم اليومية من خلال تحميل الصور وأفلام الفيديو وكتابة الآراء والتعليقات بشكل منتظم.

وإضافة إلى مشاهدة وتشاطر «كليبات الفيديو» عبر الشبكة الإلكترونية واستخدام التراسل الفوري وزيارة صفحات أصدقائهم على شبكات الإعلام الاجتماعي وقراءة المدوّنات، فإن عدداً متزايداً من المستخدمين الناشطين للإنترنت في المنطقة، بلغ متوسطه ٦٠٪ قد فتح صفحة شخصية على أحد مواقع الشبكات الاجتماعية خلال الشهور الستة الماضية.

وأظهرت الدراسة أن أكثر من نصف المستخدمين الناشطين للإنترنت في المنطقة (يستخدمون الشبكة بمعدل كل يوم أو يومين) يمتلكون أجهزة كمبيوتر محمولة تتصل بالإنترنت عبر حزمة النطاق العريض. ويقوم حوالي ٩٠٪ من أولئك بالتواصل الشبكي من منازلهم بالمقارنة مع ٢٠٪ يستعملون خدمات الإنترنت عبر أجهزة الموبايل المحمولة.

٥- تأثير الشبكات على منظومة الأفكار والمشاعر والسلوك:

يمكن القول إن الإعلام الاجتماعي يعمل على تغيير طريقة تواصلنا مع الآخرين ويؤثر بشكل أساسي على أفكارنا ومشاعرنا ومواقفنا وسلوكنا. وبالنسبة لخبراء اتصالات التسويق من المهم جداً أن يقوموا بدراسة وفهم كيفية استخدام المستهلكين لشبكات الإعلام الاجتماعي وتأثيرها عليهم، بغية مساعدة الشركات لتعزيز حصة منتجاتها في الأسواق وزيادة المبيعات وتنمية الولاء لعلاماتها التجارية وتعزيز سمعتها.

وأهمية شبكات الإعلام الاجتماعي تكمن في خلق مجموعات اجتماعية رقمية مؤلفة من أصدقاء يتشاطرون الاهتمامات أو الاحتياجات نفسها. حيث بينت نتائج إحدى الدراسات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أن حوالي ٥٧٪قاموا بزيارة المواقع الشبكية الرسمية لتلك الشركات و٢٦٪ انضموا إلى إحدى الصفحات الخاصة بالتواصل مع مستخدمين آخرين مهتمين بماركات تجارية معينة. ومن هؤلاء أعرب ٧٣٪عن شعورهم بمزيد من الولاء لتلك الماركات بينما قال ٧٢٪ أنهم من الممكن أن يقوموا بشراء منتجات الشركة المعنية، و٦٣٪ قالوا إنهم أوصوا معارفهم بالانضمام إلى تلك المجموعات.

وهنا لا بدَّ للشركات صاحبة العلامات التجارية المرموقة من تفهّم أسباب مشاركة مجموعات مختلفة من المستهلكين في هذا العالم الجديد والمواقع التي تختارها للقيام بذلك. ولا تنحصر المسألة في التعرُّف إلى أفضل المواقع التي يتوجب استهدافها، وهو الأسلوب الكلاسيكي لتخطيط أو شراء المساحات الإعلانية في الوسائط الإعلامية، ولكنها تمتد لتشمل معرفة الأسباب التي تدفع الناس للانضمام إلى تلك المجموعات. وحين تفهم ذلك، تستطيع الماركات

تنظيم حملات وتوجيه رسائل وإنشاء مجموعات يرغب المستهلكون بالانضمام إليها، بحيث تغطي رسالتها الإعلامية عدداً أكبر من المستهلكين والمناطق بشكل أكثر فعالية من مجرد شراء المساحات الإعلانية في تلك المواقع.

وتعتبر تقارير «ويف» سلسلة من البحوث العالمية التي يتم تنظيمها سنوياً بهدف تفهّم الطبيعة المعقدة والديناميكية لسلوكيات وسائل الإعلام الاجتماعي. وتقوم تلك البحوث بتحليل الاستخدام المتنامي والمتنوّع لمنصّات هذا الإعلام وتوجهاته عبر العالم. ويغطي التقرير السنوي الخامس ٣٧,٦٠٠ مستخدم نشط للإنترنت تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٥٤ عاماً من ٥٤ دولة، بما فيها ١٠ من دول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، هي الجزائر ومملكة البحرين ومصر والمملكة العربية السعودية والكويت ولبنان وسلطنة عُمان وقطر وتونس ودولة الإمارات العربية.

٦- مواقف دولية متناقضة من شبكات التواصل الاجتماعي:

نتيجة قوة تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على الرأي العام توقعت كثير من الدول أن ينجم عن ذلك مخاطر في مقدمتها احتمالات فقدان السيطرة وخاصة على جيل الشباب فعمدت إلى فرض قيود بهذا القدر أو ذاك ومن أكثر الدول تحسساً لهذه المسألة الصين حيث فرضت السلطات الصينية رقابة على التعليقات المنشورة عبر مواقع التواصل الاجتماعي الإلكترونية ويتردّد أنها اعترضت بعض خدمات الهواتف الخلوية خلال احتجاجات نظمت ضد مصنع للكيماويات في مدينة داليان، شمال شرقي البلاد.

لم يشعر الكثيرون بالدهشة إزاء رد فعل الحكومة الصينية، فهي قد اعتادت فرض رقابة على الإنترنت وحجب مواقع مثل تويتر وفيسبوك وخدمات تواصل اجتماعي إعلامية دولية أخرى، بل وتحذف التعليقات الناقدة من مواقع المدوّنات الصينية وتشمل أدوات الرقابة في الصين تصفية كلمات البحث الأساسية وفرض رقابة لصيقة على المدوّنات الصغيرة وكذلك هواتف النشطاء المعروفين.

غير أن النشطاء غالباً ما يتغلبون على هذه القيود بتحويل نسق النص إلى صورة أو من خلال إرسال صورة شاشة بالتدوينات التي تم حذفها.

ومن بعد الصين فوجئ الكثيرون بموقف الحكومة البريطانية الذي دعا إلى فرض رقابة على مواقع شبكات التواصل الاجتماعي في أعقاب أحداث الشغب في المدن البريطانية فيما كانت تدين وتستنكر على أية دولة تفعل ذلك وهكذا وجدت الصين لها حلفاء غربيين غير متوقعين في جهودها للسيطرة على التواصل عبر الإنترنت.

ولذلك رحّبت وكالة أنباء الصين الجديدة «شينخوا» الرسمية ببيان رئيس الوزراء البريطاني «ديفيد كاميرون» الذي أصدره في أعقاب أعمال الشغب التي شهدتها العاصمة البريطانية لندن وعدد من المدن الإنجليزية الأخرى، والتي أشار فيها إلى أن حكومته ستسعى لضمان منع من من

يشتبه في أنهم يحرضون على أعمال العنف، من الاستعانة بشبكات التواصل الاجتماعي.

وقال «كاميرون» أيضا إنه يتعين على الشركات القائمة على تشغيل شبكات التواصل الاجتماعي الكبرى، أن تتحمل مزيداً من المسؤولية لمراقبة المحتوى الذي ينشر عبر الإنترنت، وهي دعوة تماثل إلى حد بعيد دعوة كثيراً ما تطلقها الحكومة الصينية.

وقالت «شينخوا» في تعليقها: إن الحكومة البريطانية التي كانت مدافعاً غيوراً وصلداً عن الحرية المطلقة في استخدام الإنترنت.. تراجعت عن موقفها إزاء مراقبة المحتوى الإلكتروني ولفتت الوكالة الصينية، إلى أن «كاميرون» حث مصر ودولاً أخرى في شمال أفريقيا في فبراير الماضي، على السماح بحرية التعبير عن الرأي بعد أن حاولت تلك الدول حجب مواقع التواصل الاجتماعي والتي لعبت دوراً محورياً في تنظيم وتسجيل ونقل الاحتجاجات المناهضة للحكومات في هذه الدول.

وأضاف التعليق: قد نتساءل عن سر نزوع الزعماء في الغرب، من ناحية، لتوجيه الاتهامات من دون تمييز لدول أخرى بفرض رقابة، وفي الوقت نفسه يعتبرون ما يقومون به.هم من إجراءات رقابة وتحكم أموراً بديهية.

وكانت الحكومة قد قطعت كل خدمات الهواتف الخلوية والإنترنت عن نحو عشرين مليون مواطن من سكان مقاطعة شينجيانغ على مدار خمسة أشهر في أعقاب مقتل نحو مئتي شخص في أعمال عنف عرقية اندلعت في يوليو ٢٠٠٩م.

وفي وقت لاحق، قال نور بيكري رئيس الحكومة الإقليمية، إن الخدمات حجبت لأنه يعتقد أنها أدوات مهمة يستخدمها زعماء العصابات في التحريض على أعمال العنف ولجأت الحكومة الصينية لإجراءات مماثلة على نطاق أضيق ولفترات أقصر في العديد من مناطق إقليم التبت المضطربة في الصين منذ اندلاع المظاهرات الاحتجاجية في ٢٠٠٨م. وظهرت حملات الرقابة عندما تزايدت أعداد مستخدمي الهواتف الخلوية والإنترنت في الصين بشكل هائل. وجاء في تعليق لـ «شينخوا»: «إن الرقابة على المحتوى الإلكتروني مشروعة وضرورية من أجل الصالح العام».

وفي تعليق آخر، قالت صحيفة «جلوبال تايمز» إنه ينبغي على الصينيين الذين ينادون بالحرية المطلقة في التواصل عبر الإنترنت أن «يفكروا مرتين» في تصريحاتهم ومواقفهم.

ووصفت الصحيفة إثارة كاميرون لفكرة فرض قيود على شبكات ووسائل التواصل الاجتماعي بأنه تصرّف جريء.

إن مقترح «كاميرون» بحجب شبكات التواصل الاجتماعي الإلكترونية يحطم المفاهيم الأساسية لحرية التعبير عن الرأي في الغرب والتي دائماً ما تدّعي ارتداء ثوب الفضيلة وتنتقد أي تطوّر يعارض حرية الإنترنت في الدول النامية.

واتهمت مجموعة معارضة للرقابة الدول الغربية باتباع معايير مزدوجة مشيرة إلى أن رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون فكر لفترة في تقييد شبكات التواصل الاجتماعي بعد أن اجتاحت أعمال الشغب مدناً إنجليزية في آب الماضي.

ويمكن أن يتكرر المشهد في الكثير من دول العالم في ظل فورة الاحتجاجات على ظلم النظام الرأسمالي وجشعه اللذين أديا إلى جوع وسحق مئات ملايين البشر وربما نستيقظ قريباً على وقع رقابة صارمة من الحكومة الأمريكية التي تعتبر نفسها حامي حمى هذه الشبكات وقلعتها الأولى في العالم وذلك بعد أن انفجرت الاحتجاجات في قلب وول ستريت معقل النظام الرأسمالي الأول.

وهنا يعجبني قول «جون كامبفنر» المدير التنفيذي لجماعة (اندكس أون سنسور شيب): «من السهل جداً الدفاع عن حقوق الإنسان الواضحة في مواجهة النظم الشمولية في أنحاء العالم لكن بمجرد أن يتعلق الأمر باستقرار الدولة على الغرار الغربي فإن حرية التعبير يمكن المساومة عليها. لأبد أن تكون هناك قاعدة واحدة للكل.. بما في ذلك الحكومات الغربية».

أما عن سورية فلا تزال شبكات التواصل الاجتماعي مثل موقع «الفيسبوك» تتداول الأخبار والصور وتبادل الآراء والنقاش حول ما يحدث في سورية وذلك منذ بدء الأزمة إضافة إلى نشر الدعوات إلى نبذ العنف والخروج من الأزمة بسلام.

وإذا كان الفيسبوك هو الرابط الأساسي ومحرك البحث عن الحرية والديمقراطية في الاحتجاجات التي انطلقت في معظم الدول العربية، فهل ارتبط حدوثها بوجوده؟

وتجد في سورية مشهداً مشابهاً، ومختلفاً، ومتفرداً عما حدث ويحدث في عواصم عربية أخرى. فصفحات الإنترنت أشبه بوكالات الأنباء، وأخرى لطرح الآراء والنقاش. وأخرى لا تزال مستمرة في الدعوة للاحتجاج بتسميات لم تنضب إلى الآن.

وبكلمة مختصرة علينا أن ندرك أن العالم يتغير من خلال التواصل الإعلامي والاجتماعي الذي بات يسابق سرعة الضوء وينبغي أن نكون كعرب فاعلين وليس منفعلين وأن نستفيد من هذا التطور الكبير لصالح قضايانا الأساسية لا أن نكون من أكثر الضحايا على مذابحه..

المصادر والهوامش:

١- من موقع ويكيبيديا. الموسوعة الحرة - شبكات التواصل الاجتماعي.
٢- من موقع أريبيان بزنس ٢٠١١/٧/٤م.
٣- مريم سالم - صحيفة البيان - ٢٠١١/١٠/١١م.
٤- من موقع مؤسسة المشهد للصحافة ٢٠١١/١١/١٢م.
٥- من موقع قلعة الكويت ٢٠١١/٨/١٧م.
٦- من موقع روسيا اليوم ٢٠١١/١١/١٢م.
٧- إيهاب الازهري - الناس على دين إذاعاتهم - دار الشروق طبعة ١٩٨٤م.
٨- من موقع وكالة أنباء شينخوا الصينية ٢٠١١/٨/٦م.
٩- من موقع صحيفة غلوبال تايمز ٢٠١١/٨/٢١م.

رائدا القصة القصيرة في سورية
علي خُلقي ومظفّر سلطان

٭
فاضل السباعي

• **كتابٌ يؤرّخ للقصة السورية:**

في كتابه الفريد «القصة في سورية.. حتى الحرب العالمية الثانية»، الذي ألقى فصوله محاضرات على طلبة «معهد الدراسات العربية العالية» بالقاهرة عام ١٩٥٧م، تناول الدكتور شاكر مصطفى الإرهاصات التي أفضت إلى نشوء القصة في سورية بمختلف أجناسها، ترجمةً وتأليفًا، نصوصًا مسرحية وقصصًا وروايات، أو لنقل: منذ ما قبل البدايات، على أيدي حنّا عنحوري وفرنسيس المرّاش (هذا الذي أصدرت وزارة الثقافة بدمشق منذ قريب أعماله في مجلّد)، مروراً بعبد المسيح أنطاكي وعبد الحميد الزهراوي، وانتهاءً بأبي خليل القباني.

٭ كاتب سوري.

فلما دخـل الباحث، المتتبّع، شاكر مصطفى، مرحلة ما بـين الحربين، تناول من كتّاب القصة الأوائـل، الذين لم نكن -في تلـك الآونة- نعرف عنهـم شيئًا إلا بالسماع، مـن صبحي أبو غنيمة وسامي الكيالي ومنير العجـلاني وميشيل عفلق وفؤاد الشايب وخليل الهنداوي... وكان من هؤلاء الرائدان: علي خُلقي (الدمشقي) ومظفّر سلطان (الحلبي).

• **خُلقي يتذكّر، وسلطان ينسى!**

انقادت «ريادة» القصـة القصيرة في سورية إلى كلّ منهما وهو لا يعلم... كيف؟

كان خُلقي يتذكّر دائماً، ويُذكِّر، أنه كتب أوّل مـا كتب في العـام ١٩٢٩م، وأنه نشر كتابه الأول - ولنقـل: الوحيـد - «ربيع وخريـف» في العام ١٩٣١م.

وأمـا مظفّـر سلطان، فقد غـاب عن ذهنه العامُ الذي كتب فيـه أوّل قصة أو نشرها! ويوم كتب (في ٢٠ تمـوز ١٩٥٨م)، ردًّا علـى الأسئلة الاستبيانيـة، التي كان مؤلّـف كتاب «القصة في سورية» يتوسّـع في استيفائها، قال: «بدأت أكتب القصة عـام ١٩٣٥م، فيما أذكـر... وأوّل قصة كتبتهـا ونشرتهـا في مجلة «الحديـث» الحلبية (كانت) بعنوان «في الكـوخ المتهدّم على الشاطئ البعيد»، وهي قصة صيّاد ابتلعه اليمّ، وجاء الليل الجهم، وزوجته وابنته تنتظران عبثًا في كوخهما المتهدّم...» (الكتاب صـ٣٨١). والواقع أنّ هذه القصـة نُشرت في عدد أيلول مـن العام ١٩٢٩م بمجلة «الحديث»! فضيّع سلطان على نفسه، عند مؤلّف الكتاب، فرصةَ أن يَعُدّه مشاركًا لخلقي في الريادة بمرحلتها الأولى.

بل إنّ مظفّـر سلطان أمعن في إهماله نفسَه وأدبه طوال حياته، مع مداومته على الكتابة لكن على قلّـة. فهو لم يعمل علـى إصدار مجموعتيه الأولى «ضمير الذئـب» (بيروت ١٩٦٠م) والثانية «في انتظار المصير» (دمشق ١٩٧٦م)، إلا وقد بلغ من العمر الخمسين والخامسة والستين... ولولا أن جـاءه، في أوائل الثمانينيـات، الأديب الشاب نـادر السباعي، ليُعاونه في لملمـة ما تبقّى عنده مـن قصص منثورة (أجـل، بالثاء) في المجلات، وينسخها علـى الآلة الكاتبة، ويقدّمها إلى اتحاد الكتّاب العرب بدمشـق، فتظهر للناس في العام ١٩٨٤م بكتـاب حمل عنوان «رجـع الصدى»... أقـول: لـولا مسعى أخـي نـادر لضاعت هذه القصص، كما ضـاع ويضيع كثيرٌ مـن أعمال الكتّاب ويتبدّد إرثهم الأدبي بعد الرحيل.

• **سلطان يكتب «ضمير الذئب»:**

في حلب كانت العلاقة قد توثّقت، منذ العام ١٩٥٧م، بينـي كاتبًا ناشئًا وبـين مظفّر سلطان رائـداً، وكان«مُوَثِّقها» مدرّس العربية، الشاعر والقاصـ الذي يُضاهيه في نُدرة الكتابة ويسبقه بمراحل، فاضل ضياء الدين، والذي -استهاضًا منه لهمّة صديقه سلطان!- جاءني بمسوّدة قصة لـه حديثة الكتابة، مطوّلة بعض الشيء، عنوانها «ضمير الذئـب»، ملتمسًا أن نسعى معًا لنسخها، ثمّ نشرها... وكان ذلك، ونُشرت القصة في مجلة «الأديـب» اللبنانية في العـام نفسه (عدد تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧م).

لن أتحدّث عـن اجتماعنا، نحـن الثلاثة وآخرين، منذ خريـف ١٩٥٧م فيما أطلقنا عليه «رابطـة الأصدقاء» يترأسهـا أديب حلب الكبير خليـل الهنداوي (فإنّ هذا حديثٌ يطول أرجئه إلى وقـت آخر)... ولكني أقـول إنّ سلطان كتب في ظلّ ذلك قصـةً مطوّلة أخرى -وذلك ما كان يُسمّيه «قصصًا بَهْبَهانيّـة» (نسبةً إلى البهبهان، أي الببّغـاء)!- مستوحيًا إيّاها مـن أيام دراسته بالقاهرة، عَنْوَنها «في انتظار المصير» (حملتْ كلّ من هاتين «البهبهانيَّتَـين» العنوان للمجموعتين الأُولَيَين). وقرأها، في شتاء ١٩٦١-٦٢م، في المركز الثقافي العربي بالعزيزية، أمام جمهور متحمّس، من أصدقائه الأدبـاء والمثقفين وكثير من طلابه الذين يُدرّسهم ويُدير مدرستهم «ثانوية هنانو».

• **كتاب «١٢ قصة من حلب»:**

وخطـر لنا، في العـام ١٩٦٢م، أن نُعدّ كتابًا يتضمّن قصـةً لكلّ واحد من كتّـاب القصة في حلـب، وتولّى الأمـر أكبرُنا سنًّا وقـدرًا أستاذنا خليل الهنداوي، الـذي كان يشغل منصب مدير المركز الثقافي العربي. ولكـنّ الرجل سرعان ما ترك المنصب عائدًا إلى التدريس، وترك الأوراق على مكتبه، فتولّيت المهمّة.

ولتقديـري لمظفّـر سلطـان رائـدًا للقصة القصيرة، فقد رتّبت القصص الاثنتي عشرة، في الكتاب (صدر عن منشورات عويدات ببيروت في ١٩٦٤م)، بأن قدّمت شكيب الجابري أولاً، فمظفّر سلطان، ثمّ كرّت السُّبحة: خليل الهنداوي، صباح محي الدين، فاضـل السباعي، جورج سالم، وليد إخلاصي، فاتح المدرّس، علي بدّور، عبد الرحمن البيك، رُنيه عبّودي، عدنان الداعوق.

ولـن أدع القـول هنـا دون أن أشـير إلى «ملاحقتي» لـه، وكذلك لشكيـب الجابري، في استكتـاب كلّ منهمـا كلمةً عن مفهـوم القصة القصـيرة عنـده... ثـمّ كان أن «استمعتُ» إلى مظفّر، وسجّلت، ثمّ صُغت المعـاني بمفرداتي، وفيهـا إعجاب سلطان بستيفـان زفايغ وبإدغار آلـن بو، قال: «مرّت بي فترة من حياتي كنت أرى فيهـا إدغار آلن بو الكاتب الأوحد في الحياة، ثمّ أصبـح أدبه عندي لونًا من ألـوان الأدب، ولكنه لونٌ طريف حرّيف لا أزال أُحبّه وأهيم به» («١٢ قصة من حلـب»، ص٣١). والواقـع أنّ سلطان ظـلّ طوال حياته وفيًّا لـ«بو»، بتغليبه في قصصه الحادثةَ المثيرة، مدعومةً بمـا يزيد من وهجها: لغةً جزلةً فخمة!

• **والتقيت علي خُلقي في اتحاد الكتّاب:**

وفي العـام ١٩٦٦م قُـدّر لي أن أغادر حلب بحُكم الوظيفـة إلى العاصمـة. ومظفّر سلطان ترك مسقط رأسه متقاعدًا إلى بيروت للعمل.

وفي دمشـق، بعـد تأسيـس اتحـاد الكُتّاب العـرب، وفي اجتماعاتنـا الدوريـة في «جمعية القصة والرواية» (إحدى الجمعيات التي يتشكّل منها الاتحاد)، تعرّفت علـى علي خُلُقي، الكبير الاسـم في خاطـري، فوجدتـه صغـير الجسم معافـى (وقد غـدا في السبعـين)، ورأيته دمثًا، يُصغي إليك بحواسّه، فإذا تكلم لم يكن بدٌّ من أن يتذكر «ريادتـه»، المؤكدة في المراجع والمتردّدة في

المسامع... ولم يكن كذلك مظفّر سلطان، الساهي عن ريادته المنشغل بهموم الحياة!

وأذكر أني قدّمت لخلقي، في صيف ١٩٧٦م، نسخة من روايتي الطويلة «رياح كانون»، فكان أن تعـرّف عبرها على نتاجـي الأدبي. وقد حدّثني بمودته الصافية بأنــه، وهو يصطاف بالزبداني ذلك العـام، كان يقرأ صبـاح كلّ يوم فصلاً من الرواية (التي تزيد صفحاتها على الأربعمئة).

• أوّل عـدد مـن مجلـة «الموقـف الأدبي» تُعدّه جمعية:

ثـمّ إنه اتّفـق أن اقترحت، بصفتـي مقرّرًا لجمعية القصة والرواية، على الاتحاد أن يُصدر في مجلـة «الموقف الأدبي» عـددٌ خاص بالقصة القصـيرة في سورية، فأجابنـي رئيس الاتحاد، الدكتور حافظ الجمالي آنــذاك، بكتاب رسمي، بالموافقة على المقترح، وبأن تتولى الجمعيةُ نفسها إعداد المادة لهـذا العدد، وشكلت لذلك «لجنة»، مـن أمين سرّ الجمعية عبـد النبي حجازي ومن عضو الجمعية خيري الذهبي ومن المقرّر. وتلك كانت «بادرة»، خرج بها العدد من مجلة «الموقف» (الثلاثـي: ٧٣ و٧٤ و٧٥، للأشهر أيار وحزيران وتمّوز ١٩٧٧م)... وسارت الجمعيات بعدئذ على هذا المنوال: تُعدّ الجمعيةُ صاحبة المقترح المادة، وتتبنّى المجلة نشرها في عدد خاص.

وقد كنت حريصًا على أن يتضمّن هذا العدد الخاص قصصًا للـروّاد الأحيـاء الأحبّاء، بعد علي خُلقي: ليّان ديـراني ووداد سكاكيني ومراد السباعي. وأذكر أنّ خُلقي جاءني وأنا في الاتحاد بقصة له، وحرص علـى أن أقرأها وهو حاضر.

وبعد صدور العـدد تبيّن أنّ القصــة، وعنوانها «الحاج منصور في المصيف»، من قَصَصه القديم، وكنت فرحت بما قرأت ظنًّـا أنّ الرجل عاد إلى الكتابـة، وكنت في أشدّ الحرص على أن تنزل له قصةٌ في هـذا العدد الخاص. ومع حرصي ذاك فقد خلا العدد من نصوص لسلطان والهنداوي، وللكاتبـين المتميّزيـن الآخرين سعيـد حورانية وشوقي بغدادي.

• «أستاذ علي، أعطنا رأيك!»:

كان علي خُلقـي محبوبًا مــن عارفيه. وقد لاحظـت أنّ رفاقــه من «اليساريـين» يفتخرون بأنّ «رائـد القصة السورية» منهـم. ورأيتهم في المنتديـات والمجالس الخاصــة، يدفعونه إلى أن يقـف متحدّثًا في «فـنّ القصة». وأذكـر أنّا كنّا يومًـا في أمسية أدبية في مـدرّج الاتحاد بالمزة، في يوم من أيـام الثمانينيـات أوائلها. فحرّضه رفيقه صـلاح دهني: «أي أستاذ علي، قم أعطنا رأيك!».

فوقـف الأستـاذ علـي يقـول إنّ العرب لم يعرفـوا القصة القصيرة، فهـذا فنٌّ أخذناه عن الغرب! فلم أملك السكوت، فوقفت أقول إنّ «فنّ الحكي والقصـّ» كلّه ماثل بأروع صورة في «ألف ليلة وليلـة»، الكتاب الذي تُرجم إلى لغات العالم، ولابأس علينا في ألاّ نعرف «القصة القصيرة» كما تواضع عليها الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على أيدي «إدغار آلن بو» و«غي دو موباسّــان» و«تشيخوف»، هذا الفنّ الذي ما زال يتطوّر في كلّ اتجاه.

• طبعة جديدة من «ربيع وخريف» تُناقَش في الاتحاد:

وكان لا بدّ -كما يقع لمؤلّفي الكتب في كلّ مكان وزمـان- أن يفقد علي خُلْقي النسخة «الوحيدة» مـن كتابه بالضياع والتضييع، في وقت لم يكن قد عُرف «تصويـر الفوتوكوبي»، فلم يعد يملك من كتابه اليتيم... إلا الذكـرى! إلى أن اتفق لأحد أصدقائنـا أن مرّ بـ«بسطة كتـب» على رصيف، فوقع على الكتاب المضيّع، فهبط عليه، وأعلمنا، فصوّرناه تصويرًا، وتوزّعنا الصُّور. وأكبّ صديق خلقـي عبد المعين الملّوحي، على النصّ مصحِّحًا فيـه بعضـ مفردات وعبـارات، ثـمّ إلى اتحاد الكتّاب، الذي تـولّى إعادة طباعتـه، بالتنضيد الضوئي وبغلاف ملـوّن، ما يليق بكتاب رائد في مضماره، وظهرت الطبعة في العام ١٩٨٠م.

وتجـدر الإشـارة إلى أنّ الطبعـة الجديدة اشتملـت على خمسـ قصص مـن أصل السبع التي تضمّنتها الطبعة الأولى، فقد بدا أنّ خُلْقي استبعـد القصتـين، أو لعلّـه نزّلهمـا بعنوانين بديلين، ولكنه أضاف إلى الطبعة الثانية قصصًا لم تشتمـل عليها الأولى، وهو في جميع الأحوال لم يستجمـع في الطبعة الثانيـة كلّ ما كان كتب من قصص، ذلك أنـه مرّ عليه حينٌ أتلف فيه عددًا من قصصه الرائدة.

ثـمّ إنّ جمعية القصـة والرواية في الاتحاد، شـاءت أن تحتفي بالكتـاب وبكاتبه. وفاح عطر الإطـراء في ذلك الاجتماع، مـن أنّ علي خُلْقي حمل راية الريادة في القصة القصيرة في الوطن، وأنّ ريادته تغفـر له أنه لم ينشر بعد هذا الكتاب كتابًا... وكلام جميل من هذا القبيل.

هنا أبـدى أحدهم انتقادًا «للتصحيح» الذي طرأ على المفردات والعبارات، بحجّة أنّ الدارس مستقبلًا يريد أن يعرف المستوى اللغوي والأسلوبي للكاتب في وقته... فقلت، مسوِّغًا صنيع الملّوحي، بأنّ في وُسع الدارس المتتبِّع إن أراد أن يعود إلى الطبعة الأولى.

وبعدئذ أخذ كاتبٌ آخر «ينتقد» إحدى القصص بقولـه: إنّ المؤلّف قال في القصـة كذا... وكان عليه أن يقول كذا... وهو بذلك فَوَّتَ على نفسه فرصة كذا وكـذا... وتمادى في نقده وتفاصحه، حتـى رأينا «الندم» يتبدّى على «خُلْقي»، اعتقادًا منه أنه «تورّط» في إعادة طباعة كتابه القديم... فوجدتُنـي أتدخّل، ثانيـةً، لأقـول أنْ ليس من الإنصاف أن ننظر إلى قصص مكتوبة قبل نصف قرن بمفهومات الأدب في أواخر القرن العشرين، وإنّ اجتماعنـا الآن للتكـريم وليس للبحث عن المثالب!

• حفل تكريم لمظفر سلطان بحلب:

أعـترف بـأنّ إعجابي وأنـا في دمشق بعلي خُلْقـي ومودتي لـه، لم يحجبا الإعجـاب والودّ اللذيـن أكنّهمـا لمظفّر سلطان بحلـب. وعندما عـدت مقرّرًا لجمعية القصة والرواية في مرحلة تاليـة (السنوات من ١٩٨٥ - ١٩٨٨م)، وُفِّقت في أن أتّخذ من «تكريم» الأدباء في حياتهم عن طريق الجمعيـة، «عادة» درجتْ عليها من بعد جمعياتُ الاتحاد. وكان أن بدأنـا، مساء الأحد الثاني من

آذار ١٩٨٦م بـدار الكتب الوطنية بحلب، بتكريم مظفـر سلطان، ثمّ بمقـرّ الاتحاد بدمشق: وليد معماري، ويوسف أحمـد المحمود، وبديع حقّي، وحسـن م. يوسف، ووداد سكاكينـي... إلى آخر القائمة.

في شأن سلطـان، فقد أقمنا له الاحتفال في دار الكتـب الوطنية بحلب، مساء الثاني من شهر آذار ١٩٨٦م، ثـمّ ظهرت الكلمات والمطالعات في ملفّ خاصـ في مجلة «الموقف الأدبـي» (العدد المـزدوج ٧٧ و٧٨، تشرين الثاني وكانون الأول من العام ذاته).

• **الذين «يقرّون» بعام مولدهم!**

أحـبّ أن أشـير إلى «ظاهرة» كانـت فاشية في الأجيـال السابقة، أن «يغـيّروا» تاريخ المولد، تصغـيرًا لا تكبـيرًا، وبعبـارة مرحـة: «يلعبون بأعمارهـم!»، بأن يُسجَّل المولـود في السجلات الرسمية بعد ولادته بسنوات قليلة، ولعل القصد مـن ذلك في حينه أن يكون الابن، عند استدعائه للخدمة الإلزامية، في سنٍّ أكبر، فيكون أقدر على تحمُّل المشاقّ.

وقـد تبيّنت في تاريخ مولـد مظفّر سلطان تصغيرًا مقداره سنتان، صرّح لي بذلك بعد حفل التكريم، فيكـون الصحيح ١٩١١، وليس ١٩١٣م (كما في كتاب شاكر مصطفى). وقد وافاه الأجل بعد احتفالنا به بعـام، يوم الرابع عشر من شهر آذار ١٩٨٧م، فيكـون قـد عاشـ في دنيانا ستة وسبعين عاماً.

وحدّثنا علي خُلُقـي، ونحن في «حديقة ابن سينا» (حديقة المدفع سابقًا، منتصف شارع «أبو رمّانة») مسـاء يوم من أماسـيّ صيف ١٩٨٣م، بأنه ذهب بمفرده وهو طفل إلى «ساحة المرجة»، وشاهـد بـأمّ عينيه شهـداء السادس مـن أيّار (١٩١٦م) معلّقين على أعواد المشانق «بوجوههم الفاقعـة الصفرة وأرديتهم البيضاء»، وأوضح لنا -أنا والملّوحي وسعد صائب- أنه كان في العاشرة مـن عمره، فهو من مواليد ١٩٠٦، وليس ١٩١٠م (كمـا ورد عند شاكـر مصطفـى). قيّدتُ ذلك في هامش كتـاب مصطفى، فكتبـتُ: «ولد سنة ١٩٠٦م، كما قال لي صيف ١٩٨٣م، وأنّ في هويته ١٩١١م». ولم توافقنـي في ذلـك ابنته الإعلامية «سُمَيّة خُلُقي». وافاه الأجل في شهر رمضان، في اليوم الرابع من تشرين الثاني ١٩٨٤م، فيكون قد عاش في دنيانا ثمانية وسبعين عاماً.

وعلـى ذلك فإنّ رائـدَي القصـة القصيرة في سوريـة، علي خُلقـي ومظفّر سلطـان، كانا متعاصرين زمنًا، وقد عاشا عمرًا واحدًا تقريبًا، يرحمهما الله.

• **الرائدان أدبيًا:**

بـدأ رائدا القصة القصـيرة الكتابة والنشر في عـام واحد: ١٩٢٩م، ولخلقي من العمر ثلاثة وعشرون ولسلطان ثمانية عشر.

وكان بينهمـا فارقٌ في الاقتـدار اللغوي وفي امتلاك الأسلوب. وإذا كان أسلوب خلقي بسيطًا وعاديًّا يكاد لا يبعد كثيرًا عن المحكيّ من الكلام، وليس هـذا مأخـذًا، ولعلّ مردّ ذلـك إلى عدم الانتظـام في دراستـه بمراحلهـا الأولى، مع أنه

قـرأ - كما صرّح - كثيرًا لأدباء عصره وكثيرًا من الآداب الأجنبيــة بلغته... فإنّ الأمر عند سلطان مختلــف، فهو ذو بيان، زاده في مضماره أنه درس الأدب في الجامعة (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)، وقد عــبّرتْ عن رأيــي فيه يــوم تكريمه بحلب «بــأنّ صدري قد امتلأ إعجابًــا بمقدرته الفنية في معالجته القصــة، بقدر افتتاني بلغته الجزلة وصُوَره البارعة» («الموقف الأدبي»، ١٩٨٦م).

هذا إلى أنّ نصوص خلقي صُورٌ منسولة من حياته اليوميــة وممّا كان يشاهد حوله من صور الحياة، وليس يَعيبه هذا، فلم يكن مطلوبًا منه في وقته أكثر من ذلك. وأما قصص سلطان فهي أكثر عمقًا، وتظهر عنده المقدرة على أن يحبُك القصة تعقيدًا وفكًّا، ويُغنيها بالصور البيانية التي تؤكّد الملامح. وقد يستغرق في ذلك فيَغرَق ويُغرِق.

ويجمع بــين الرائديــن أنّ الأول كتب ونشر وأسرع إليه الجفاف، قال خلقي لشاكر مصطفى (ربما في ١٩٥٨م): «أخــاف أن أنشر بتوقيعي... أخاف على اسمــي القــديم...»، ويُعلّق المؤلف: «والواقــع أنــه يتعلــل بذلك عن جمــود قلمه!» (ص٢٧٤).

وإذا كان قلم مظفّر سلطان لم يُدركه الجفاف، إلا أنّ «المَحْــل» كان يُصيبــه في كثير من السنين، فهو كاتب مقلٌّ إقلالاً، وفي ذلك كتب عنه الشاعر الحلبي علي الزيبق في مجلة «الأديب» (١٩٥٧م): إنّ الوظيفة أكلته أكلاً لمًّا! فغضب مظفّر، ثمّ عفا دون أن يصفو قلبه.

• «أدب المقصّ» وما يَعنيه:

كان في علي خُلُقي دماثةٌ وتواضع، يمنح حبًّا ويتلقّى حبًّا، وهــو أغدق عليّ المديح بعد قراءته المتأنّية لـ«رياح كانون» في ذلك الصيف الزبداني.

وأمــا مظفّر سلطان فإنــه لم يكن يملك مثل ذلــك المقدار مــن التواضع، فلــم أره يُثني على أحد مــن الكُتّاب حولــه، ولكنه يُبــدي، وبحقٍّ، بالغ الإعجاب بمن يروقــه من الكتّاب الأجانب، هــؤلاء الذين رأيته، في بيتــه القريب من «جامع الروضة» بحلب، يستأنف قراءتهم بمتعة وهو في السبعينيــات من العمر. وفي تلــك الآونة، بلغني قوله من أنه يرى عبــد السلام العجيلي وفاضل السباعــي قاصّــين يكتبــان بالقلم كمــا يُفصِّل الخيــاط بالمقصّ. وقد تــراءى لي أن أراجعه في ذلك، وعبثًا طالبتُه بإيضــاح لهذا القول، ما إذا كانت مدحًا أو ذمًّا؟

رحم الله الرائدين بمــا أسدياه لفنّ القصة والأدب من إنجاز هو ريادِيٌّ بكل معيار.

شخصية جحا بين الواقع التاريخي والرمز الفني

هبة الله الغلاييني *

نصـر الدين خوجة أو الخوجة نصر الدين، هو البطـل الأشهر لقصص الذكاء والغباء عند الأتـراك دون منـازع، وإليه تنسب نوادرهم وحكاياتهم المرحة، وتكسـب بهذا الانتساب أهميتها البالغة لديهم، ومن ثم فهم يرددون الكثير من نوادره وحكاياته -

ليـس من بـاب التفكه أو التندر فحسب -بل يستعينون بها - موقفاً وسلوكاً - في التعبير عن حياتهم العملية، وما تنطوي عليه تلك الحياة من ضروب المعاناة اليومية يقتدون بها في سلوكهم، ويتمثلونهـا في الكثير من مواقفهم، كما تقول دائرة المعـارف الإسلامية، التي نراها تذكر عدداً مـن الآراء المتضاربة والمتناقضة حول هذه الشخصية -مـن الناحية التاريخية- كهذا التضارب والتناقـض الذي لمسناه في التأريخ لجحا الغزاوي العربي.. فهو أي «نصر الدين خوجه» في أحد الأحاديـث رجـل متعلم عاقل في زمن الرشيد، بينما هو في دراسـة أخرى، معاصر لخوارزم شاه علاء الدين طاليش (الذي حكم في المدة ١١٧٢ - ١٢٠٠م) غير أنه ينبغي ألا نأخذ أياً من الرأيين

* كاتبة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

على محمل الجد - بل يجب - في أكثر تقدير - اعتبارهما دلالة على أن كثيراً من دعابات الخوجه وتاريخها يعود إلى عصر الخلفاء وقد وصلت خلال وسيط فارسي.

ويتضح من التضاربات:

١- إن جحا الأتراك- في التاريخ له- لم يسلم من الخلط والاضطراب في التعريف بجحا العرب، فالرأي الأول يراه رجلاً متعلماً عاش في زمن هارون الرشيد متفقاً بذلك مع الرواية التي تؤرخ لجحا العرب وهو رأي متأثر بالرمز العربي تاريخياً، بينما الرأي الثاني يراه معاصراً للسلطان علاء الدين في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلاديين، كما أنه -بدهياً- يؤكد أن الرمز العربي سابق للرمز التركي في وجوده.

٢- إن الرمز التركي قد استقطب الكثير من نوادر سلفه الرمز العربي التي وصلت إليه عبر وسيط فارسي.

٣- الحضارة السلجوقية أو التركية -التي عاصرها الرمز التركي- في أساسها تتأثر كل التأثر -بالثقافة الفارسية- ثم العربية وهذا مما يؤكد لنا الرأي القائل باحتمال انتقال النوادر العربية إلى الرمز التركي سواء عن طريق الوسيط الفارسي أو من العرب مباشرة.

وتجمل دائرة المعارف الإسلامية الآراء التي توصل إليها الدارسون، ولا سيما المستشرقون في تاريخهم لهذه الشخصية واعتقادهم بوجودها وإن اختلفوا في زمانها ومكانها، ويمكن أن نصنّف تلك الآراء في مجموعتين:

المجموعة الأولى:

تضعه في القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين (أي زمن بيازيد الأول وتيمور وقرمنيد الثاني علاء الدين).

بينما تضعه المجموعة الأخرى: في القرن الثالث عشر (في زمن سلجوق علاء الدين)؟

ويبدو أن الرأي الأول قد استمد أدلته مما جاء في قصص رحلات «أكسيليا شلبي» حيث ذكر على سبيل المثال قصة ذلك اللقاء بين تيمور وبين الخوجة في الحمامات حينما أعلن الخوجه عن استعداده لشراء قميص تيمورلنك في مقابل أربعين فداناً - هي قيمة القميص فقط - أما تيمور نفسه فلا يساوي شيئاً. وقد أتاح كانتيمير (Cantimir) وديز (Dies) وفن هامر (Von Hamer) وغيرهم، لقصة أكسيليا شلبي أن تنتشر وتستمر في أوروبة إلى أن اعترف محمد توفيق - كاتب تركي- بهذه القصة في كتاباته سنة ١٨٨٣م. عن فكاهات نصر الدين (في كتابه بو آدم) أي هذا الرجل ويعني به نصر الدين خوجه، وهي الفكاهات التي ترجمت فيما بعد إلى الألمانية سنة ١٨٩٠م، حيث تجددت في هذه القصة الحياة، وأصبحت منذ ذلك الوقت الرأي السائد في أوروبة.

أما المجموعة الثانية فترى أن نصر الدين قد عاش في القرن الثالث عشر وتعتمد في رأيها على الأدلة التالية:

أولاً: القصيدة التي أوردها الشاعر لمعي (المتوفى حوالي سنة ١٥٣٢ - ١٥٣٣م) في ديوان اللطائف التي أكد فيها أن نصر الدين كان معاصراً لشاهيار حمزة الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي.

ثانياً: في المخطوطات القديمة جاء ذكر الخوجة مقروناً بالسلطان علاء الدين توبريلي زاده

-أستاذ الأدب التركي في جامعة إستنبول- يميل إلى فكرة أنه كان معاصراً لعلاء الدين السلجوقي الذي عاش في القرن الثالث عشر.

وفي الترجمة التي كتبها حكمت شريف الطرابلسي، في مقدمة كتابه الذائع الصيت في العالم العربي بعنوان «نوادر جحا الكبرى»، لنصر الدين خوجه المعروف بجحا الرومي «الذي نقله إلى العربية» من كتاب «لطائف نصر الدين خوجه» باللغة التركية.. وقد جاء في المقدمة أن نصر الدين قد تلقى علومه في اق شهر وقونيه.. وولي القضاء في بعض النواحي المتاخمة لاق شهر كما ولي الخطابة في سيوري حصار، ونصّب مدرّساً وإماماً في بعض المدن. ساح في الولايات: قونية، وانقرة وبروسة وملحقاتها. وانه كان واعظاً ومرشداً صالحا يأتي بالمواعظ في قالب النوادر وله جراة على الحكام والامراء والقضاة، وكان عفيفاً زاهداً، يحرث الأرض، ويحتطب ويحتطب بيده، كما كانت داره محطاً للواردين من الغرباء والفلاحين. ويذكر أن وساطته انقذت بلدته «سيوري حصار» من تيمورلنك الجبّار الطاغية، أما زمنه فالراجح أنه كان في عهد السلطان أورخان وظل حتى عهد السلطان بيلديوم بيازيه خان في أوائل القرن السابع للهجرة وعاش إلى سنة ٦٧٣ هـ أي (١٢٧٥م) وتوفي عن ستين عاماً، وضريحه في اق شهر.

ومما هو جدير بالذكر أن الأتراك قد اهتموا بجحاهم، فجددت الحكومة التركية ضريحه وهو في قبة على أربعة أعمدة وعلى رأسه قاووق عظيم،



وعلى الجدار كثير من الكتابات نظماً ونثراً، وعلى العوارض والأخشاب خرق ربطها الناس استشفاء من الحمى والتماسا للبركة.. وبمناسبة البركة فإن لأهل تلك البلاد - تركيا - اعتقادات بكرامات الشيخ نصر الدين ويلتمسون بركاته لهذا السبب، ويزعمون أن من زاره ولم يضحك لم يسلم من نائبة تصيبه، ومن عادات أهل «اق شهر» في زواجهم أن يبدأ العروسان بزيارة ضريح الشيخ نصر الدين وأن يدعواه إلى حفلة الزفاف قائلين له: «شرفنا مع تلاميذك»، ويعتقدون أن من تزوّج ولم يقم بهذا الواجب لم يوفق في زواجه، والطريف كذلك أن بعض المصريين قد آمنوا بفكرة «بركة جحا».

ولقد نسب الاتراك لجحا الكثير من الكرامات التي تدل على اعتقاد الناس بها، فهم يرون على سبيل المثال، أن أوّل اتصال حدث بينه وبين تيمورلنك كان حينما استولى تيمور على بلاد

الأناضول، فجعل يلتقي العلماء والفضلاء ويسألهم أعادل أنا أم ظالم؟ فإن قالوا: أنت عادل ذبحهم، وإن قالوا: أنت ظالم قتلهم أيضاً، فضاقوا ذرعاً، وجاؤوا إلى جحا - لما اشتهر به من الأجوبة السديدة الحاضرة، وقالوا له لا ينقذنا من شر هذا الظالم أحد غيرك، فأنقذنا من نقمته، فقال لهم: إن التخلص منه ليس بالأمر الهين، ولكن أرجو أن أوفق إلى ما تطلبون، ثم أحضروه أمام تيمور وسأله: أعادل أنت أم ظالم؟ فقال جحا: إننا نحن الظالمون، وأنت سيف العدل الذي سلّطه علينا الله الواحد القهار - فأعجب تيمور بهذا الجواب، واتخذ جحا نديماً خاصاً له، ولم يعد يفارقه ببلاد الروم حتى رحل عنها، وبهذه الصلة - بينه وبين تيمور - صان بلدته «اق شهر» وما حولها من صولة تيمور وباقي عساكره.. بل لقد قيل إن انسحاب تيمور من بلاد الأناضول كان بسبب كرامات الشيخ نصر الدين ووعظه له.

ومن جملة الحكايات التي تنسب إليه - الكرامات- إن عربة في الأناضول مرّت أمام قبره، وعلى العربة أعمدة كالهودج كانت تستقلها أسرة، وكان فيها شاب، فقال ذلك الشاب: لن أبتسم لهذا الرجل (وكانت العادة أن من يمرّ بقبره راكباً لابدَّ أن يترجّل ويقرأ له الفاتحة ويبتسم فإن لم يفعل يُساء إليه ولم يسلم من نائبة تصيبه)، وأصرّ الشاب وأسرته على تغيير تلك العادة وأساؤوا إلى ذلك الاعتقاد، فإذا بالهودج يصطدم بفرع شجرة محدود، فجفلت الخيل ووقعت الأسرة كلها فقالوا: من الذي يجرؤ على احتقاره أو الاستخفاف به، لأن في ذلك إساءة للأدب والحكمة.

وفي دراسات خطية للأستاذ كامل كيلاني عن نصر الدين خوجة بعنوان:

إمام العلم والموثوق به في دروس الحكمة الخوجة نصر الدين افندي -رحمة الله عليه- يقول الكيلاني: «لم تؤثر تلك النكات المستملحة ولم تزعزع من تلك المكانة الرفيعة التي كانت في نفوس العامة للشيخ نصر الدين -على رفعة مكانته العلمية والدينية، وعلى سمو منصبه الديني والوعظي، لأنه كان يعرف كيف يلقي النكتة بحيث لا تؤثر في مكانه.. وكان يدعو الأمراء والحكّام والقضاة إلى السير بمقتضى الشرع الشريف ويحضهم على الأمر بالمعروف، ولا سيما العلماء منهم الذين تقع عليهم - في رأيه - مسؤولية التمسك بأهداف الأمر بالمعروف والتحلي به..

ويذكر كامل كيلاني أيضاً، أنه انتدب لقضاء مصلحة ما من قبل الحكومة إلى كردستان، وقد أظهر هذا الانتداب أستاذنا نصر الدين -رجلاً كاملاً بارزاً في علم السياسة وفن الإدارة متفوقاً فيهما.. ويرى كيلاني- في ضوء هذه الحكاية - وفي ضوء ما عرف عن نصر الدين من وقوف على دقائق العلم بين علماء الأناضول وحكمائها ما أتاح له - باعتراف هؤلاء العلماء أنفسهم - المثول في حضرة تيمورلنك واطلاعه على بعض الحقائق وتبصيره بها في جرأة وشجاعة، فأنقذ بذلك الناس من كثير من مظالم تيمورلنك وجنوده، وقد اكتسب بهذا الموقف الشجاع الصلة والقرب من تيمور، «ولعل فضله وشجاعته بسبب ذلك النجاح الذي أصابه» وكان دافعه إلى ذلك أنه كان يسعد بخدمة الجماعة، ويهتم بإسعادها، متمنياً أن يراها تعيش في أمن وأمان.. وأن يعيش هو معها في هناء وصفاء.

كمـا يجـب ألا ننسى بأن نصـر الدين هو من علمـاء الأحناف، وأن أكثر اشتغاله كان بعلم الفقه، وقد أحبه تلاميذه ومريـدوه فاقبلوا على مجلسه، يستمعـون لعلمه وفضله، وكانـوا أكثر من ثلاثمئة تلميذ، وقد غلب عليه لقب المعلم، فاشتهر بين أهل تركيا بالخوجة.

جحا والنقد السياسي:

ارتبطـت الشخصية الجحوية من حيث الواقع التاريخـي بالعصور التي يشتـد فيها الصراع بين قوميتين أو أكـثر، أو التي تتحول فيها نظم الحكم من دولة أخذت في الأفول إلى دولة أخرى تستكمل مقومـات السلطـان والمكانة، حيث تـبرز في مثل هـذه الظروف التناقضـات في النظم الاجتماعية والعلاقـات الإنسانيـة والمواقـف النفسية.. وفي ضوء هذه المتغيرات، وما تعززه من متناقضات وما تفرضـه من معطيات جديـدة، ولا سيما في عصر الكبـت السياسي والقهر العسكري، ينمو الباعث الآخر، على انتخاب الرمـز الجحوي وهو محاولة الشعـب التغلب علـى تلك التناقضـات من ناحية أو مقاومـة الانحراف والتسلـط من ناحية أخرى، والحرص في الوقت نفسه على عـدم الذوبان في الظروف، ومن ثم لا غرو أن تتخذ هذه الشخصية موقفاً من اثنين:

الأول: عـدم الاكـتراث بالظاهر مـن الأمور والاعتصـام بنزعـة صوفية تجعل الفـرد ومضة في كـون لا أول لـه ولا آخر، ولذلـك غلبت نزعة عدم الاكتراث بالعـادات والتقاليد المتناقضة على شخصية جحا.

والثاني: الاندفاع نحو المجـون، باعتباره من نزعات التمرد على الواقع، والهرب منه بالاستعلاء عليه، وعدم الاكتراث بالقواعد المرعية في السلوك الاجتماعي، في محاولة للتغلب على التقاليد المقيّدة لإرادة الإنسان والمعيقة لتحول الحياة الاجتماعية.

وهكذا استطاع جحا -الواقع والرمز- أن يكابد الحيـاة، وأن يضطرب فيهـا، وأن يخلق من نفسه شخصاً آخر بعيداً عن الأول، يتفرج عليه، ويسخر منه. وهكذا تحولت المآسي عنده إلى طرائف وملح تخفف عنه وتسرّي عن أفـراد الشعب العربي كله تأسيـاً به.. الأمر الـذي سلك بـه في النهاية، في الإبداع الشعبي مسلك الحكماء- ولهذا لم يكن عبثاً أو من قبيل المصادفـة أن يرتبط الواقع التاريخي بهـذا النموذج، بعصور التحول، ولم يكن عبثاً كذلك أن يظل جحـا، في المأثور الشعبي، مرتبطاً بجنكيز خان وتيمورلنك وأبي مسلم الخراساني وقراقوش، وأشباههم من الملوك والحكام.

ولهـذا أيضـاً، لم يكـن عبثاً كذلـك أن يربط الوجدان القومي بين نموذجـه القومي والجحوي وبين تيارات الحياة العامة، السياسية والاجتماعية، وأن يقـول على لسـان رأيه فيما يـدور حوله من أحـداث، وأن يسجّل باسمه موقفـه السياسي، أو بالأحرى موقفه من السلطـة السياسية في عصور البطـش والاستبداد، وقد تمثّل هـذا الموقف تارة في علاقته بالحكـم والحكام، وتارة أخرى تمثّل في علاقته بالقضاء والهيئـة القضائية ولأمر ما كان جحا قاضياً مـرة، ومتقاضياً مرة أخرى. ولأمر ما -أيضاً- كان جحا -الرمـز- هدفاً للصوص، وأن يؤثر عنه في كل هـذه طرائف وملح ونوادر. تشكل في مجملهـا -أسلوباً ووظيفة- باباً واسعاً من أبواب النقد السياسي بهـذه النوادر الجحوية -بوظائفها الحيوية والاجتماعية والجمالية- على مرّ العصور

وأن يظل معتصماً بها حقباً وقروناً متطاولة، كلما حزبه أمر أو حفزه موقف، ولهذا فسوف تبقى نوادره بالنسبة للشعب العربي «صمام أمن وعصا توازن، ووسيلة تعبير وذوق في آن....» في تلك المعركة الأزلية بين القوة المستبدة والحق الأعزل.

- **جحا والسلطان:**

تعد نوادر الرمز الجحوي، مع السلطان، تجسيداً حيّاً وفعالاً لكل ما تمور به عصور الظلم والاستبداد، من بطش وقهر وكبت وخوف...، وهي من هذا المنظور إنما تعكس لنا الرؤية القومية الرافضة لكل قوى الظلم والعدوان - وجلهم تيمور لنك - كما أنها في الوقت نفسه تحكي لنا المواقف المختلفة للناس. من كل حاكم ظالم، ومن كل سلطان مستبد يستبد في حكمه على القوة الباطشة وحدها.. وهي مواقف متناقضة بطبيعة الحال منها ما ينطوي على قيم وسلوكيات وأخلاقيات سلبية، وأخرى تنطوي على قيم وسلوكيات وأخلاقيات إيجابية.

وقد بيّن جحا طبيعة أصحاب السلطان وحاشيته فيقول في بيان أو تفسير طبيعة هذه العلاقة بين السلطان وهذه الطبقة:

- إذا قدر الله عليك أن تكون من أصحاب السلطان فاحرص على ألا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تحس ولا تحكم، وعليك دائماً أن تكون في مرضاة هذا السلطان بالحق والباطل - فإذا رأيته راكباً كلباً فقل له: ما أجمل هذا الحصان، وإذا سمعته يقول سخفاً فقل له: ما أروع هذه الآيات المحكمات، وإذا وجدته يرتكب الطيش والهوس فقل: إنه العدل الذي يزن الأمور بالقسطاس، واعلم أن شجرة النفاق، إنما زرعت أوّل ما زرعت في ساحة الملوك والسلاطين، وليس أصحاب السلطان وأهل بطانته إلا فروع تلك الشجرة، وإنما ينال الواحد منهم من الحظوة والرضا على قدر ما يبذل من نفاق، ويقدم تملق، هذه حقيقة أعرفها وأفهمها، ولكن مصيبتي أني كثيراً ما أنسى، فقد كنا في يوم في حضرة الطاغية تيمورلنك- وكان يجلس على عرشه أشبه بالعتل أو كأنه برميل وأهل بطانته يجلسون من حوله وأبصارهم إليه شاخصة، وآذانهم نحوه مرهفة، وألسنتهم تدور بتسابيح الحمد بذاته والثناء على خصاله، وفي مجرى الحديث سأل واحد من البطانة زميلاً له: هل لك أن تفيدنا عن مذهبك؟ فانتفض الرجل من مكانه وتوجه نحو السلطان في ذلة وخضوع وانحناء، ووضع يده اليسرى على صدره، ورفع إصبعه مشيراً إلى السلطان قائلاً: السلطان تيمور مذهبي ومعتقدي، فأومأ إليه الطاغية بالرضا وهمهم المنافقون من حوله بالاستحسان، والتفت إلى أحدهم وقال:

«أما لك أيها الشيخ أن تسأله عن نبيه: وكنت قد نسيت أني في حضرة السلطان وأني في القوم المنافقين، فصحت مهلاً يا أخي، فأنا أعرف أن الرجل الذي يكون مذهبه ومعتقده الطاغية تيمورلنك لا شك في أن نبيّه السفاح جنكيز خان، فكأني به يقول مع القائلين الناس على دين ملوكهم، فشريعة الغاب هي هي ومحاباة القوى آفة كل العصور والبطش هو هو في كل زمان ومكان، واشترك جحا في الحديث فأخذ يعدّد ما سيصيب الظالمين من العقاب في الآخرة، ويؤيد كلامه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وبينما هم يتحاورون بذلك وكان يسمعهم خفية درويش مهيب الشكل ذو

نظر حاد، فاندفع إليهم قائلاً بصوت جهوري: كلا أيها الشيخ، فإن ما قرأته من الآيات والأحاديث لا ريب فيه، ولكن سيف النقمة الإلهية والعدالة الربانية لا يتسلط على من ذكرت وإنما سلطه الله على أمثالكم ممن نزعت حميتهم وضعفت همتهم وقلت غيرتهم وأصبحوا لا اتفاق بينهم ولا اتحاد، فلما سمعوا هذا الكلام خافوا وذهلوا ونظر جحا إلى ذلك الدرويش يتأمله - وكاد عقله يطير وتعجب من وجوده ثم تجرأ وسأله: من أي بلاد أنت؟ وما اسمك المبارك؟ فصاح الدرويش مزمجراً: أنا داهية ما وراء النهر - واسمي تيمور، وما أتم كلامه حتى طار صواب جحا وقال له (متحامقا): وهل يقترن باسمك خان مان..؟ فزار الدرويش بغضب: أجل. فالتفت جحا إلى من حوله من القرويين وقال: يا أمة محمد: هلموا فصلوا على صلاة الجنازة.

- جحا والقضاء:

تؤكد النادرة الجحوية أن تحقيق العدالة وسيادة القانون في مجتمع ما رهن بطبيعة النظام السياسي ونزاهة القائمين عليها، فإذا كنا مع عصور الاستبداد، كان القانون -بالضرورة- في إجازة، وكانت كلمة الحاكم المستبد هي القانون، وكانت مصلحته الفردية فوق المصلحة القومية.. وحينئذ يفتقد الناس إلى المقاييس والمعايير والضوابط التي تستقيم بها حياتهم ومجتمعهم وتصبح حياتهم جحيماً لا يطاق.. والدارس للنوادر الجحوية الخاصة بالقضاء والقضاة تهوله كثرتها، وبمقدوره أن يستشف بوضوح غياب القانون، ومن ثم اضطراب العدالة، واختلال ميزانها، وفساد معاييرها وأنها تعكس موقف الناس من القضاء، ومآخذهم عليه، من خلال الرمز الجحوي الذي وضع في مواقف كثيرة مختلفة لتكون رؤيته، ومواقفه منها أقرب إلى الواقع التجريبي، ولذا أيضاً لم يكن من قبيل الصدفة أن يجيء الرمز الجحوي في أغلب نوادره مع القضاء - «متقاضياً» يجسد لنا مفاسد القضاء وعيوبه عن كثب وعبر مواقف مرَّ بها.. كما نراه كذلك -قاضياً- يعتلي منصب القضاة ليحكم بين الناس بالعدل ويفصل بين المتنازعين بالقسطاس المستقيم ومن ثم يحقق الوجه الآخر للصورة التي رأيناه فيها متقاضياً، إذ نراه هذه المرة يحقق القيم المفقودة والمثل المنشودة في القضاء، فيعيد الحق إلى نصابه ولتأخذ العدالة مجراها في جو من النزاهة، ونراه كذلك مستشاراً للقاضي ويسمى في النوادر (قاضي الظل). ولكنه يقف إلى جانب الحق والعدل، فهو يؤمن بأن القضاء للناس لا عليهم على حد تعبيره في بعض نوادره، ونراه كذلك يقوم بما يشبه دور المحامي، فيقف مدافعاً عن أصحاب الحقوق والمظلومين وينتصر لهم، وقد تراه شاهد زور أحياناً! ولكنه سرعان ما يعترف، ولا يخرج في أدواره الثلاثة الأخيرة عن مفهومه للقضاء فهو في رأيه -الجمعي- قضاء للناس.. لا على الناس، إنه بذلك يحقق رغبات الناس، أحلامهم في قضاء عادل نزيه، ويواجه جحا هذه المواقف الذي شاء له الوجدان القومي أن يضعه فيه، ليعلن - من خلالها - آراءه في القضاء والقضاة، بأسلوبه الجحوي الذي تميّز هذه المرة بالبساطة والصراحة والصدق والعفوية المقصودة وفي إطار من الناحية الخفيفة تارة، أو التهكم أحياناً أخرى، والسخرية اللاذعة في أحايين كثيرة.

والحق أن نوادر الرمز الجحوي هنا، قد صورت في وضوح مدى الجور الذي لحق بالناس

عند غياب القانون، إبان عصور القهر السياسي والعسكري، فأبرزت كثيراً من مفاسد القضاء والقضاة واضطراب العدالة واختلال ميزانها، كما أبرزت ضيق أصحاب الحقوق، بالوساطة والشفاعة واتباع الهوى في الأحكام..الخ، ولعل أهمها بالتسجيل ظاهرة الرشوة، مادية كانت أو جنسية، وإن كان يشير إلى الجنس تلميحاً لا تصريحاً، وإلى تأثيره على القاضي في أحكامه، لكن أغلب الرشاوى مادية، وكثيراً ما قدّم جحا الرشاوى إلى القضاة ولكنها الرشاوى المزيفة دائماً، يعرف كيف ينتقم بها من هؤلاء القضاة بعد قضاء مصالحه.

وتجسم لنا النادرة الجحوية كيف أن القضاة يتبعون أهواءهم حينما يكون أحد طرفي القضية صديقاً للقاضي، أو ذا مكانة مرموقة، والخصم فقيراً لا حول له ولا قوة، وحين تتحكم في القضاء والمحاباة والمجاملة لا القانون أو الشريعة.

أما إذا كان القاضي نفسه أو السلطة الطرف الآخر في القضية فلا أمل في العدل، لقد ضاع، فالقضاء معناه أنهم جاؤوا ليحكموا على الناس لا على أنفسهم.

كذلك قد يقف -جحا- من القضاء موقف شاهد الزور، لكنه سرعان ما ينكشف أمره، فيفضح القاضي والمدعي معاً، ويسخر من شيوخ هذه الظاهرة في القضاء، برغم معرفة القضاء بأن الشاهد يمكن تأجيره، وأن يقول ما يلاقيه من دفع له، وهذا كله يعكس حقيقة واحدة هي أن ميزان العدالة مختل، وأن القيم والمعايير مفقودة في أخطر مناصب الدولة في السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً.

فالوجدان القومي لم يترك جحا، متقاضياً في قضية إلا انتصر له، وفي انتصاره لجحا انتصار على نظام القضاء الفاسد نفسه.

المصادر

١- نوادر جحا الكبرى- ترجمة حكمت شريف بك.
٢- جحا الضاحك المضحك- العقاد، ص١٩٠.
٣- دراسات عن جحا- كامل كيلاني.
٤- دائرة معارف محمد فريد وجدي، مادة جحا.
٥- الحكاية الشعبية- الدكتور عبد الحميد يونس ص١٠٤- العدد٢٠٠ من سلسلة كتب ثقافية.
٦- دائرة المعارف الإسلامية ص٨٧٧.
٧- أخبار جحا- عبد الستار فراج ص١٤.
٨- أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي الفهرس ص١٦٩.
٩- فلسفة المثل الشعبي -محمد إبراهيم أبو سنة ص١٢٧-١٣٨.
١٠-مذكرات جحا -محمد فهمي عبد اللطيف ص٦٦.
١١-الخطط التوفيقية لعلي مبارك ج١، ص٢، دار الكتب المصرية ١٩٦٩م.

آفاق المعرفة

خوسيه ساراماغو، الأدب والحياة ١٩٢٢- ٢٠١٠م

✽
ترجمة: محمد الدنيا

كاتب وأحد أبرز شخصيات الأدب البرتغالي. نال جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٩٨م. أعماله أصيلة، لم يكن بعضها موضع ترحيب في البرتغال. عاش شطراً من حياته في جزيرة «لانزاروتي» في أرخبيل «الكناري» الإسباني. جعلت منه مواقفه الملتزمة جداً ضميراً أدبياً، ليس دون جدال أحياناً، لكنه مسموع في العالم كله.

ولد خوسيه ساراماغو عام ١٩٢٢م في كنف أسرة فقيرة رحلت وعمره سنتان للعيش في لشبونة، حيث كان والده شرطياً. وغالباً ما ذكر أن أجداده عمال زراعيون.. (...) «كثيراً ما ساعدت جدي في الرعي، كنت أنقب الأرض، وأجلب الحطب للمدفأة، وأدرت كثيراً دولاب بئر القرية، وكم نقلت ماءً على كتفيّ. أتذكر يوم كنت أذهب مع جدتي عند الغسق لجمع القش لفرشه تحت الدواب..» (من كلمته لمناسبة تسلمه جائزة نوبل، ٧ ديسمبر ١٩٩٨م).

✽ كاتب ومترجم سوري.

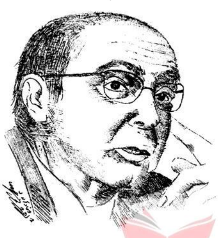
العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

كان عليه أيام يفاعته أن يترك الثانوية بسبب الفقر ليعمل في صنع الأقفال. كان عصامياً. مارس مهناً مختلفة. «ولدت في قرية صغيرة بوسط البرتغال، في أسرة فلاحين أميين.. لم أدرس في الجامعة، لعدم وجود إمكانيات.. تعلمت مهنة صنع الأقفال، التي مارستها سنوات عديدة في لشبونة. مع ذلك، أتذكر - كنت شاباً بعمر ١٨ أو ١٩ سنة أني قلت لرفاقي إني أود أن أصبح كاتباً. كاد ذلك يكون مزحة. لم أكن أملك كتاباً واحداً. لم أنشأ في وسط الكتب. كان علي أن أذهب إليها. أمضيت شبابي في التردد إلى مكتبة بلدية لشبونة كل مساء، دون أن يفرض علي أحد ذلك أو ينصحني به أي معلم يوجه قراءاتي. ورحت أقرأ. بقيت أقرأ وأقرأ وأقرأ. أنا عصامي فعلاً. لم يعبني ذلك ولا جعلني أزهو. لكني قرأت كثيراً. القراءة دائماً وأبداً أفضل طريقة لتعلم الكتابة ولو أن أعظم القراء طبعاً لا يصبحون كلهم كتاباً».

نشر أول رواية له، Terra do pecado «أرض الخطيئة»، عام ١٩٤٧م. أتبعها برواية ثانية، ورفضت في كل مكان. كان له بعد ذلك ديوان شعر، Os Poemas possiveis، لم ينشر إلا عام ١٩٦٦م. سينتظر عشر سنوات أخرى كي يكرس نفسه كلياً للكتابة. «كتبت دائماً، بل نشرت رواية وأنا في الخامسة والعشرين، ثم قصائد وأنا في الرابعة والأربعين. أفهمتني هذه المحاولات الأولى أن ليس لدي شيء أقوله. في هذه الحال، من الأفضل أن أسكت. جاء المنعطف فجأة، نهاية السبعينيات، دون أن أعرف لماذا وكيف. كنت أكتب آنذاك رواية Levantado do chão بعد أن أمضيت عدة سنوات في منطقة Alentejo الصحراوية الريفية. كان شيء ما في كياني يقول لي إن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون كتاباً: أحسست أنه سيظهر فيه شيء ما مختلف، دون أن أعرف بماذا يختلف ودون أن أتمكن من مفهمته. جلست، ورحت أكتب. جاءت الصفحات الأولى التي حررتها توافقية تماماً، مثلما اعتدت أن أكتب حتى الآن: كانت علامات التنقيط المعتادة كلها موجودة فيها. ثم، فجأة، نحو الصفحة ٢٠، رحت أكتب بهذه الطريقة التي عرفت بها، بضع جمل طويلة تمتزج فيها أصوات مختلف الشخصيات وحيث يتداخل أسلوب الراوي غير المباشر وحوارات الشخصيات في جملة واحدة هي نفسها، في موجة روائية تسير فقط على إيقاعات الفواصل والنقاط. كان ذلك دون شك منعطف حياتي ككاتب: اندفاعة بدت أنها حملتني فجأة على التخلي عن أسلوب روائي لتوجهني نحو بعد آخر في الكتابة، كما لو أني أعبر حدوداً. حرر هذا الانبثاق للغة شيئاً ما في أعماق أعماق ذاتي. كان ذلك كما لو أنه سدادة زجاجة مطمورة في كياني منذ الأزل ومختومة ثم طارت وتحرر ما في الزجاجة كلها. بعد ذلك، القراء هم الذين جعلوا مني كاتباً. لم أصبح كاتباً بالفعل إلا بعد أن صار لي جمهور قراء. حدد هذا الوعي بوجود قراء عملي بشكل ما. إن هذه

العلاقة الوجدانية التي تنعقد بين القراء والكاتب هي التي تجعله يدخل عالم الكتابة».

«غالباً ما اتسمت كتابات ساراماغو بالجمل الطويلة الموقّعة بفواصل كثيرة. ترحب تارة وتنقبض تارة أخرى، غنية بالأحداث، تنم ترقيماتها عن نزوع إلى اللاامتثال. يمكن أن تراها تتابُع جمل قصيرة حيث كان يمكن أن تحل النقطة مكان الفاصلة. فيها أيضاً الكثير من العبارات المعترضة، التي يمكن أن تكون أيضاً استطرادات موجهة للقارئ. لا تبدأ حتى حواراته بالعلامات المعروفة - خطوط قصيرة أو فواصل مقلوبة..- غير أنه يعالجها على شكل عبارات معترضة ضمن الجمل. يعطي غياب الفراغات في بدايات السطور الصفحة مشهداً مكثفاً. مع ذلك، يبقى أسلوبه سلساً ذا عذوبة. ساراماغو جدير بالقراءة. لا يتسول استحساناً آنياً. يستمتع بتعرجات فكره، ويجتذبك إليها شرط أن لا تعلق بها. ها هي اللغة البرتغالية أخيراً موضع احتفاء في العالم، من خلاله. للشعب مكانته في أعمال ساراماغو. لا يسعى إلى تصويره مثالياً. يأخذه بعين اعتباره، ببساطة. كتبه يعبّرها جنود، وخادمات، وباعة جوالون، قليلاً يتكلمون، لكنهم مفعمون بالحيوية». (نبذة من مقالة «جان - بيير



ليونارديني» Jean- Pierre Leonardini في صحيفة L'Humanité الفرنسية في ٩ أكتوبر ١٩٩٨م).

دخل ميدان الأدب بشكل حقيقي في عامه الثامن والخمسين، مع روايته Levantado do Châo، التي ظهرت عام ١٩٨٠م. ضم إنتاج «خوسيه ساراماغو» الأدبي، الذي يصل إلى نحو ٣٠ عملاً، ليس فقط النثر، بل أيضاً الشعر، ودراسات، ومسرحيات. ترجمت في أكثر من ٢٥ بلداً. وكان قد حصل عام ١٩٩٥م على جائزة Camões، الأبرز في الآداب البرتغالية. وقد جاء في تعليق «الأكاديمية الملكية السويدية» حين منحه الجائزة:

«فن ساراماغو الروائي، الذي طوره بإصرار، والذي يظهر تعمقاً غير متوقع، يضع الكاتبَ في

مرتبة عليا. مع استقلاليتــه كلها، يتعلق الكاتب بالتقاليــد بشكل يمكــن وصفه، ضمــن السياق الحــالي، بأنه راديكالي. يتجلى عمله في مجموعة مشروعــات تشكل محـــاولات جديـدة للإحاطة بحقيقة شاردة جعلها واقعاً ملموساً بفضل أمثال، وعبر الخيال والتعاطف، والسخرية».

كان قارئــاً نهماً للمفكر الفرنسي «مونتينيه» Montaigne، والإسباني «سرفانتس» والتشيكي «كافكا». وكثــيراً ما عبر عن إعجابــه بالروائي المكسيكي «كارلوس فوينتس» والروائي البرازيلي «جورج أمادو».

كان «ساراماغــو» واحداً مــن أولئك الكتاب الذين متى وجدوا أسلوبهــم ذات يوم لا يتخلون عنه بعــد ذلك أبداً. لا فصــل في طريقة كتابته بين أســلوب مباشر وآخر غير مباشــر، ولا أهلّة مزدوجــة فيهــا. يطــور في جمل طويلــة شروح الــراوي وحوارات شخصياته، ممتزجةً في صوت واحد، متوالدةً، ومعلّلة، سوداويةً، وغالباً ساخرة. «ليست المسألة عندي مسألة إلغاء تنقيط. أعتقد أننا نتحــدث بعناصر تأليــف الموسيقى نفسها: أصوات ووقفات، وجيــزة أو مديدة. طبقت هذا المبــدأ الشفــوي والموسيقي علــى أسلوبي، بأن لا أبقــي إلا علــى كلمات ووقفــات – الفواصل والنقاط. تعطــي طريقة الكتابة هــذه الأولوية للقيمة النغمية للجملة، التي يقرّب تنظيمُها بين الكتابــي والشفوي. لكن ذلك لا يعني نسخَ القول الشفوي على الكتابي، هذا لا يصح مطلقاً، بل نقلَ آلية اللغة المتكلمة إلى الكتابي. في الحقيقة، هذا ليس لونَ «شفاهية»، بــل لون «سماعية»، بمعنى أن كلماتــي مكتوبة كي تُسمَــع (...). في العادة، الحكايات التي أرويهــا تأتيني من الداخل. هذا كما لو أنها كانت موجودة وتحتاج إلى من يكتبها. عمليــة ترابط الأفــكار هامة جــداً في طريقة إبداعي. أنا شديد التعلق بالأفكار التي تراودني. لا أجلس إلى طاولتي وأنــا أقول لنفسي عليّ أن أكتب كتابــاً، مفكراً بالموضــوع. أنتظر بصبر أن تنبثق فكرة من أعماق كياني. الأمر صعب أحياناً عندما يطول مجيئها أكثر من اللازم. ولكن حتى الآن، ينتهي المطاف بها بأن تظهر، على نحو غير متوقع غالبــاً. بالنسبة لرواية «العمى» مثلاً، كنت في مطعم، المكان غير الموحي كثيراً. فجأة، راودني ســؤال: «ماذا لو كنّا كلنا عميانــاً؟». أجبت على ذلك فــوراً: لكننا كلنا عميــان. من هذه المضغة الصغيرة، تطورت الحكاية (...). لست من أولئك الذين يعيشون الكتابةَ معاناةً. لكن الأمور ليست سهلة. الكتابة عمل. يجب أن نكافح؛ أن نكافح من أجل التعبير الصحيح، من أجل التعبير الأنجح من وجهة نظر جمالية. هناك لحظات صعبة أحياناً. وهناك اللحظات التي يسير فيها كل شيء كما لو أن عضلاتك محمّــاةٌ: تكون هذه الفقرات سلسة إلى درجة أن القــارئ يخرج منها تقريباً بانطباع سهولة. هذه السلاســة في الكتابة لا تُصنَع: إما أنهــا موجودة، أو هي غير موجــودة. لست ممن يضعون مخططــات أو مسودات لرواياتهم. أكتب على غرار شجرة تنمو. تنمو، وتكبر وتكبر إلى أن تبلغ الحجــم الذي يجب أن تكــون عليه. كذلك

الحكاية التي أكتبها، تكبر، حتى تبلغ الحجم الذي هو حجمها، حين يقول الكتاب كل ما كان عليه أن يقوله ويعلمني بأن عليّ التوقف هنا».

من «سنة موت ريكاردو ريس»، إكراماً لذكرى «بيساو»، في لشبونة الماطرة رذاذاً، حتى كتابه الأخير، «رحلة الفيل»، بقي وفياً لكتابته، وإذا ارتبط اسمه بمواقفه السياسية الراديكالية المثيرة للجدل غالباً، فإن هذه الكتابة هي التي منحتها القوة. وليس العكس.

زوجته، الإسبانية «بيلار»، هي التي أقنعته بأن ينشئ مدونته الإلكترونية. لم تبد له هذه الممارسة مختلفة عن تلك التي بدأ يزاولها بمتعة في ستينيات القرن الماضي عبر زوايا الصحف. تعاطاها عن طيب خاطر، غير أن الشبكة لم تفتنه. «ليست البساطة والإخلاص خاضعين للتوسع وسرعة نشر النص.. ليست المدونة خلاص الأدب»، قال بعد أن أغاظه صدى الإعلام الذي تحدث عن «نوبل ثمانيني» يتحول إلى التقانات الجديدة. قبل وفاته ببضع سنوات، أخذ يغذي مدونته بانتظام، دون أن يكرر نفسه. «ما يدفعني إلى الاستمرار في الكتابة وأنا في السادسة والثمانين هو ضرورة التواصل البشرية الملحة. كنت طوال حياتي متحفظاً، قليل التواصل. يمكنني قول ذلك اليوم، بالتأكيد: بعمر ٨٦ سنة، وأنا أعرف أن أيامي باتت معدودة، أفلحت في قول كل شيء. كتابي القادم، الذي سيصدر في البرتغال، ولا أود الحديث عنه الآن، سيكون خاتمة أعمالي. كل ما كنت سأقوله بعده، ما كان ليضيف شيئاً جديداً».

روايات ساراماغو حكايات رمزية، «أفكار في خيال»، تقول ناشرة أعماله الفرنسية «آني مورفان» A. Morvan؛ أو هي متخيلات هدفها انبجاس أفكار لدى القارئ. وهكذا، ماذا يمكن أن يحدث لو أن شبه الجزيرة الإيبيرية انفصلت عن أوروبة، «كلها، دفعة واحدة»؟ فُسرت روايته «الطوف الحجري»، التي ظهرت عام ١٩٩٠م، على أنها نقد لأوروبة السياسية في طور ولادتها آنذاك وكان قد أعلن عن معارضته لها في صحيفة Libération: «عبثاً وجدت فكرة البيت المشترك السخي جداً، لا أستطيع أن آلفه، لأن في البيوت كلها صالوناً، وغرفة طعام والمطبخ والمستودع». بعد ذلك بعشرين سنة، وقعت الأزمة النقدية التي تهز بلداناً من حوض المتوسط، مؤكدة حدسه.

كان ساراماغو في سنواته الأخيرة شديد الالتزام بالحركة المناهضة للعولمة الليبرالية المنفلتة، الحركة التي وضعت قيم الديمقراطية والعدالة الاقتصادية وإنقاذ البيئة وحقوق الإنسان في مقدمة أولوياتها وطالبت بعولمة مضبوطة وتضامنية. شارك بشكل خاص في الندوات الاجتماعية العالمية.

لبست البرتغال الحداد رسمياً يومين على العملاق الأدبي الذي رحل. ورأت إسبانيا أنه نطق بصوت الأضعف، وتحدثت فرنسا عن رجل ملتزم، ووصف الرئيس البرازيلي وفاته بأنها خسارة كبرى للناطقين بالبرتغالية..

الحرف العربي.. وأفق الخيال

معصوم محمد خلف

اللغة نسق من الإشارات والرموز، يشكل أداة في المعرفة، وتعتبر اللغة أهم أدوات التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة. ومن دون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي. وترتبط اللغة بالتفكير ارتباطاً وثيقاً. فأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني. فقط في اللغة تحصل الفكرة على وجودها الواقعي. واللغة ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها.

كذلك تمثل الكتابة واللغة مقومًا من أهم مقومات الأمم الثقافية، فهما وسيلة سجل تراثها وثقافتها ورمز قوتها وحريتها، ومعلم من معالم حضارتها، وهمزة وصل بين أجيالها

* باحث وخطاط سوري.

المتعاقبة، لذا كانتا محل عناية الأمم واهتمامها، ويعظم شأنهما حين تكونان وعاء إرث خالد، اختاره الله لغةً لخاتمة الرسالات السماوية إلى الأمم كافة ولغة لكتابه الكريم، المعجزة الخالدة التي تحدّى الله بها فصحاء العرب وبهرهم بسحر بيانها وروعة معانيها ودقة نظمها.

كما يمنح الخط العربي الفنان قدرة على التجويد والانطلاق، فهو حقل مفتوح للإبداع والتنوع ودرجات التجسيد في مسارات مختلفة.

وعلى شاطئ مدرسة الخط العربي نبغت عدة ألوان حافظت على النقاء الكلاسيكي وبهر التدفق من ينبوع لا ينضب أبداً.

كذلك فالخط العربي هو هوية المنطقة وألحانها الفنية، كما أنه يعطي مساحة للاجتهاد والاقتراب من أفكار جديدة وموضوعات تستوعب لغة العصر وتلقي بظلالها عليه.

ودائماً الخطاط العربي في بؤرة الاهتمام وفي مركز الضوء لأن الفن الذي يقدمه يعتمد على دراسة طويلة ومعرفة عميقة بالقرآن والعلوم النحوية وقواعد الإملاء وفنون الزخرفة والتشكيل ومدرسة الخط العربي متنوعة وتعطي دائماً فرصة للنبوغ في هذا العالم الثري الذي يجدد نفسه دائماً بالتأمل في الخط القرآني وقواعد الكتابة، وإشراقات العطاء.

لقد حمل المسلمون قيم الإسلام العليا وأخذوا في نشرها وتعميمها في أرجاء المعمورة كافة وبدأت عملية التفاعل بينها وبين الحضارات الفارسية والهندية والمصرية والحضارة الأوروبية الغربية فيما بعد.

ومع مرور الزمن نتجت حضارة إسلامية جديدة، أسهمت بتلاقح وتفاعل تراثها الفكري والمعرفي والفني الإبداعي في إنضاجها لمكونات حضارات الشعوب والأمم التي دخلت الإسلام.

ولم يلبث هذا النضج أن أنتج فناً إسلامياً رائعاً قُدر له أن يكون من أجمل الفنون جمالاً وكمالاً ومن أوسعها تقبلاً في مهج وقلوب الناس جميعاً.

فنٌّ ازدهر في جميع بقاع الأرض وما تخالط أو تمازج مع فن آخر إلا اكتسب تآلفاً وتناغماً شديدين، فدخل في العمارة والفنون الزخرفية والتطبيقية والفنون التشكيلية بمختلف جوانبها.

فنٌّ يتسم بخاصية التنوع في الوحدة، ويتميز بالحيوية والتفاعل مع غيره من الفنون تأثراً وتأثيراً فهو فن لايشيخ أبداً.

فعندما يكتنف الغموض أسرار اللوحة الخطية من حيثيات ومجريات التطبيق الفعلي فإن اللوحة الواحدة ذات نوع ومقاس مشترك وحجم موحد ونص محدد، وفي مشغل الإنجاز كل على حدة ولو وزّع على خيرة الخطاطين والمبدعين في العالم لنتج من ذلك لوحات تصدح عبقرية ورؤى متنوعة قلَّ أن يتطابق في فعلها لوحتان.

يدلنا هذا على أن النسيج الخطي يأخذ توليفات متنوعة في تصميم اللوحة الخطية والتي تتفرد بآفاق بعيدة واختلافات عديدة، مما يعطي لهذا الفن كل الحيوية والنماء على مواكبة العصر والبحث في دراستها بحذق وموضوعية شاملة.

إننا الآن نسير في الأفق الرحب الذي يتماشى مع عبقرية الخط والتي تلامس جوهر الثقافة روحاً وعطاء. ومن الواجب علينا أن نثري هذا الأفق في إعطاء الأهمية البالغة لهذا الفن الذي يواكب العصر ويتواءم مع التحديث وينأى في الدخول بين متاهات العولمة.

لقد وقف هذا الفن بكل شموخ أمام جميع التحديات، وحتى هذه اللحظة مازلنا نكتشف فيه الجديد والثمين.

إن المحافظة على صناعة وتطوير هذا الفن الجميل ونشره في وسائل الإعلام كافة، بات يمثل مطلباً تسعى إليه الكثير من المنتديات والمؤسسات الثقافية تأكيداً على هويتها السمحة التي تتمتع بها.

وفي إطار التنظيرات والاجتهادات التي تهدف إلى المحافظة على هذا التراث، ينبغي الوعي التام للدور الذي يمكن أن يساهم به هذا الفن الجميل نحو بناء جسور التواصل الإنساني والحوار الحضاري العالمي.

إن الفن عموماً والخط العربي منه خصوصاً، هو أصدق أنباء التاريخ وهو واحد من أهم علوم هندسة الروح والجسد وأكثرها سمواً ورقياً، ذلك لأنه قادر كموسوعة وقوّة خازنة لخيال الأمم عل تحقيق التواصل والتفاعل الحضاري.

وقد لعب فن الخط العربي دوراً كبيراً في خلق حوار فنّي حضاري متميّز، لأنه انطلق من هويته وحافظ على خصوصيته الثقافية فاستطاع من خلال جمالية إبداعه الفني تقديم الوجه الحقيقي لحضارته وإعطاء زخم هائل من المفردات المتنوعة التي يحاول التغني بها والتفاعل معها.

فالحركة الفنية التي تعج بالحياة والبناء قد صنعتها يراع الخطاط، من تراصف الحروف، وازدحام التشكيل، وإيقاع الكلمات، في هندسة بنائية تضيف إلى الفن الإسلامي لوناً آخر من ألوانه العريقة، ارتبط بعروبة اللغة، وعربية القرآن.

وما أحوج أجيالنا اليوم لأن تتذوق جمال الخط العربي، وعذوبة انحناءاته، وانزلاق رسومه، ولا سيما أن الفن قد ارتبط بصخب الموسيقى، وفضيحة الصورة في إيقاع يخطف البصر، ويفسد روعة الفن في زمن العولمة، فضلاً عما اقترن بالأذهان من أن الحاسوب قد حل مكان أنامل الخطاطين.

والأمر في حقيقته كمن يشم الأزهار البلاستيكية بعيداً عن أريج البنفسج والياسمين.

وليست هذه الصورة خيالية فيا لكثرة ما تخرّب الذوق الفني، والإحساس الجمالي في زحمة العبث بالفطرة، والاستمتاع بالرعب، والطرب بالأصوات المنكرة.

كما أن الحروف العربية تستطيع أن تعبر عن المشاعر والأحاسيس، بتنوع أشكالها وأساليبها لغة تعبير بصرية.

فالفن هو لغة أشكال وألوان، ولعلّ التنوع الكبير لأساليب الخط يجعله لغة رحبة وميداناً فسيحاً للتعبير.

فالخط الديواني بليونته ورقة حروفه تجعله رومانسياً موسيقياً، والكوفي بهندسته وصلابته أحياناً وزخرفته تجعله لغة معمارية، وخط التعليق خط رقيق خفيف بصرياً وهو خط الشعر والطيران، وأنواع تتفرع إلى مئتي نوع.

والخطاط المتمرس على الخط بكل أشكاله وأنواعه يمر بمرحلة طويلة من التدريب حتى ينفتح له الخط في تجلياته وإشراقاته وكأنه يشرق من داخله هندسة روحانية، وقد يخفق ولا يوفق أحياناً لعدم جلاء أفق الخط له، وهذا مرتبط بحالة الصفاء الداخلي.

وإن من خاصية الحرف العربي، الميلان أثناء الكتابة، والذي يحمل قيمة صوفية، تتجلى في الثقافة العربية كلها، كالرقص الصوفي، والميلان الروحي، الذي نجد له مثيلاً في الحركة الطبيعية، كانحناء الأشجار والأنهار، وتموجات الرمل الأساسية، والتي ربما كان لها أكبر الأثر في تشكيل هذا الميلان، بما يرينا أن الحرف العربي، ليس وليد الصراع أو الانقلاب، وإنما وليد التواصل الطبيعي، واستلهامه حضارياً، حيث يواصل الخط الطبيعي، ميلانه بكل حرية (لأن الميلان ميزة أساسية في الخلق الكوني) فلا يجد ثقافياً واجتماعياً ما يؤدي إلى تحريف هذه الطبيعية، أو يضغط عليها ليقولبها في أطر ثقافية جامدة، وحتى الخط الكوفي الذي يعتمد على وضع الحدود الهندسية للحرف، لم يسمح بقيام مثل هذه الرؤية فيه، بل إن هندسيته قامت أساسا على الميلان وتوظيفه بالقدر نفسه مع التحديد، وهذا يعطينا فكرة عن المرونة التي يتميز بها الخط العربي، والحرية التي يتيحها لاستيعاب متضمنات الطبيعة، وإدماجها في الأنساق الاجتماعية والثقافية.

كما أن بعض الخطاطين المشهورين ينعتقون مع حروفهم ويتحولون معها إلى ما يشبه ترنيمة سماوية، تتجاوز فيها الحروف وتتعانق في سيمفونية بصرية تفيض بأجواء روحانية، وكأن الحرف بمثابة شيخ صوفي حمله الوجد ليتطلع إلى السماء بحثاً عن فضاءات أكثر اتساعاً وحرية.

فالمزاوجة الواضحة بين جماليات الخط ورقي المضمون سمة واضحة في أعمال الخطاطين المبدعين ليستمد الحرف مما يحمله من معان روحاً جديدة وقوّة كامنة تتوالد عنها تركيبات وتكوينات تعكس قدرة الفنان على سبر أغوار الحرف وأسراره، وتوظيفها ببراعة في إطار جمالي يتداخل فيه الإيقاع والحركة مع اللون في لوحات بصرية ولونية تعكس بشموخ الرشاقة والتآلف فيشعر المتلقي مع حركة الحرف واتجاهه الدائم بالارتقاء.

العلاّمة الدكتور فخر الدين قباوة
- رحلة العطاء الدائم -

محمود أسد ٭

ليسَ بالأمرِ السهلِ الكتابةُ عن الدكتور فخر الدين قباوة. وليس من الممكن الإحاطة بجميع المجالات الفكرية والأدبية التي عمِل عليها، ومـا زال يعملُ بحكمة الشيوخ، ونشاط الشباب، ورغبة العلماء. ولذلك الاقتراب من حرم إبداعه مخيف وله رهبتُه.

أجد نفسي راغباً بالكتابة ومُحرجاً معاً. لأنّني واحدٌ من طلابه الذين تلقّوا العلم على يديه في جامعة حلب وتتلمذوا لمدة ثلاث سنوات، وهي السّنوات الأولى من الجامعة. فقد حزْتُ شرف التعلّم والتكوين المعرفي على يديّ رجل علم لا يكلّ، ولا يعرف التوقّف ونحن في أوّل تكويننا الجامعي. فدرسنا النحو والصرف في السنة الثانية والثالثة، ودرسنا الأدب في السنة الأولى /زهير بن أبي سلمى/ /والأخطل الكبير/ في السنة الثانية. وشرح المعلّقات

٭ أديب وشاعر وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

في السنة الأولى. وكنًّا نشعرُ بالرهبة من مادته، فكان جاداً وحريصاً على سلامة تكويننا المعرفي والتخصّصي.

ربّما كنّا نتضايق من دقته وتعليقاته الساخرة على أشكالنا وشعورنا ونحن في مقتبل العمر،وبداية دخولنا الجامعة. ولكننا أدركنا قيمة المعرفة المكتسبة منه بعد تخرّجنا ودخولنا ميدان الحياة العملية. أصبحت هذه المعرفة مصدر اعتزاز وافتخار بعد التخرّج، فالخوف والحضور والتطبيق المنهجي للنحو والصرف جعل منا مدرّسين متمكّنين من هذه العلوم. وهذه شهادة يذكرها المتابعون عن خريجي جامعة حلب.

هذا الانطباع الذاتي لا بدّ منه، ومن باب الوفاء يجب ذكرُه، وتناولُ تجربة الدكتور قباوة وإعطاؤه بعضاً من الوفاء والتكريم.

والصعوبةُ الثانية في متابعة وتناول نتاجه يكمن بغزارته وتنوُّعه. وحجمُ المقالة يتحكّم بنا ولذلك سأتناوله تعريفاً ومتابعة ونتاجاً ورؤية. وإنني أدرك صعوبة المهمّة وحساسيّتها، وسعيتُ للتهرب منه والانفراد بالدّراسة من دون الاستعانة به، وهو بالأساس هارب من اللقاءات والإعلام. فلا يعنيه في حياته إلا المتابعةُ وتقديمُ محصوله وزاده المعرفي لمريديه ومحبيه وما أكثرهم!.

الدكتور فخر الدين قباوة: النشأة والتكوين:

من بيئة شعبية بكل ما تعنيه الكلمة ولد ونشأ. ولادته كانت عام /١٩٣٣م/ ألف وتسعمئة وثلاثة وثلاثين للميلاد في حلب. والده نجيب وهو رجل بسيط، صاحب مقهى كان يديره مع أخيه، وليس صاحبَ تحصيل علمي سوى اطّلاعه على بعض من قراءات لكتب التفسير والأدب.

منذ صغره والتحاقه بالمدرسة الابتدائية كان يعمل إلى جانب الوالد. ومن ثمّ إلى جانب أخيه الكبير بعد وفاة والده.

انقطع عن الدراسة سنوات ثمّ عاد إليها في النظام الليلي الذي كان سائداً حيث يعمل نهاراً، ويتابع الدراسة ليلاً، وهذا دال على حرصه ورغبته وشغفه وتضحيته،ويضاف إلى ذلك تحمّل المسؤولية مبكّراً. وبعد نيل الشهادة المتوسطة دخل دار المعلمين، ونال شهادتها ثم الثانوية. ودرّس في التعليم الابتدائي مع التحاقه بكلية الآداب من جامعة دمشق. وكان ذلك على نفقة وزارة التربية. ونال منها الإجازة في علوم اللغة العربية سنة /١٩٥٨م/ ألف وتسعمئة وثمان وخمسين. ودبلوم التربية سنة /١٩٥٩م/ تسع وخمسين وتسعمئة وألف ،وبعد ذلك انتقل للعمل في المدارس الثانوية.

والدكتور قباوة عُرفَ بأنّه طموح ومندفع اندفاعَ الشباب، فقد نال عدّة شهادات، ونال دبلوم الإدارة والتفتيش، وشهادة الدراسات العليا من القاهرة سنة/١٩٦٠م/ ألف وتسعمئة وستين وفي سنة واحدة فقط. وأوفد إلى جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة. وذلك سنة /١٩٦٦م/ست وستين وتسعمئة وألف وقبلها نال درجة الماجستير /١٩٦٤م/سنة ألف وتسعمئة وأربع وستين. وفي عام /١٩٦٧م/سبعة وستين



وتسعمئـة وألف عُيّن مدرّساً لـلأدب القديم في كليـة الآداب بجامعة حلب. ومـع دخوله ميدان التدريس الجامعي وبقـوّة وثبات وجدّ لا يعرف الكلـل انتقل من جامعة إلى جامعة ومن دولة إلى دولـة.. في المغرب والإمارات والسعودية وجامعة اللاذقية. وقام بزيـارة علمية بضعة أشهر لمعهد الدراسات الشرقية في بكين (الصين).

لم يكـن طريقُ عمله سالكاً كمـا يحبّ المرء، فاعترضته عقباتٌ ومصاعبُ ومزاحمات، ولكنه اجتازها متسلّحـاً بثقته وإيمانه وقناعاته وحبّه. وبقي محافظاً علـى آرائه وطبيعته التي ضايقت الكثيرين من الزملاء والإداريين.

وكان للدكتور قباوة مساهماتٌ علميّة وبحثية وإشرافٌ على نيل درجتـي الماجستير والدكتوراه في الأدب القديم والإعراب والصرف، وقد شارك عضـواً في لجنة التحكيم في جائـزة سلطان بن عويس. والعديد من المؤتمرات والندوات الأدبيّة والنحويـة.. وله مساهمات فعالّة في إعداد موادّ للموسوعـات العلمية في الأردن وتركية. ويضاف إلى هذا النشاط انتخابُه عضواً في بعض المجامع العلمية في البلاد العربية.

إصداراته وأبحاثه:

كتبٌ وأبحاثٌ وتصنيفات الدكتور قباوة تشكّل مكتبـةً شاملة ومنوّعـة وذاتَ أهمية علمية، لها مصداقيّتها ومكانتها لطلاب العلم والمعرفة. وقد قدّمته كتبه وأبحاثه عالماً موثوقاً دقيق الملاحظة صلبَ الرأي ممتلئ الذهن والقلب علماً ومعرفة. نتاجُـه الغزير متنـوِّع، ويشكل حديقـة متنوِّعة الأصناف والأشجـار والثمار من تأليف وتحقيق وردٍّ وأدب وقرآن وتشريـع وعروض وشعرٍ ونحو وصرف وتطبيق..

ومعظمُ كتبه صارت مرجعاً أساسياً للباحثين

ولا غنى عنها لمن يريد التعمّق. وأضحى الدكتور قباوة مبتغى الباحثين ومقصدَ السائلين والساعين لفك ألغاز النّحو والصرف. وبعض كتبه تُرجم إلى اللغة الإنكليزية (كتاب الجمل في النحو) للخليل بن أحمد الفراهيدي.

والدكتور قباوة التفّ حوله الكثيرون من التلاميذ في الدول العربية، ولكنّه لا ينكر دور أساتذته وشيوخه ومنهم:

«عبد الوهاب التونجي وسعيد الأفغاني وعبد الرحمن الباشا وعبد الرحمن عطبة وشكري فيصل وصبحي الصالح وعمر فروخ وشوقي ضيف وحسين النصار ومحمد مبارك..»

ولهؤلاء دور في تشجيعه والأخذ بيده إلى حدائق الخير والمعرفة، وقد حبّبوا إليه علوم القرآن والعربية، فكان خيرَ مندفع ومحبٍّ وذلك في كتابه «تفسير الجلالين» و«توظيف الحديث النبوي في الدراسات النحوية».

واعتمد منذ بدايته في التدريس الجامعي على توجيه طلابه إلى دراسة النّحو والصّرف مستفيدين من القرآن والأحاديث النبوية. وهو صاحبُ الصّرخة المدويّة والمقالة المعروفة «افتحوا الأبواب لأفصح من نطق بالضاد» ومن مصادر معرفته إتقانه وإحسانُه اللغة الإنكليزية، وكانت للدكتور قباوة آثار شعرية ضاعتْ مع الزمن وشغلته عنها أبحاثُه ومتابعاته ومؤلّفاته ودأبه.

ومن مصادر معرفته سفرُه وزيارته للعديد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية ممّا ولّد لديه حبَّ المعرفة وإيصالَها للآخرين.

له في التأليف مجموعة من الكتب المنوّعة، وأغلبُها يتوجّه إلى علم النحو والصرف والإملاء.. منها:

١- ابن عصفور والتّصريف.
٢- إعراب الجمل وأشباه الجمل.
٣- تحليل النّصّ النّحوي.
٤- تصريف الأسماء والأفعال.
٥- تطوّر مشكلة الفصاحة والتّحليل البلاغي وموسيقى الشعر.
٦- مع المهارات اللغوية.
٧- المورد النحوي.
٨- المورد النحوي الكبير.

وفي الكتابين الأخيرين يُبرزُ الدكتورُ حسنَ اختياره للنّصوص، ويقدّم حسنَ نواياه بالتوجّه إلى طلاب الجامعة مستفيدين من النّصوص كأدب مختار، ومن التطبيق والإعراب النّحويّ والصّرفي. ولهذين الكتابين دورٌ عظيم الجدوى في تكوين طلاب الجامعة مع كتاب إعراب الجمل.

وله في التأليف وفي مجال الأدب عدّة كتب منها:

١- سلامة بن جندل الشّاعر الفارس.
٢- مشكلة ونظريّات للحلّ.
٣- قراءة موجّهة في مكتبة علوم العرب.
٤- منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليّات.

الأخطل الكبير.

وبرزتْ إمكانيّة الدكتور قباوة في مجال التحقيق تنظيراً له وممارسة. هذا العلم الذي يحتاج لإلمام متكامل ويعتبره الدكتور قباوة، علماً

عربيّاً إسلامياً. له رجالاته ومُتقنوه في البحث والرواية والتلقي والكتابة والتعليم. فالتحقيق إعادة البعث والإحياء لكتاب ينظر بعين العتب. وقد كتب أطروحة تتناول هذا الموضوع وذلك في كتاب «علم التحقيق للمخطوطات العربية بحث تأسيسي للتأصيل»

في الكتاب يرد على المستشرقين الذين تجاهلوا أحداث التاريخ ونسبوه إلى الدول الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي ورأى أنّ أوّل محقق عربي هو أحمد زكي باشا وأوّل كتاب عربي كان «تحقيق النّصوص ونشرها» للأستاذ عبد السلام هارون /١٩٥٤م/. في الكتاب يسرد المراحل التاريخية لتطور علم التحقيق انطلاقاً من توثيق القرآن والسنّة النبوية. وفي الكتاب يبرز أهمية التحقيق بربط الحضارات والشعوب والأحداث. ولذلك اندفع بحبٍّ لأداء هذه الرسالة السامية، فأقدم عليها بثقة ودراية وعمل بصمت محققاً الكثير من الكتب منها:

١- الألفاظ لابن السكيت.
٢- الجنى الداني في حروف المعاني لابن أم قاسم المرادي.
٣- ديوان سلامة بن جندل لأبي العباس الأحول.
٤- شرح شعر زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب.
٥- شعر الأخطل لأبي سعيد السكري.
٦- القسطاس في علم العروض الزمخشري.

وللدكتور فخر الدين قباوة فضلٌ في تقديم العالم التبريزي وقد حقَّق معظمَ كتبه وقدّمه للمكتبة العربية فحقق له:

١- الإيضاح في شرح سقط الزّند للخطيب التبريزي.
٢- تهذيب إصلاح المنطق للتبريزي.
٣- شرح اختيارات المفضل =
٤- شرح المعلقات العشر =
٥- شرح مقصورة ابن دريد =

وهناك الكثير من الكتب وقد طُبعتْ أكثر من مرة وفي أكثر من دولة وجامعة. وهذا كاف ليقدّم لنا جهد عالم، كتب اسمه بتعبه ومثابرته. وهذا شعاره الدائم ووصيّته لزملائه وطلابه ومريديه. وبتمثّله قول الرسول الكريم:

((إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل)).

وقول الرسول أيضاً:

((إنّ الله تعالى يحبُّ، إذا عمل أحدكم عملاً، أن يُتقنه)).

هذه رسالته. وهذا نهجُه فأعطى هذا الزاد المعرفيَّ الذي يقرنه بعلماء الأمة الإسلامية والعربية عبر عصورها. وهذا ماجعل الجامعات والدول تدعوه زائراً ومحاضراً. وقد اكتفيتُ ببعض الكتب ويضاف إلى ذلك سجلُّه في النشر في المجلات العربية المحكمة منها على سبيل التذكير «مجمع اللغة العربية بدمشق - المجلة العربية -مجلة العربي- والمعلم العربي- والجامعة الإسلامية وكلية الدراسات الإسلامية والعربية

وبحوث جامعة حلب، والثقافة الإسلامية وعالم الكتب».

هــذه الرحلة الطويلة والمثمرة أشاد بها وأقرَّ بفضلها رفيقُ عمــره في الدراسة العليا والتعليم الجامعي والبحث الأكاديمي الدكتور بكري شيخ أمين، والدكتور بكـري شيخ أمين حظيتُ بشرف الدراســة بين يديه في جامعــة حلب، وخصصْته بدراســة في الجزء الأول مــن سلسلة كتب «أدباء من حلــب في النصف الثاني من القرن العشرين» وهــذه الدراسة للجــزء السادس. وقد اعترف الدكتــور بكري شيخ أمين بمكانته ودوره، وتوقف عنــد محطات مشرقة وثرية مــن محطات عطاء الدكتــور قبــاوة. وبالمقابل أبــدى استغرابه من تجاهل الأقربين لمكانته فيقول:

«كنّـا في السنوات الأولى من افتتـاح الكلية صوفيـين وفدائيـين. لا يزيـد عددنا علـى اربع، هم الدكتـور الراحل صبري الاشتر والدكتور عمر الدقاق والدكتور فخر الدين قباوة وأنا».

وكان لي شـرفُ التعلّم والدراسة على يديهم. وأشـاد بمثابرتهـم وتضحيتهـم وإخلاصهـم. واسمعوا أنين هذا الألم مــن الدكتور بكري شيخ أمين:

«واليـوم والدكتـور فخـر الديـن يقـف علـى العتبـة الأولى من سلم التقاعد، ويدفع دفعاً إلى الراحة والإخلاد إلى النوم، ولمّا يعطِ كلّ ما لديه مـن علوم، ولا أفرغ كلّ ما في جعبته من جواهر»، ويتساءل ويرفع عقيرته بالسؤال:

«لماذا لا تطبّق مصر قانون التقاعـد؟ ولماذا يبلـغ الدكتـور شوقـي ضيـف -رحمـه الله- مئة سنـة من العمر، ويصاب بالصّمم، وبشبه العجز عـن المسير، ويظـلّ أستاذاً في كليـة آداب القاهرة. وأسـتاذاً شرفاً فيهـا؟. وينطبق هذا على الدكاترة مصطفـى الشكعـة ونيقـولا زيـادة وغيرهـم..» ويتسـاءل الدكتور بكري مستغربـاً ومستنكراً ما يجري:

«ولماذا نذهـب بعيداً وجارتُنا تركيا ما عندها في الجامعـة تقاعد. فالأستـاذ يبقى في الجامعة أستـاذاً يعطـي إذا كان قادراً علـى العطاء أو على صـورة مستشـار، يستضيـء بخبرتـه الأساتـذة المحدثون والطلاب جميعاً..؟».

هذه وقفات سريعة ممـا ذكره الدكتور شيخ أمين ولنا عودة إلى ورقته من بعد..

محطات وآراء واجتهادات:

من الطبيعي وبعـد رحلة من العطاء الشاقة ورحلة البحث والعلم والتعليم والتأليف أنْ نجد أنفسنـا أمام عـالم قلّب صفحـات الحياة، وقرأ مـا فيها، وعـبّر عمّا اكتسبه وادّخـره. فلم يكن بخيـلاً على طلاّبه وعصـره، كان عنوان الإيثار في تقـديم ثمـار آرائـه اليانعـة، وكان مثالاً في غَيرته على العربيّة الفصيحة وعلى بيان القرآن الكريم. فاللغة انتماء وهويّة، واللغة كيان ووظيفة إنسانيّـة. وقد قدّم بحثه للمجلس العالمي للغة العربية وعنوانه «الهويّة القومية وعروبة اللسان» جاء في ثناياه حبّه وغيرتُه واعتزازه:

«للغـات في نفوس الأمم قدسيّةٌ عالية، لما هي عليه من الوظيفة الإنسانيّة الخطيرة، على ذلك ترى جميع الشّعوب فيما نقله إلينا التاريخ..».

ويقول أيضاً: «والمعروف بين الأمم اليوم أنه لا يجوز استخدام شيء من العاميّ في مجالس العلم والتعليم والإعلام، ومن صدر عنه شيء من ذلك في حديث أو كتابة احتقره الناس كلهم، وأهين في موطن عمله.. ونحن الآن يحسن بنا أن نبحث هذا الجانب من واجبات الشخصية العربية لنتبيّن الحدود التي يجوز لنا أن نتخطاها..»

ولذلك يقول في مكان آخر من بحثه والوقوف أمام الدسائس والمواقف اللغوية المشبوهة:

«لا بدّ إذاً من تجنّب مثل هذه الدسائس الدخيلات، في مجالس العلم والإعلام العربية أو لتوجيه الحوار المعرفي فيها، إذا أردنا الحفاظ على الهويّة القوميّة وعروبة اللسان بحق، والتصدي لغارات العولمة الثقافية وما تجرّه من تهديم وتلويث للألسنة والعقائد والمفاهيم والقيم والمثل».

للدكتور قباوة موقف واعٍ وحرص قوي على سلامة اللغة وضرورة تجنيبها العثرات والاستهتار ويعتبر ذلك مسّاً بالفكر القومي والإسلامي وله أكثر من تصريح في المؤتمرات والمقالات والمنتديات. فيقول في المقالة نفسها (الهوية القومية وعروبة اللسان):

«ومن ذلك المنطق القومي تتابعت الخدمات الجلّى للإخوة نصارى العرب، تمارس عروبة اللسان وتغذّيها بالإنجازات النموذجيّة والتوجيه والتسديد، في مختلف مجالات الحياة..»

ويجدر بنا أن نتوقف عند هذه الآراء التي لم تأتِ من فراغ. وهو الذي قال في اللقاء الذي جرى معه في صحيفة الأنباء الكويتية أثناء زيارته الأولى في العدد ١٠/١٠/٢٠١٠م وأخذ عدة عناوين هامة منها:

«الدكتور قباوة: تعلّم اللغة العربية سنّة مؤكّدة وعلى العرب والمسلمين أن يُتقنوها ويستخدموها في حياتهم العامة دون غيرها»

وأيضاً يقول:

«بالتعريب نستطيع استقبال العولمة، وعلماؤنا بدأوا تعريب العلوم قبل خمسين عاماً ولو استمرّوا لتمكّنوا من أنْ يقدّموا لنا لغة تستوعب العلوم والحضارة».

ويسأله الصحفي: ما الطريقة المثلى للنهوض ب علوم العربية؟

فيجيبه: «أرى أن الطريقة المثلى أن نرجع إلى القرآن الكريم، وتعلّم الأطفال قراءة القرآن أو حفظ القرآن وأرجو من أخوتي المسؤولين عن اللغة العربية والتعليم أن يخلصوا في تقديم لغة القرآن ميسّرة ومبسّطة في أحاديثهم وعلومهم وتربية أبنائنا على اللغة العربية، لتكون مَلَكة في أذهان العرب وأسلوباً وحيداً يستعملونه في الحياة ويحقّقون محبّتهم للقرآن الكريم».

فالدكتور قباوة أمسك بزمام القضية والحقيقة، فلغة القرآن الكريم لغةُ أدب وتعبُّد، وُيتقنها ويُعجب بها غيرُ المسلمين لما لها من دور في استقامة الألسن وتهذيب وصقل الملكة اللغوية. هذا ما دفعه لتأليف كتابه (فتاوى في علوم العربية /٢٠٠٧م/). وهو كتاب يقوم على البحث وتقديم الفتاوى في علوم العربية ويوضح

بـأنّ هذه الفتاوى ثمرةُ إعراب القرآن الكريم في مجلس أقامه في حلب، وفيه تناول بعض المسائل الإعرابية والصرفية ومعاني الأدوات والتفسير.

واليك بعض آرائه واجتهاداته في مجالات علم الصرف:

«المصنِّفون يُكثرون مــن تصريف الأفعال في علم الصرف الحديث، ولا يولون تصريف الأسماء وبناءها العناية الكافية».

- **الأفعال قسمان**: إما ثلاثي وإما رباعي، ولا يوجد خماسي وسداسي فالخماسي ثلاثي مزيد بحرفيــن والسداسي بثلاثة أحــرف ويعتبر ذلك للتيسير في المدارس والحقيقة أن كتب الصرف اعتبرت الفعل المجرد ثلاثياً أو رباعياً.

ومن آرائه الصحيحة:

ليــس عندنا الاحرف علّة (الـواو والياء) أما الألف فيرجع أصلها إلى أحد الحرفين.

وقــد اجتهد بتسمية جملة فعل الشرط غير **الظرفي في كتابه إعراب الجمل.**

رأي للبحث:

مكانــة الدكتور قبــاوة وسيرتــه في البحث والتحقيــق والتأليف والفتــوى لا يمكن تجاهلها بشــكل من الأشــكال ومع ذلك ما زلْــتُ أتساءل سؤال المتابع:

أين رأيـه في تبسيط كتابة الإملاء والهمزات والحـالات الشـاذة وخاص الخاص. في عصر أضحـت مشكلـة أمـام طلابنـا، وهـم يواجهـون أشـكالاً مختلفة لكلمـة واحدة «شـؤون - شئون - جزءان - جزآان - جزآن ..».

وهناك موضــوعُ تبسيط القواعــد النّحوية وتطوير أساليب الدرس الأدبي، والرسم القرآني وما يسبّب من متاعــب في قراءته وكتابته للجيل الحالي الذي يصعب عليه قراءة وكتابة النصوص العاديّـة. كلها قضايا تنتظرُ من عَلَم وشيخ جليل في مجال البحث والتقصّي والتحقيق. ورأيه مبعث تأمل ودراسة لأنّه ابن بجدته إذا اجتهد.

والدكتــور فخــر الديــن قبــاوة عمل في مجال التعليم الجامعي لعقود مديدة وفي مجال التدريس والإعــراب القرآني في مسجد من مساجد حلب، ولكنه غيّــب نفسَه، أو غُيِّب عــن المشاركات في النشاطات الثقافية العامــة، والزوايا الصحفية اللغويــة، وهذا مبعــث تســاؤل. فالدكتور قباوة علَــم وجديــر بالتقديــر والأوسمــة والتكريم. وحلــب كرّمت الكثيرين ممّن يستحقّون، وربما لا يستحقّــون وتغافلت عن قامة علمية زيّنت أعناق الباحثيــن في القطر وخارجــه، ورأت بأمّ عينها مكانتهــا الحقيقيّة خــارجَ قطرها في المؤتمرات والجامعات والدوريات المحكمة ولذلك أعود إلى الدكتور بكــري شيخ أمــين وإلى شهادته وكلمته برفيق عمره الطويل قائلاً:

«بالأمس كان فخر الدين قباوة طفلاً صغيراً فقـيراً بـل يكاد يكـون مُعدَمــاً. انتسب إلى كتّاب فيــه فقراء، فنهــل منه ما شاء الله أن ينهل، حتى إذا نــال الشهـادة المتوسطة التحق بـدار المعلمين الابتدائيــة، وأمضى فيها ثلاث سنوات متفوقاً، وتقــدّم إلى امتحانـات الثانويــة العامــة فنجح، وانتسب إلى كلية الآداب بدمشق، ومنها أوفد إلى

مصر تقديراً لتفوّقه ونجاحه الكبير، وحيازته الدرجة الأولى في الجامعة على جميع زملائه.

ويتساءل اليوم: أين أنا، وإلى أين وصلت؟

فيرى نفسه مغروساً في قلب كلّ من درّسه، وعلّمه وقرأ له، ويرى طلابه منتشرين ليس في سورية وحدها وإنما في العالم العربي كله، وأكثر من هذا فإن الجمهورية الإسلامية الإيرانية أخذت بعض كتبه فقرّرتها..

«ورغم هذا الانتشار الكبير والسمعة العطرة فما زال يعطي ويعطي حتى يسقط القلم من يده..»

هذا العالم المجدُ الجادُّ ألا يستحق تكريماً يليق به، ولذلك اقترحَ الدكتور بكري شيخ أمين ألاّ يُبخَس حقُّه وهو حيٌّ، وألا ننتظرَ حتى يموت ثم نسمي شارعاً باسمه، فأراد التكريم لهؤلاء المبدعين وهم على قيد الحياة.

إنّ الكتابة عن إنسان له فضلٌ عليك تُشعرك بالتقصير، وتدعوك للزيادة. وأنا مُدانٌ بالفضل لأولي الفضل منهم.

فقد درستُ الدكتور بكري شيخ أمين في الجزء الأول والدكتور محمد حموية -رحمه الله- في الجزء الثالث والدكتور فخر الدين قباوة أمدَّ الله في عمره في الجزء السادس من هذا الكتاب. وما هذا إلا لزرع غرسات التواصل والمحبّة والوفاء لمن علّمنا حرفاً. فكيف لمن أعدّك لحمل رسالة الأنبياء والرسل؟.

الأزمة المالية والاقتصادية تعصف بالاتحاد النقدي الأوروبي

د. قحطان السيوفي *

تواجه دول أوروبة الغربية وخاصة دول الاتحاد النقدي الأوروبي (منطقة اليورو)... تحدياً كبيراً قائماً على نوع من التعامل المعقد بين السياسة والاقتصاد. وتعيش هذه الدول أزمة مالية واقتصادية خانقة ناجمة عن تداعيات الأزمة المالية العالمية، وانعكس ذلك عجوزات كبيرة في الموازنات الحكومية، تضخم هائل في الديون العامة للعديد من دول منطقة اليورو التي أوشكت على الإفلاس: اليونان، البرتغال إيرلندا، إسبانيا وحتى إيطاليا. وقد وصف وزير الخارجية البريطانية (وليم هيج)، منذ أسابيع، منطقة اليورو بأنها (أشبه بمبنى يحترق ،دون أبواب للخروج) وهذا ليس توصيفاً درامياً، وإنّما هو تصريح لوزير خارجية دولة أوروبية كبرى. وهكذا فإن الأزمة المالية العالمية تركت انعكاسات سلبية حادة على منطقة اليورو.. لكن العديد من المحللين يرون أن أزمة الاتحاد النقدي الأوروبي

---

* اقتصادي وخبير مالي ووزير سابق.

لم تكن لتوجد بهذا الشكل الحاد السلبي لو لم يكن هناك عملة أوروبية موحدة. والسؤال هنا هل ما قاله وزير خارجية بريطانيا صحيح أم أنه مبالغة لأغراض سياسية؟

سأحاول تعريف القارئ بالواقع الاقتصادي الحالي لدول منطقة اليورو التي تصاعدت فيها أزمة الديون العامة في الدول الطرفية.. حتى وصلت الأزمة إلى شواطئ إيطاليا وأطاحت بحكومة برلسكوني.. وتدق أبواب فرنسا وحتى بلجيكا وهولندا والنمسا وتأثير تسهيلات الاستقرار المالي الأوروبي بالانتشار الوبائي للمرض.. وقد أضاع زعماء الاتحاد الأوروبي الخائفين والمترددين أكثر من سنتين في اختبارات.. هزت صدقية السلطة المصرفية الأوروبية. ولم تنجح حتى الآن خطة الإنقاذ التي وضعت بمشاركة صندوق النقد الدولي في إيجاد حلول لمشاكل منطقة اليورو المتصاعدة. ويبدو أن الدول الأوروبية التي تتحمل أعباء إنقاذ الاقتصادات الضعيفة (ألمانية..) مضطرة للبقاء في البناء الذي يحترق مع عدم امتلاكهم الوسائل الكافية لإطفاء الحريق.. كما أن الأساليب المتعثرة المتبعة للتعامل مع أزمة منطقة اليورو غير قادرة على حل المشاكل الأساسية. وإذا استمر هذا النهج فإن الاتحاد النقدي الأوروبي يسير باتجاه التفكك، والانهيار.

المشهد في دول منطقة اليورو

يبدو أن قول وزير خارجية بريطانيا بأن منطقة اليورو أشبه ببناء يحترق.. يعبر عن واقع المشهد الاقتصادي في منطقة اليورو التي عجز فيها صناع السياسة عن احتواء أزمة الديون السيادية، وأصبحت المسألة تتجاوز مشكلة السيولة إلى مشاكل أكبر وأهم وهي عدم القدرة على السداد.. وأصبحت أجزاء مهمة من منطقة اليورو لاتستطيع الحصول على الائتمان بل باتت منطقة اليورو معرضة حاليا إلى اصطفاف للانسحاب من جانب المستثمرين العالميين، وهناك تآكل شامل للثقة مما قد يؤدي إلى تدمير البند الرئيسي من إستراتيجية الإنقاذ. وتنتقل من دولة إلى أخرى كما سنرى.. حتى باتت تهدد الاقتصاد الفرنسي.

اليونان: وصلت ديونها إلى أرقام قياسية تقارب (١٧٠٪) من ناتجها المحلي الإجمالي وهي تواجه مشكلتين كبيرتين: أولهما عدم القدرة على سداد فوائد الديون (Insolvency) ومشكلة إمكانية استدامة الدين. وبالتالي فهي مهددة بالإفلاس. وقد خفضت وكالات التصنيف الائتمانية الدولية اليونان إلى أقل تصنيف سيادي في العالم مما يؤدي إلى ارتفاع تكاليف التمويل ووجودها في منطقة اليورو يجعلها غير قادرة على تطبيق سياسات نقدية تحفيزية ،أو اللجوء إلى تخفيض قيمة عملتها السابقة لدعم صادراتها.. وفي حال خروجها من منطقة اليورو والعودة إلى عملتها السابقة (الدراخما) فمن المرجح أن تنخفض قيمة عملتها بشكل حاد تجاه اليورو مما سيؤدي إلى تضخيم ديونها المقدرة باليورو، وستصبح اليونان غير قادرة على تسديد

ديونها وستعلن إفلاسها، وينهار نظامها المصرفي مما يفاقم الوضع الاقتصادي سوءاً. وأمام هذا لابدَّ لليونان من قبول خيار خطط الإنقاذ، التي زادت عمليا من المعاناة.. حيث انكمش الاقتصاد اليوناني بنسبة (١٤٪) ومن الأرجح أن الوضع الاقتصادي سيزداد تدهوراً على الأقل في الأمد المنظور رغم المجيء برئيس وزراء جديد، وبالتالي سيكون خروج الدول الضعيفة كاليونان من الاتحاد النقدي الأوروبي كارثة حقيقية عليها.

إيطاليا: العديد من المراقبين يرون أن معركة انهيار اليورو ستكون من خلال مواجهة مشاكل إيطاليا الاقتصادية المتفاقمة: الدين العام ضخم وهو الأكبر في منطقة اليورو مايقارب ألفي مليار دولار، تباطؤ في النمو الاقتصادي، شيخوخة السكان عدم وضوح الأوضاع السياسية، وتدفع إيطاليا فوائد تبلغ نسبتها (٤،٨٪) من الناتج الإجمالي المحلي الوطني ويبلغ المتوسط النسبي لعجز **إيطاليا** عن السداد (٤،١٣٪) مع أن إيطاليا تتمتع بمستودع ثري من المستهلكين والشركات وحوالي ٦٥٪ من دينها العام تترتب على أفراد إيطاليين أو شركات إيطالية خاصة إن الأزمة الاقتصادية دخلت إلى إيطاليا من الباب العريض وأطاحت برئيس وزرائها الجامح (برلسكوني) وأتت برئيس وزراء جديد ذي خبرة عالية في القضايا الاقتصادية (مونتي) أمامه الكثير من المتاعب والمشاكل المتعذرة الحل رغم الإجراءات التقشفية الحادة وموافقة إيطاليا على المراقبة الربع سنوية لاقتصادها من قبل صندوق النقد الدولي.

فرنسا: وصلت الأزمة النقدية إلى فرنسا التي اقتربت فروقات سنداتها من المستويات الإيطالية التي كانت سائدة منذ ستة أشهر. لقد نشرت وكالة التصنيف الدولية (ستاندرز أند بورز)، بالخطأ كما أعلن، تخفيضاً للتصنيف الفرنسي وهذا يشير بشكل واضح إلى أن وكالة التصنيف الدولية هذه تعد فعلاً للتخفيض.. لأن ما حدث هو بمثابة ضغط على الزر في وقت مبكر للغاية.. وبالتالي من المحتمل أن تفقد فرنسا تصنيفها (AAA) ليصبح (AA) وذلك لا يغير الواقع السيئ لأن تسهيلات الاستقرار المالي في دول منطقة اليورو هيكل هش وضعيف الرسملة. وتستند إستراتيجية الإنقاذ الأوروبي إلى مثل هذا الواقع وبالتالي فإن منطقة اليورو تقع على حافة الانهيار المالي. بالمقابل يلاحظ أن فرنسا تكاد تستنزف كل ما لديها من أدوات للتعامل مع الأزمة الاقتصادية.

ألمانيا: في سابقة لم تحدث منذ إيجاد اليورو عام ١٩٩٩م: طرح في السوق سندات ألمانية بمبلغ ستة مليارات يورو لم يشتر المستثمرون منها إلا أربعة مليارات وهذه الظاهرة تدلل على حجم القلق الذي ينتاب المستثمرين في ألمانيا وقد شكل ذلك صدمة للمستشارة الألمانية (ميركل). لماذا تعارض ألمانية إصدار سندات أوروبية؟ ألمانية تعارض بشدة قيام البنك الألماني الأوروبي بإصدار السندات الأوروبية لأن ذلك سيؤثر في تكلفة الاقتراض في ألمانية والتي تعد الأقل في منطقة اليورو ولأن ذلك سيؤدي أيضاً لتقليل

الحافز لدى دول منطقة اليورو للاستمرار في تبني برامج تقشفية.

بالمقابل ماذا لو انسحبت ألمانية من منطقة اليورو؟

البعض يرى أن المخرج لحل أزمة الاتحاد النقدي الأوروبي المستعصية يكون بخروج ألمانية من منطقة اليورو وليس بخروج الدول الهامشية التي تعاني من ضعف اقتصاداتها!!.

إن خروج ألمانية من منطقة اليورو يعني فقدان الثقة بالعملة الأوروبية الموحدة في فترة تسبق انهيار اليورو مما يجعل قيمته تتراجع بشكل كبير وهذا يمكّن الدول الضعيفة الخروج من منطقة اليورو من دون أضرار اقتصادية جسيمة ووجهة النظر هذه ترى أن ذلك قد يحقق لعملات الدول الضعيفة المنسحبة من الاتحاد النقدي ارتفاعاً تجاه اليورو مما يخفض قيمة ديون هذه الدول المنسحبة لتصبح أقدر على سداد هذه الديون.

إذن، ما مصلحة ألمانية لتكون أول دولة تخرج من منطقة اليورو؟

في الواقع إن ألمانية تضررت وستتضرر أكثر بسبب ما تقدمه من دعم للدول الضعيفة اقتصادياً في منطقة اليورو وهذا الدعم يبدو أنه بمثابة دعم للمصارف الألمانية الدائنة لتلك الدول الضعيفة.

بالمقابل فإن الصعوبات التي تواجهها منطقة اليورو بشكل عام أدت إلى تراجع قيمة اليورو أمام العديد من العملات الرئيسية الأخرى مما تسبب في تشجيع الصادرات الألمانية وأدى إلى قوة الاقتصاد الألماني. بالمقابل في حال خرجت ألمانية من منطقة اليورو فإن المارك الألماني سيشهد ارتفاعاً في قيمته وبالتالي تتضرر الصادرات الألمانية، إذاً ما هي المكاسب التي تحققها ألمانية من خلال بقائها في منطقة اليورو؟

وجهة نظر بعض المحللين تتلخص بأن هذه المكاسب مرحلية قصيرة الأمد قد تؤدي لإدخال الاقتصاد العالمي في أزمة مالية جديدة ربما تفوق بآثارها السلبية الأزمة المالية العالمية الحالية التي حدثت عام ٢٠٠٨م. خاصة وأن الدول قد استنزفت - في مواجهة الأزمة المشار إليها - كل خيارات السياسات المالية والنقدية المتاحة وبالتالي لم يبق لدى هذه الدول خيارات كثيرة أخرى إذا حدثت أزمة جديدة لذلك يرجح المراقبون في حال وصول ذلك أن يحدث انهيار للنظام المالي العالمي مع ما يرافق ذلك من كساد حاد.

الولايات المتحدة وأزمة منطقة اليورو

الملاحظ أنه لن يكون هناك حدود قارية لأزمة الديون الأوروبية وستتأثر الولايات المتحدة بها حتى الصين أيضاً لأن البلدين الأخيرين شركاء تجاريون لدول أوروبة.

إن الأزمة المالية العالمية لم تنته بعد بل ربما تكون في مخاض جديد وثمة اختلاف شديد في برلين وواشنطن حول خطة إنقاذ اليونان، فالألمان يرفضون الفكرة الأمريكية لمضاعفة صندوق الاستقرار المالي الأوروبي إلى ترليون دولار ومع ذلك يبدو أن البنوك التجارية الأوروبية في منطقة

اليورو تعيش أزمة سيولة خانقة وقد تحتاج هذه البنوك لمساعدة بنك الاحتياطي الفدرالي الأمريكي، إذا لم تتمكن الخطط الأوروبية المطروحة من حل كارثة الديون الأوروبية.

الملاحظ أيضاً أن أسواق المال الأمريكية الرئيسية قللت حجم معاملاتها من الودائع المصرفية الخاصة بمنطقة اليورو ومن الأوراق التجارية، وكذلك سندات الائتمان الخاصة قصيرة الأجل إلى (٢١٤) مليار دولار حتى آب ٢٠١١م بدلاً من (٣٩١) مليار دولار في نهاية عام ٢٠١٠م حسب بيانات مصرف (جي بي مورغان) حيث ظهر عجز في معالجة نقص التمويل قصير الأجل وهو دور لا يمكن القيام به إلا من قبل بنك الاحتياطي الفدرالي ويفسر ذلك بأنه لعبة سياسية تدخل ضمن المقايضات مع أوروبة.

بالمقابل في الوقت الذي يعاني فيه الاقتصاد الأمريكي من أزمة حادة خانقة ويحتاج لقارب نجاة تبدو حاجة أوروبة للتمويل ويظهر الساسة الأمريكيون وخاصة الجمهوريون معارضة لإقرار البنوك التجارية الأوروبية ووجهة نظر هؤلاء الساسة أن أرباح البنك الاحتياطي الأمريكي لا يجوز أن تذهب لمساعدة الأوروبيين الذين مارسوا سياسات خاطئة لذا يرون أن ذلك سيؤدي لمخاطر مادية ومعنوية خاصة وأن حجم ديون أوروبة يقدر بـ ٣٠٠ مليار يورو أي ما يعادل ٤٠٨ مليار دولار.

الخوف من التفكك

هل مايجري في منطقة اليورو على الصعيد الاقتصادي هو اضطرابات مؤقتة؟ أم تحول جوهري في الطريقة التي تتم فيها ممارسة السياسة وقد تؤدي لتفكك منطقة اليورو؟

إن احتمالات التفكك تدل على تحول قوي في الرياح السياسية. وهناك رفض ضمني لإجراءات التقشف وعمليات الإنقاذ.. وتفكك منطقة اليورو، بشكل فوضوي، سيؤدي إلى إلحاق الضرر الفادح بمشروع التكامل الأوروبي، وهذا الأخير كان الركيزة الأساسية للاستقرار السياسي في أوروبة بعد الحرب العالمية الثانية. كما أن التفكك سيزعزع الاستقرار في كل أنحاء أوروبة، بما في ذلك الدول القوية اقتصادياً كألمانية.

نخلص إلى ما يلي:

- كان من الممكن حل الأزمة النقدية الأوروبية بتكلفة أقل لو أن هناك آلية لخروج الدول الأعضاء من منطقة اليورو عندما ترى هذه الدول أن مصلحتها الوطنية تقتضي الانسحاب.

- دول منطقة اليورو الضعيفة اقتصادياً والتي تفرض عليها حلول تفاقم مشاكلها. مثلاً اضطرار هذه الدول لتخفيض الإنفاق الحكومي يعني أن اقتصاداتها ستعاني من الانكماش. وستنخفض إيراداتها الضريبية، مما يؤدي بالضرورة إلى المزيد من خفض الإنفاق العام، مما يفاقم عجز الموازنة ورغم كل إجراءات التقشف التي تنفذ، فإن الحاجة تتزايد لخطط إنقاذ جديدة تتحمل أعباءها دول المنطقة الأقوى اقتصادياً؛ ألمانية مثلاً.

- مع تفاقم مشكلات منطقة اليورو، سوف لن يكون بمقدور الدول الأقوى اقتصادياً أن تستمر في تحمل المزيد من أعباء خطط الإنقاذ.. وربما يتم الوصول إلى نقطة لاتستطيع معها هذه الدول تقديم الدعم مما قد يؤدي إلى انهيار منطقة اليورو.

- فكرة خروج الدول الضعيفة اقتصادياً من منطقة اليورو، والعودة لعملاتها الوطنية، رغم صعوبتها الشديدة يبدو أنها مطروحة ومقبولة نسبياً والأمر الخطير أن تستنتج الدول الأعضاء أن التكاليف السياسية والمالية للبقاء ضمن منطقة اليورو، ربما تتجاوز كثيراً تكاليف الخروج منه.

- البعض يرى أن الخيارات المتاحة لحل أزمة منطقة اليورو يأتي في مقدمتها الخيار الأقل سوءاً ويتمثل في التخلف عن سداد الديون، والانسحاب من منطقة اليورو بشكل منظم وجيد التنسيق.

- إن اليورو هو (طفل حرب) تمَّ إيجاده لأن أوروبة كانت تكافح من أجل التعافي بعد الحرب العالمية الثانية.. اليوم لم تعد الحرب تسيطر على هواجس أوروبة وبالتالي فإن وجود اليورو لم يعد منطقياً.

- ألمانية على لسان المستشارة (ميركل) تدعو لإقامة اتحاد مالي واتحاد سياسي يدعم اليورو ويساعد القارة العجوز على الخروج من أصعب أوقات تواجهها منذ الحرب العالمية الثانية. وسياسة ميركل تعتمد على (القيام بما يكفي تماماً، في الوقت المناسب تماماً) وهذه الإستراتيجية الألمانية جاءت متأخرة للغاية. لأن ما كان مجرد أزمة في دول اليورو الهامشية أصبح اليوم حريقاً هائلاً.

- بالمقابل فإن إيجاد اتحاد مالي قد يؤدي إلى فقدان جزء من السيادة الوطنية، ولكنه يوجد وزارة مالية أوروبية وهيكل مؤسسي يفترض أنه ذو صدقية للتعامل مع السياسة المالية.

- في السياسة الأوروبية كما في الاقتصاد الأوروبي أصبح واضحاً أن الخيارات الجيدة لم تعد متاحة، ولم يبق سوى الخيارات الأقل سوءاً. وكل محاولات بعض الدول الأوروبية استعادة نفوذها الضائع وتصدير مشاكلها للخارج على شكل حروب لن يكون مصيرها إلا الفشل.

- أمام هذا الوضع الاقتصادي المتردي والذي يهدد مصير الاتحاد النقدي الأوروبي المريض، حان الوقت لما سماه (جون ماينر كينز) (قول الحقيقة القاسية) وهو أن أمام منطقة اليورو خيار بين البدائل السيئة الكارثية.

ولم تستطع القمة الأوروبية في بروكسل (٢٠١١/١٢/٩م) التوصل إلى صفقة. خاصة مع رفض بريطانيا المطلق لاقتراح إقامة اتحاد مالي أوروبي، ويبقى الاتحاد النقدي الأوروبي مهددا بخطر الانهيار والتفكك خلال فترة ليست بعيدة.

آفاق المعرفة

علم الاستشعار عن بعد

د. منير سويداني ✿

إن عبارة «الاستشعار عن بعد» هي تعريب للعبارة الإنكليزية (Tele Detection)، وللعبارة الفرنسية (Remote)، وهي تعتمد على الصور التي تلتقطها الطائرات والأقمار الصناعية لاستخراج المعطيات منها بوساطة تحليل الموجات الإلكترومغناطيسية المرسلة من مختلف الأجسام الموجودة، إما على سطح الأرض أو في باطنها أو في الجو أو في البحر كذلك.

ويُعرَّف الاستشعار عن بعد بأنه العلم والفن الذي يستخدم للحصول على معلومات حول هدف ما، أو منطقة أو ظاهرة معينة من خلال تحليل المعلومات التي حصل عليها بوساطة جهاز استشعار لا يلامس هذه الأهداف المراد التحقق منها.

وقد عرف الاستشعار عن بعد كمصدر معلومات مهم يستخدم في إنشاء الخرائط الطبوغرافية. والآن مع التقدم التقني الإلكتروني والثورة الكبرى للحاسب الآلي التي بدورها تساهم في معالجة الصور الفضائية أصبح تحديث الخرائط أمراً سهلاً وممكناً، خصوصاً

✿ كاتب وباحث سوري.

أن الصور الفضائية تُخـزّن رقمياً (Digital)، وبذلك تكون سهلة المعالجة والتخزين والاستعادة وعرض المعلومات.

تاريخ الاستشعار عن بعد

تاريـخ الاستشعار عـن بعد بدأ مـع ابتكار التصويـر الفوتوغـرافي (التصويـر الضوئـي) عـام ١٨٣٩م، وفي بداية عـام ١٨٤٠م أيَّد مدير المرصد الفرنسي في باريـس استخدام التصوير الفوتوغـرافي للمسح الطبوغـرافي، ومنذ ذلك الوقت ازدهـر التصوير الفوتوغـرافي بوساطة استخـدام البالون والطائـرات الورقية في ذلك الوقت التـي كانت تستخـدم في الحصول على الصـور الجويـة، وذلك في عـام ١٨٨٢م. وكان أشهـر المصورين الذين استخدمـوا تلك الأشياء الأمريكـي «لورانس» الذي علق كاميرات ضخمة لالتقاط صور جوية فوق المدن. وفي عام ١٩٠٣م ابتكـرت الطائـرة على يد الأخويـن «رايت» ولم تستخـدم الكاميرات عليها إلا في عام ١٩٠٩م في رحلة قام بها الأخـوان «رايت» في إيطاليا، وبعد ذلك ومـع نشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت الصور الجوية شيئـاً أساسياً للاستطلاع الجوي العسكري، ولكن التقدم الكبير في التصوير الجوي وتفسيـر الصـور الجوية أتى مـع بداية الحرب العالمية الثانية والتطور العسكري في ذلك الوقت. ونظراً للحاجـة الملحة لمعلومات أفضل اخترعت نظـم جديدة بدلاً مـن الكامـيرات المستخدمة في الطائـرات ألا وهـي الماسحـات الإلكترونية الضوئيـة، وهذه النظم هي المستخدمة حالياً في الأقمار الصناعية.

وقـد ظهر مصطلـح الاستشعار عن بعد في عـام ١٩٦٠م علـى يـد بعضـ الجغرافيين من مكتب البحـوث البحرية الأمريكـي، وفي العام نفسه أطلقـت الولايات المتحدة الأمريكية القمر الصناعي (TIROS Television Infrared Observational Satellit)، وهـو خاص بالأحوال الجويـة، ومنذ ذلك الوقـت استخدم مصطلح الاستشعار عن بعد في البحوث العلمية، وقـد ازداد ذكـره يوماً بعد يـوم في التطبيقات العسكرية والمدنية. ومراقبة الأرض لاتزال تتطور بشكل سريع مع صنع وسائـل استشعار متقدمة، وأيضـاً إرسال الأقمـار الصناعية الجديدة إلى الفضاء كل عام.

مفهوم الاستشعار عن بعد

مجرد أن تسمع بمصطلح الاستشعار عن بعد فـإن أوَّل سؤال يتبـادر إلى الذهن هو ماذا يعني هذا المصطلح؟ وعلى الرغم من تعريفه في بداية هذا المقـال إلا أنه يجب التوضيـح أكثر لفهمه، فـإن الجواب هو أن الله سبحانــه أعطانا نعمة البصر التي نستخدمها بشكل يومي، وذلك برؤية الأشيـاء التي ينعكس منهـا الضوء وهو المصدر الرئيسي للرؤية، كما أثبت ذلك العالم العربي «أبو علي الحسن بن الهيثم»، وبذلك يعتبر هو أوَّل من قال بـأن الرؤية تحصل من انبعـاث الأشعة من الجسم إلى العين التـي تخترقها الأشعة فترتسم على الشبكية وينتقل الأثر من الشبكية إلى الدماغ

بوساطة عصب الرؤية فتحصل الصورة المرئية للجسم، وبهذا أبطل النظرية اليونانية القائلة بأن الرؤية تحصل من انبعاث شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي.

ونعود إلى مصطلح الاستشعار عن بعد الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الأشعة الكهرومغناطيسية المنعكسة من ضوء الشمس أو من أي ضوء صناعي آخر، فمثلاً وأنت ترى شاشة حاسبك الآلي فإنك فعلياً تستخدم الاستشعار عن بعد. إن كمية الضوء المنبعث من تلك الشاشة يعتبر مصدراً للإشعاعات المنعكسة إلى لعين، وبذلك فإن الأشعة المنعكسة تمر خلال المسافة بين شاشة الحاسب الآلي والعين، وبهذا فأنت في نطاق استخدام الاستشعار عن بعد بوسيلة استشعار عن بعد طبيعية ألا وهي عيناك التي ترى شاشة الحاسب، فكل عين ترسل إشارة للمعالج وهو الدماغ الذي بدوره يسجل المعلومات ويحللها وبالتالي تعطيك الصورة النهائية لما ترى فعلياً.

فكرة الاستشعار عن بعد إذاً أتت من الفكرة السابقة نفسها وذلك بصنع أجهزة استشعار تعمل عمل العين في التقاط الصور بوساطة الأشعة المنعكسة من الضوء، وهذه تسمى أجهزة استشعار سالبة، أو بواسطة أجهزة استشعار موجبة ترسل وتستقبل الأشعة المنتجة، إلا أن العين لا تستطيع أن ترى إلا في النطاق المرئي، أما الأشعة الأخرى مثل الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء وغيرها فهناك أجهزة استشعار خاصة تستخدم لإلتقاط هذه الموجات التي لايستطيع الإنسان رؤيتها.

إن عملية الاستشعار عن بعد تتضمن التفاعل بين الأشعة من المصدر الإشعاعي والهدف الذي يستقبل هذه الأشعة، وهذه ممثلة بوساطة استخدام النظام التصويري التي تتضمن سبعة عناصر، مع الملاحظة أن الاستشعار عن بعد أيضاً يتضمن أجهزة استشعار تطلق الموجات الإشعاعية وتستخدم النظام غير التصويري. أما العناصر السبعة التي يعتمد عليها الاستشعار عن بعد، كما ذكرها العالم الأمريكي «ليلاند كافير»، فهي كما يلي:

١- مصدر الطاقة أو الضوء.

٢- تولد الأشعة خلال الغلاف الجوي وتفاعلها مع الهدف.

٣- تسجيل الطاقة بوساطة المتحسس (جهاز الاستشعار).

٤- الاستقبال ومعالجة المعلومات.

٥- تفسير وتحليل المعلومات.

٦- التطبيق.

تطبيقات الاستشعار عن بعد

تستخدم تقنية الاستشعار عن بعد الطاقة الكهرومغناطيسية لجرد واكتشاف المصادر والثروات الأرضية، وللقيام بالمراقبة الدورية المتكررة للبيئة في الأرض، ولحل المشكلات المتعلقة بها، والقيام بالتخطيط لاتخاذ إجراءات وتدابير معينة تهم المصادر والثروات الأرضية، كما أنها تستخدم في التطبيقات العسكرية،

ولذلــك تستخدم هذه التقنية في مجالات عديدة من أهمها:

١ - **المجـالات العسكريـة**: تأتـي أهمية هذه التقنية في ثلاث حالات هي:

- **في البر**: مساعدة القيادة على رسم مجموعة خرائط بمقاييس مختلفة لأماكن العدو، ودراسة التربة لنقل الوحدات والأماكن الصالحة للإبحار والتجمعــات، والتعرف علــى الطرقات والموانئ وقواعــد التدريب وتحرك الوحــدات المقاتلة في الزمان والمكان، مع اكتشاف كل المنشآت العسكرية في بقعة العمليــات مثل: مخازن الذخيرة، قواعد إطلاق الصواريخ، المطارات وغيرها.

- **في البحـر**: مساعــدة القيــادة في التعرف علــى مواقع البواخر والسفــن ورصدها، ورصد السواحــل وتحديــد حــالات ومناطــق مصادر التلوث، وإمكانية التدخل السريع في حال حصول كوارث.

- **في الجـو**: مساعــدة القيــادة في التعــرف علــى أشكال الأرض وتضاريسهــا (الانحراف المغناطيســي، الارتفــاع، الممــرات الجويــة)، وتوفير خرائط فضائيــة تساعد على التدريبات والمنــاورات. وتساعد هــذه التقنيــة في دراسة طبيعة الأهداف وتحديد مواقعها بدقة متناهية، ودراســة الوضــع التكتيكي للعمليــات، ودراسة المسالك وطرق سير القوات.

٢ - **في مجـال الجيولوجيـا الهندسيـة**: تستطيع أجهزة الاستشعار عن بعد تقديم أرشيف مهم من الصور الفضائيــة والجوية التي تستند إليها أعمال تخطيط المدن وإنشاء معظم الطرق الرئيسية والسـكك الحديدية والمطارات الجوية والقنــوات المائية ومد الأنابيب، وإقامة الشبكات الكهربائية والمنشآت الكهرومائية، واختيار مواقع تشييد السدود وأرصفــة الموانئ البحرية، حيث تقــدم الصور الجويــة رؤية منظوريــة للمدينة وما يحيط بهــا، وهذا ما يؤمّن التحليل الأفضل للقضايــا الاقتصاديــة ومعرفة التــوزع الأمثل للمناطق السكنيــة وتأمين متطلبــات الصناعة والخدمات العامة.

٣ - **التنقيـب عـن الـثروات المعدنيـة**: يؤدي الاستشعار عن بعد دوراً كبيراً في اكتشاف المكامن المعدنية العميقة التي يتطلــب اكتشافها تقنيات معقدة لدراسة طبقات الأرض طبيعياً وكيميائياً، خاصــة وأن كل نوع من الفلزات له ظروف تشكل بيئــة جيولوجية تختلف من فلــز لآخر، فالصور الفضائيــة المحسنة والملونــة والمركبة تساعد في اكتشــاف خامات النحاس والرصاص والتوتياء والفضة والذهب والقصدير والنيكل واللاتيريت والحديد وخامات الكبريت والفوسفات والبوتاس واليورانيوم وخــام البوكسيــت، وفي كشف الملح والجصــ والبور، كما يــؤدي الاستشعار عن بعد دوراً كبيراً في التنقيب عــن الغضار، وهي المادة الأساسيــة في صنع السيراميــك والقرميد، وفي التنقيب عن الرمــال والحصى والمواد الأساسية المستخدمة في بناء المنشآت.

٤ - **التنقيـب عـن النفـط والغـاز**: تمكــن الصور الفضائية من تحديد الأحواض الرسوبية

والاتجاهات البنيوية الإقليمية والبنيات التكتونية المحلية، وبالتالي تحديد المناطق المأمولة نفطياً وغازياً.

٥ – **التحري عن المياه:** للاستشعار عن بعد دور مهم في التحري عن المياه الجوفية، حيث تقدم هذه التقنية إمكانية دراسة مناطق واسعة من خلال صور فضائية واحدة يمكن من خلالها تحديد العديد من مناطق الأمل المهمة التي توجه الباحثين إلى تحديد مواقع حفر آبار المياه الجوفية اعتماداً على مؤشرات «طبوغرافية» خاصة، فوجود الفوالق والصدوع والشقوق والتكسرات في المناطق الكلسية القاسية يدل على وجود المياه الجوفية. كما يفيد الاستشعار عن بعد في تحديد مواقع الطبقات الحاملة للماء والقريبة من السطح، وذلك من خلال دراسة المؤشرات الدالة على هذه الطبقات، كدرجة حرارة السطح، وعامل انعكاس النباتات وتوزعها.

٦ – **مراقبة البيئة وكشف التلوث:** يقدم الاستشعار عن بعد معلومات مفيدة في المجالات البيئية البحرية، حيث تساعد في وضع خرائط قاع البحار والمحيطات ومعرفة البيئة تحت البحرية وتحديد البيئة قرب الشاطئية، إلى جانب مراقبة ودراسة الأمواج المائية وتحديد المواد المترسبة قرب الشاطئ، وذلك من خلال استخدام تقنية التصوير الحراري تحت الأحمر. كما تقوم تقنيات الاستشعار عن بعد بدور مهم في تقديم المعلومات الدقيقة لحماية البيئة من التلوث الناجم عن تواجد الطبقات النفطية الطافية في مياه البحار وتحديد موقعها وتقدير سماكتها وحجمها، وكذلك تحديد نوع النفط إن كان خاماً أو مكرراً. كما يسهم الاستشعار عن بعد في كشف تجمعات الطحالب المائية السامة بالقرب من الشواطئ والتي تشكل خطراً على الإنسان والكائنات الحية المائية.

٧ – **الأرصاد الجوية:** يؤدي الاستشعار عن بعد دوراً رئيسياً في مجال الأرصاد الجوية والمناخ، حيث يرصد حركة الرياح والسحب والهطول المطري والحرارة، وما يصاحبها من مرتفعات أو منخفضات جوية.

٨ – **في التطبيقات الزراعية:** تعتبر التطبيقات الزراعية لتقنية الاستشعار عن بعد من أهم تطبيقات هذا العلم، وذلك نظراً لتغير الغطاء النباتي وتبدل استعمال الأراضي الزراعية وتنوع الثروة الزراعية، الأمر الذي يستدعي الاستمرار في مراقبتها ومتابعة تطورها لوضع برامج إدارتها واستثمارها مع صيانتها والمحافظة عليها، حيث تستخدم الصور الفضائية المأخوذة من مدارات مرتفعة ومتوسطة الارتفاع لإعداد خرائط هذه الأراضي ومراقبة استعمالاتها ودراستها، والوقوف على تبدلاتها بفعل العمليات التي يطبقها الإنسان على هذه الأراضي لتحقيق مصالحه الخاصة، كما يمكن إعداد خرائط تصنيف التربة، وتساعد هذه الصور على حصر عمليات التصحر وتدهور الأراضي وتحديد أماكنها ومراقبة الكثبان الرملية وزحف الصحراء، كما تساعد على إعداد

خرائط الغابات ومراقبة التغيرات الطارئة عليها وتقييم عمليات التلف بفعل الحرائق والحشرات، كما توفر تقنية الاستشعار عن بعد إمكانية مراقبة وتتبع المحاصيل وتقدير إنتاجيتها وحصر مساحتها وحالتها العامة ومراقبة تعرضها للكوارث واتخاذ الإجراءات الوقائية أو العلاجية في الوقت المناسب.

٩ - في حالات الكوارث والطوارئ: يستفاد من الصور الجوية والفضائية في تحديد أماكن الحرائق والفيضانات والأعاصير والسيول المدمرة والرياح والطرق والأماكن التي ستهب عليها، وتشكل الكثبان الرملية وزحف الصحراء، والكشف عن الآفات الزراعية وحجمها، وبالتالي يمكن من خلال هذه الصور اتخاذ الإجراءات الناجعة في مكافحة الحرائق والآفات، واتخاذ التدابير والاحتياطات الوقائية للفيضانات والأعاصير والسيول والمشاكل البيئية الأخرى.

إضافة إلى كل هذه المجالات يؤدي الاستشعار عن بعد دوراه في التنقيب عن الآثار واكتشاف المواقع الأثرية الهامة، وجرد المصادر الطبيعية، ودراسة كمية فقدان الطاقة وسلامة العزل الحراري للأبنية الموجودة في كثير من مدن العالم. وختاماً يمكن القول إن عبارة الاستشعار عن بعد تستعمل لتعني مجموعة المعلومات التي نحصل عليها من مسافة ما والناتجة بوساطة طاقة الإشعاع المقاسة بإحدى وسائل الاستشعار عن بعد، وهذه التقنية، بما توفرها من معلومات عن مساحات واسعة وكبيرة، تشكل قاعدة علمية حديثة ومهمة تساعد في وضع خطط وبرامج التنمية الشاملة في مختلف ميادين ومناحي حياة الإنسان.

المراجع

- الاستشعار عن بعد وتطبيقاته في الدراسات المكانية، خالد محمد العنقري، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الاستشعار عن بعد تفسيره وتطبيقاته، فخري إسماعيل، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت.
- التقنيات الحديثة وعلم الاستشعار عن بعد، مازن محارب، مجلة الحرس الوطني السعودي، عدد يناير/ كانون الأول ٢٠٠٠م.

حوار العدد

جورج عشي: رسام ومصور وشاعر

✽

إعداد: عادل أبو شنب

ليس هذا فقط، بل هو موسيقي أيضاً. وهو حمل البطيخات الأربع بيده، أتقن حملها وبرع في التصوير، فصار مصورا صحفيا خاصا بوكالة اجنبية ورساما له اسمه في سوق الفن التشكيلي.. وشاعر غنية متميز، له عشرات الاغاني في الإذاعة والتلفزيون.

إنه الشاعر الرسام المصور العازف الفنان الصديق جورج عشي. إن سيرة هذا الرجل تعطي مثالاً عن الفنان الاصيل يمكن ان يبدع في اكثر من فن ويسعدني ان يكون حواري هذا الشهر معه.

✽ ✽ ✽

- المولد والنشأة والدراسة؟

• ابصرت النور في قرية جميلة تغفو على سطح جبل ساحلي تدعى ضهر صفرا التابعة لمحافظة طرطوس اليوم -وهذه التسمية تسمية سريانية وربما ارامية تعني باللغة العربية جبل الصباح- في مطلع العام ١٩٤٠م وكنت اخر العنقود كما يقولون في قريتي.

كان ابي قد وفد من مسقط راسه في قرية سبعل من أعمال شمال لبنان أعتقد في العام ١٩١٨م الى ضهر صفرا وتاهل ومارس عمله كمدرس للغة العربية في المدرسة التي قام بتاسيسها هو بالذات في

✽ أديب وقاص سوري.

القرية وسعى إلى تأمين كادرها من الراهبات والمدرسين الآخرين اذكر منهم الاستاذ جميل محفوض والاستاذ عبد الله محفوض والاستاذ قيصر بوز.

انتقل والدي إلى اللاذقية في العام ١٩٤٤م وادخلني ثانوية الارض المقدسة لبدء تعليمي وعمل استاذا للغة العربية ايضا فيها.

كنت متفوقا في دراستي بحكم اهتمام أبي بتوجيهي بكافة المواد الدراسية كونه يمتلك ثقافة عالية.

بقيت في الارض المقدسة حتى الإعدادية، السنة التي توفي فيها والدي نتيجة التهاب الجرح الذي كان ينز من ركبته نتيجة طلقة رصاص طائشة في عرس في لبنان.

أول ردة فعل على رحيله كانت رسوبي في الإعدادية لحزني عليه ولكوني فقدت الراعي الاهم في حياتي.

وفد بين المعزين إلى اللاذقية قريب لنا من لبنان هو الاب الياس شاهين وطلب من العائلة ان يأخذني إلى لبنان لاستكمال دراستي وفعلا تم ذلك ووضعني في مدرسة من اهم المدارس اللبنانية وهي الفرير مدرسة (الاخوة المريميون) في جونيه واعادوني إلى صف السرتيفكا الفرنسية وتمكنت خلال دراستي الداخلية في هذه المدرسة ان استعيد نشاطي وهمتي وحصلت على الشهادة الابتدائية الفرنسية وحزت الدرجة الخامسة بين كل مدارس الفرير في العالم. وهنأني الاب الياس على تفوقي وإتقاني اللغة الفرنسية بهذه المدة القصيرة وكاشفني بانه يعدني لان اكون راهبا فقلت له باني احلم بان اكون غير ذلك وطلبت منه ان اعود إلى اللاذقية لمتابعة دراستي وكان ذلك ونجحت في الشهادة الإعدادية.

انتقلنا إلى حلب بحكم انتماء شقيقتي السياسي لحزب ملاحق نتيجة اغتيال المالكي في محاولة للهروب من الاعتقال وتابعت دراستي في ثانوية الارض المقدسة هناك وحصلت على الثانوية العامة في العام الدراسي ١٩٥٨- ١٩٥٩م وتقدمت لطلب وظيفة في الريجي (المؤسسة العامة للتبغ) وحصلت على الوظيفة. وفي العام ١٩٦٠م انتقلت وشقيقتي إلى دمشق وهنا بدأت العزف مع الفرقة السمفونية الوطنية التي كان يقودها الفنان المصري فؤاد حجازي وقدمنا أول عمل في سينما الحمراء بعنوان الارض للموسيقار عبد الرحمن الخطيب وهو اخ للفنانة فايده كامل.

- انت متعدد العطاءات فنان تشكيلي، مصور فوتوغرافي، شاعر غنائي، وعازف كمان، ما سبب ذلك؟ هل هي الموهبة ام هي حاجة السوق الفنية؟

• مارست وانا فتى هذه الفنون ولم اك خبيراً في احتياجات السوق الفنية بل كانت تعويضا عن العلاقة الجميلة التي كانت تربطني بوالدي الذي رحل في الوقت الذي كنت فيه بامس الحاجة إليه، رحل وانا في الرابعة عشر من عمري وانت تعرف مدى حساسية هذا العمر فبحثت عن الاشياء الجميلة التي ستعوضني عنه وكانت في الاعتكاف لمتابعة الدراسة وممارسة كتابة الشعر وتعلم الموسيقى والرسم والتصوير الضوئي وهذه الهوايات هي التي ابقتني متماسكا بعد رحيله. وهذا ايضا كان داعما قويا لثقافتي الفنية العامة التي اعتقد اني اتمتع بها اليوم.

هذا وقد سهلت لي ممارسة هذه الهوايات إلى الاستمتاع اكثر بلوحات الفنانين الكبار والقصائد المميزة والقصص والروايات المؤثرة والموسيقى العالمية الكلاسيكية وجعلتني الاحق المعارض الفنية والحفلات الموسيقية والندوات الشعرية والقصصية واقتناء الكثير من الاسطوانات والكتب الفنية والادبية.

- ما هو الفارق في رايك بين فن التصوير الضوئي والتصوير الزيتي؟

• كلاهما يحتاج إلى المقومات والأسس نفسها كي يكون عملا مؤثرا كاللون والضوء والإيقاع والموضوع والاسلوب والبيئة والتاطير والعلاقة بينهما جدلية تفاعلية تؤثر وتتاثر كما حصل في القرن التاسع عشر حين اكتشف التصوير الضوئي وبدا التصوير الفوتوغرافي

اللون استفاد الفن التشكيلي من العلاقات اللونية والوان الطيف في خلق المدرسة الانطباعية وبدات مدارس الفن التشكيلي تتجه بسرعة نحو مدارس غير مألوفة حينها وتتطور وفق قواعدها الخاصة في الوقت الذي احتلت فيه الة التصوير الوظيفة الواقعية في الفن.

- هل يمكن ان تحدثنا عن سوق الاغنية بين الامس واليوم وكذلك سوق اللوحة الفنية؟

• اخر ما افكر فيه لدى ممارسة هواياتي هو تسويقها وهذا لا يمكنني الإجابة عنه لانه غريب عن اهتماماتي ولكني احب ان الفت انتباهك إلى ان سوق اللوحة السورية بشكل عام مرض فوزارة الثقافة مثلا تقتني مني عملا كل عام واذاعة دمشق تاخذ مني ثلاثة إلى اربعة نصوص غنائية سنويا وهذا كاف بقناعتي وما ياتي من بيع جانبي فهو مكسب وللمفارقة اقول انه احيانا لمجرد إعجاب صادق من إنسان ما بعمل من اعمالي اقدمه له هدية وقد حصل هذا وتكرر مرات عديدة.

- عملت كمصور صحفي في فترة ما لصالح وكالة انباء عالمية وكنت مديرا لمكتب مجلة صباح الخير اللبنانية في دمشق كيف استطعت التوفيق بين عملك هذا وبين هواياتك الفنية؟

• العمل في مجلة صباح الخير اللبنانية كانت التزاما عقائديا، اما كمصور صحفي فقد كان بسبب شهرتي وخبرتي في هذا المجال وسمعتي العالمية حيث حصلت على الجائزة الثانية الميدالية الفضية في معرض انتربرس فوتو العالمي ١٩٨٣ وعلى اثرها دعيت لزيارة جمهورية المانيا الديمقراطية العام ١٩٨٤لمناسبة مهرجان الشباب العالمي وكنت ضيفا مكرما لمدة ٢١ يوما ودعيت لان اكون عضوا في اللجنة التحكيمية للمعرض ذاته الذي اقيم في موسكو العام ١٩٨٥م وفي العام ١٩٩٩م كنت احد الاعضاء المؤسسين وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد المصورين العرب في بغداد.



- اي الفنون الثلاثة احب اليك واقرب إلى ذاتك من غيرها؟

• لا فرق اطلاقا فما تقوله في الرسم يختلف عنه في الشعر وكذلك الموسيقى رغم انها كلها بحاجة إلى الإحساس الفني الذي تغنيه ثقافتك العامة وهي كلها وسائل تعبير لها وظيفتها الجمالية والحسية السمعية والبصرية والفكرية. في التشكيل مثلا تكون الناحية الجمالية مسيطرة على الموضوع بينما في الشعر او لنقل الغنائي منه تكون الفكرة هي المسيطرة، اما في التصوير الضوئي فهي تجمع بين الجمالية والفكرة لانها مقنعة وسريعة القراءة وواقعية ولها مفعولها المباشر على المتلقي.

- هل نقلت هواية من هواياتك إلى ابنتيك؟

• في الحقيقة انه لدى وصولهما إلى المرحلة الجامعية تحاورنا حول المستقبل وكانت هناك وجهات نظر متباينة حول التخصص ولكني لم اضغط اطلاقا بل تركت لهما الخيار فدخلت الكبرى يارا كلية الاداب – قسم الإعلام والصغرى شام كلية الهندسة المعمارية وتخرجتا وهما الان تعملان في مجاليهما والحمد لله بنجاح واكاد اقول بتفوق وقد سبقتاني وهذا اراحني.

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ❁

«الإيسيسكو» تستنكر عنصرية المناهج الإسرائيلية:

استنكرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- ما تشتمل عليه المناهج في المدارس الإسرائيلية، من كراهية للعرب واحتقارهم وتشويههم بشكل مريع، ودعت المجتمع الدولي إلى المبادرة باستنكار السياسة التعليمية العنصرية التي تنتهجها إسرائيل، ضاربة بأهداف الحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات عرض الحائط، وخارجة عن الإجماع الدولي حول تبنّي هذه الأهداف والتعاون في العمل بها.

وناشدت الإيسيسكو منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة - اليونسكو-، القيام بواجبها في الضغط على إسرائيل لتعديل مناهجها الدراسية، بما يتفق والمبادئ والقيم الإنسانية

❁ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

التي تتبناها اليونسكو، والتي قامت على أساسها، والقوانين الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وقالت الإيسيسكو: إن هذه المناهج الدراسية العنصرية هي التي تبرر ما تقوم به سلطات الاحتلال من قمع واضطهاد للشعب الفلسطيني، وطالبت المنظمة بحملة دولية للضغط على إسرائيل بشتى الطرق، من أجل تعديل تلك المناهج العنصرية.

وفي سياق متصل بالموضوع قررت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الإيسيسكو إنشاء صندوق إعانة لدعم ميزانية منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم اليونيسكو نصرة للقضية الفلسطينية.

وقال المدير العام للإيسيسكو عبد العزيز بن عثمان التويجري في مؤتمر مشترك مع وزير الثقافة الجزائري خليدة تومي في العاصمة الجزائرية التي شهدت مؤخراً أعمال المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء الثقافة في الدول الإسلامية: إن القرار يهدف إلى سد عجز في صندوق اليونيسكو قيمته ٧٠ مليون دولار أمريكي بعد تجميد الولايات المتحدة إعاناتها السنوية لصندوق اليونيسكو كرد فعل على انضمام فلسطين بصفة رسمية للمنظمة.

وأكد التويجري أن المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء الثقافة للدول الإسلامية يأتي هذا العام تحت شعار «من أجل تعزيز نتائج السنة الدولية للتقارب بين الثقافات وتفعيل دور الشباب في بناء ثقافة السلم والحوار» مشيراً إلى أن المؤتمر سيعالج جملة من القضايا التي تأتي في إطار عمل الإيسيسكو في مختلف جوانبها.

وكانت الدورة السادسة للمؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة عقدت بالعاصمة الأذربيجانية باكو سنة ٢٠٠٩م وخلصت إلى اعتماد جملة من التوصيات منها المصادقة على مجموعة من الوثائق التي أعدتها الإيسيسكو والمصادقة على مشروع «إستراتيجية تنمية السياحة الثقافية في العالم الإسلامي» ومشروع خطة العمل حول إحياء طرق التواصل الثقافي بين شعوب العالم الإسلامي.(١)

فائزون بجوائز العويس:

أعلنت مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية عن فوز الروائي والكاتب اللبناني أمين معلوف بجائزة الإنجاز الثقافي والعلمي التي تمنحها المؤسسة.

وقال عبد الحميد أحمد أمين عام مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية إن مجلس أمناء المؤسسة، بعد مداولات واجتماعات عدة ناقش خلالها ترشيحات الدورة والبالغة ١٦٢ مرشحاً، قرر منح أمين معلوف الجائزة، لينضم بذلك إلى نادي الفائزين.

وأضاف أحمد أن أمين معلوف يمثل ذاكرة خصبة كرسها طيلة أربعة عقود لتعريف العالم بجوانب مهمة من تاريخ الشرق، وعلى وجه الخصوص تاريخ العرب والمسلمين، وقد جاء ذلك كله في أعماله الروائية التي امتازت بالبحث في التاريخ وسلاسة السرد، وقوة الحبكة، وأصالة

الإبـداع، ممـا ساهـم في الكشـف عـن أحداث وشخصيـات وصراعـات شهدتهـا منطقة الشرق العربي والإسلامي، وكان لهـا حضورها وتأثيرها في الغـرب. كما شكل إبداعـه همزة وصل ربطت الشرق بالغرب.

وأشار عبد الحميد أحمد إلى أن أمين معلوف يوجـه خطابه إلى القارئ العادي وهو ما يسهم في رواجه بين القراء حول العالم وبمختلف اللغات. فقد أعاد الاعتبـار لكثير من الحقائق في هذا التاريخ، كل ذلك من خلال عمل دؤوب في البحث والتقصي ومثابـرة لا تكل في التعبير عن رؤاه لهذه الأحداث والشخصيات التي عبر عنها في مجمل أعماله.

وكانـت المؤسسة قـد أعلنت أيضـاً عن منح جوائزها في المجالات الأخـرى، حيث فاز بجائزة الشعر الشاعر اللبنـاني محمد علي شمس الدين، وفازت بجائزة القصة والرواية والمسرحية الروائية المصريـة رضوى عاشور، وفـاز بجائزة الدراسات الإنسانيـة والمستقبلية المـؤرخ العراقي (الراحل) الدكتور عبـد العزيز الدوري، بينمـا فاز بجائزة الدراسات الأدبيـة والنقدية الناقـد الفلسطيني الدكتور فيصل دراج.

وقال عبد الحميـد أحمد أمين عام المؤسسة: إن عدد المرشحين في حقل الشعر بلغ ٢١٨ مرشحاً، وفي حقل القصة والرواية والمسرحية ٢٧١ مرشحاً، وفي حقل الدراسات الأدبية والنقد ٢٢٠ مرشحاً، وفي حقـل الدراسات الإنسانيـة والمستقبلية ٣٦٦ مرشحـاً، وفي حقل الإنجـاز الثقـافي والعلمي



١٦٢ مرشحاً، وبذلـك يكون مجمل المتقدمين لنيل الجائزة لهذه الدورة ١٢٣٧ مرشحاً.

ولـد محمد علي شمس الديـن في بيروت عام ١٩٤٢، وهـو عضـو اتحـاد الكتـاب اللبنانيين، ترجمت مختارات من أعماله للإسبانية والفرنسية والإنجليزية والفارسية، ومن أهم مؤلفاته: (قصائد مهربـه إلى حبيبتـي آسيا)، (غيـم لأحلام الملك المخلـوع)، (أناديـك يا ملكي وحبيبـي)، (الشوكة البنفسجية)، (طيـور إلى الشمس المرة)، و(أميرال الطيور)، (أمـا أن للرقص أن ينتهي؟)،(يحرث في الآبار)،(منازل النرد). أما في النثر، فصدر له (رياح حجرية)، ١٩٨١، (كتاب الطواف)، ١٩٨٧، (حلقات العزلة)، ١٩٩٣.

أما الدكتـورة رضوى عاشـور فقد ولدت في القاهـرة عـام ١٩٤٦م، وهي أستـاذة بقسم اللغة الإنجليزيـة وآدابها جامعة عـين شمس، من أهم

مؤلفاتها: أيام طالبة مصرية في أمريكا)، (خديجة وسوسن)، (حجر دافئ)، (رأيت النخيل)، (سراج)، (غرناطة)، (مريم والرحيل)، (الجزء الثاني والثالث من غرناطة)، (أطياف)، (تقارير السيدة راء)، (الطريق إلى الخيمة الأخرى)، (دراسة في أعمال غسان كنفاني)، الرواية في غرب أفريقيا، قطعة من أوروبا، (الطنطورية).

وولد عبد العزيز الدوري في بغداد ١٩١٩م وتوفي في عمان ٢٠١٠م، وحصل على بكالوريوس شرف في التاريخ من جامعة لندن عام ١٩٤٠م، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٤٢م، ثم درس التاريخ في دار المعلمين العالية، ثم كلية الآداب والعلوم قبل قيام جامعة بغداد.

استطاع الدوري أن يقدم صورة جديدة للتاريخ العربي الإسلامي عن طريق دمجه لأصالة البحث التاريخي في مؤلفات المؤرخين العرب القدماء مع أدوات التحليل والبحث التي استقاها من الغرب، كما تمكن الدوري أن يقدم لنا كتاب (مقدمة في تاريخ صدر الإسلام) وهي رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي جمع فيها رؤيته للعوامل المختلفة التي أسهمت في تطور التاريخ الإسلامي.

بينما كانت ولادة فيصل دراج في مدينة الجاعونة الفلسطينية عام ١٩٤٣م، وقد أنهى دراسته في جامعة دمشق قسم الفلسفة ١٩٦٨م، وحصل على دكتوراه في الفلسفة من فرنسا ١٩٧٤م، عمل في مجلة شؤون فلسطينية، ومن أهم كتبه ومؤلفاته: (الواقع والأمثال)، (دلالات العلاقة الروائية)، (ذاكرة المغلوبين)، (الرواية وتأويل التاريخ)، (نظرية الرواية والرواية العربية)، و(الحداثة المتقهقرة).[٢]

إطلاق مؤسسة إتيرنتي للفنون:

تمّ الإطلاق الرسمي لمؤسسة إتيرنتي للفنون والثقافة في دولة الإمارات العربية المتحدة وهي مؤسسة رائدة في الفنون الثقافة الروسية في منطقة الشرق الأوسط.

وتضمن الحفل الافتتاحي عرضا لمجموعة من اللوحات الفنية، بحضور نخبة من أشهر الرسامين الروس الذين حضروا خصيصا إلى دولة الإمارات للمشاركة في هذا الحدث.

ووضعت هذه الانطلاقة الناجحة حجر الأساس لتعزيز التواجد الثقافي الروسي في الإمارات ولتشييد مؤسسة فعالة كإتيرنتي للفنون والثقافة، كما أكدت هذه الانطلاقة الفريدة توجه واهتمام خبراء الفن في الدولة نحو مدرسة الفن الروسي.

وتسعى مؤسسة إتيرنتي جاهدة لتصبح منبراً لعرض الفنون المختلفة إلى جانب تعزيز الوعي الثقافي وردم الفجوات الثقافية، كما أن مجموعتها المتزايدة من الروائع الفنية الغنية والفريدة لفنانين روس ستعرض حصرياً في الشرق الأوسط.

وقال فراس دحلان، رئيس مجلس إدارة مؤسسة إتيرنتي: «إن ثقافة الفنون متنامية في إمارة دبي بشكل خاص ودولة الإمارات العربية المتحدة بشكل عام بوجود عروض عديدة لأعمال فنانين عالميين في الساحة». وأضاف «إن المجتمع الإماراتي يظهر اهتماماً وتقديراً متزايدين في الفنون التشكيلية

مما يجعل الوقت ملائماً لمؤسسة إتيرنتي لتقديم أعمالها».

وقد أشار أندري أندرييف، سفير روسيا الاتحادية لدى دولة الإمارات العربية المتحدة: «إن الفن جزء لا يتجزأ من نمط حياتنا وثقافتنا وعلى هذا النحو فهنالك إمكانيات لا حدود لها في الفن المعاصر في روسيا يجري الترويج لها هنا في الشرق الأوسط ويسرني جداً أن مؤسسة إتيرنتي قد أخذت على عاتقها مهمة تقديم وإبراز مدرسة الفن الروسي المعاصر لجمهور دولة الإمارات العربية المتحدة».

ومن أبرز الفنانين المشاركين في هذا الحدث، سيرغي بولياكوف عضو الاتحاد الدولي للفنانين الروس، وداريا بليجينسكايا التي شاركت في العديد من المعارض الدولية في كندا وروسيا والمملكة المتحدة وبلغاريا والإمارات وسلطنة عمان والبحرين وغيرها.

وشارك أيضا ميخائيل كابان- بتروف، العضو في نقابة الفنانين الفنية الروسية، وتباع معظم أعماله إلى مجموعات خاصة في روسيا، ألمانيا، سلوفاكيا، الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، مالطا وحاليا في دولة الإمارات، وإدوارد مانوكيان أحد المشاركين في مختلف المعارض الفنية الدولية والذي تعرض روائعه الفنية في مجموعات خاصة بجميع أنحاء العالم، السويد، ألمانيا، المملكة المتحدة، روسيا، فرنسا وفي متحف «صانع السلام» وغيرها الكثير ويوليا مليتاسيفا، من أبرز المشاركين في مختلف المعارض والفعاليات الفنية الراقية في موسكو وتعرض معظم أعمالها في مجموعات خاصة في روسيا، أرمينيا، ألمانيا، إيطاليا، إيران ودولة الإمارات.(٣)

احتراق النسخة الأصلية من وصف مصر:

أعلن الدكتور زين عبد الهادي، رئيس دار الكتب المصرية، أن النسخة الأصلية لكتاب «وصف مصر» الذي أعده علماء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م)، قد احترقت بالكامل خلال حريق المجمع العلمي المصري، مشيراً إلى أن بعض المتطوعين نجحوا في إنقاذ نحو ٣٠ ألف كتاب من أصل ١٩٦ ألفاً كانت ضمن مقتنيات المجمع الذي تعرض للحريق خلال أحداث العنف التي شهدتها القاهرة.

وفي هذا السياق أدانت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ما وصفته بـ«السلوك الإجرامي» الذي أدى إلى إتلاف وثائق ومخطوطات ومطبوعات وخرائط نادرة لا تقدر بثمن في المجمع العلمي المصري، واستنكرت ما حدث من تخريب متعمد وإحراق للمجمع الذي يعد من أعرق المؤسسات العلمية المصرية، وتعد مكتبته من أندر مكتبات العالم.

يشار إلى أن تاريخ إنشاء المجمع المصري يرجع إلى ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨م بقرار من نابليون بونابرت وهو مبنى أثري عتيق من معالم مصر، وكان مقر المجمع في دار واحد من بكوات المماليك في القاهرة ثم تم نقله إلى الإسكندرية عام ١٨٥٩م وأطلق عليه اسم «المجمع العلمي المصري» ثم عاد للقاهرة عام ١٨٨٠م، ويعد من أعرق المؤسسات

العلميــة في مصر إذ مرَّ على إنشائه أكثر من مئتي عام، وكان د.سليمــان حزين رئيس المجمع العلمي المصري قد تبنى خطــة لتطوير المجمع تقوم على تسجيل مبناه الحالي الذي يعــود إلى أوائل القرن الحالي في عداد الآثار وتسجيــل مقتنياته النادرة وترميم المبنى وتحديث مكتبته.

ومبنى المجمع الحالي أقامته الدولة وخصصته عام ١٩١٩م ويتكون من طابقين: الأول يشتمل على قاعة كبرى يوجد بها مكتبة ضخمة تضم مجموعة مــن الكتب والمجلــدات، كما يوجد بهــذا الطابق مجموعة مــن الحجرات مستغلــة كمخازن للكتب وجميع القاعات خالية من الزخارف والنقوش.

والطابــق الثــاني يتكون من قاعــة مخصصة للمحاضــرات والاجتماعــات وتضــم حجــرات مخصصــة لرئيــس المجمع ومعاونيــه، وقد صدر قرار رقم ١٦١١ لسنة ١٩٩٥م باعتبار مبنى المجمع العلمي بشــارع الشيخ ريحــان بالقاهرة في عداد الآثار الإسلامية والقبطية.

أمــا كتــاب «وصف مصــر» فيتكــون من ٢٠ مجلداً، عنوانه الأصلي هو «وصف مصر أو مجموع الملاحظــات والبحوث التي تمــت في مصر خلال الحملة الفرنسيــة»، والتي تمت كتابتها وتجميعها إبان الحملة الفرنسية على مصر، حيث اصطحب نابليــون بونابــرت معــه فريقــاً مــن العلماء من التخصصات كافة ليسجلوا ملاحظاتهم.

وبعد عودة الفريق إلى فرنسا قام وزير الداخلية الفرنسيــة آنذاك جان أنطــوان شبتال وبالتحديد في ١٨ فبرايــر ١٨٠٢ بتنظيــم تشكيــل لجنة بين أعضاء فريق العلمــاء والملاحظين فتشكلت لجنة من ثمانية أعضاء قامت بجمع ونشر المواد العلمية كافة الخاصة بالحملــة والتي كانت عبارة عن ١٠ مجلدات للوحات، منها ٧٤ لوحة بالألوان، وأطلس خرائط، وأخيرًا، ٩ مجلدات للدراسات، وقد أصبح الكتــاب في نسختــه الفرنسية واحــداً من عيون الثقافة العالمية في وقته، وزاد من قيمته أن النسخ التــي طبعت منه ظلت قليلــة خاصة نسخ الطبعة الأولى التــي ظهرت في باريس عام ١٨٠٩م، وكانت في عشرين جــزءاً، ثم ظهرت طبعــة ثانية عرفت باسم الطبعة الملكية وكانت في عام ١٨٢١م.

وفي السيــاق ذاته أكد شاكر عبد الحميد وزير الثقافة المصري، أن نسخــة كتاب «وصف مصر»، التي احترقت في المجمع العلمي بشارع قصر العيني ليست هي النسخــة الأصلية الوحيدة الموجودة في مصر، وقال إنــه يوجد في مصر ثلاث نسخ أخرى أصلية لهــذا الكتاب العظيم، واحدة في دار الكتب والوثائق، والثانية في الجمعية الجغرافية بالقاهرة، والثالثــة نسخة غــير مكتملة موجــودة في جامعة أسيوط، كمــا أعلن أن الترجمــة الأصلية للكتاب موجودة أيضاً.[٤]

اكتشاف أقدم نسخة للقرآن الكريم باللغة الصينية:

أعلن علمــاء صينيون متخصصون في الثقافة الإسلامية بمقاطعة «قانسو»، شمال غرب الصين، عــن اكتشافهم ما وصفوه بأنــه أقدم نسخة نادرة باللغــة الصينيــة للقــرآن الكــريم، موضحين أن

النسخة المكتشفة تمت كتابتها بخط اليد في عام ١٩١٢م اي منذ قرابة ١٠٠ عام.

وقال العلماء: إن نسخة القرآن الكريم النادرة عثر عليها ضمن أرشيف السجلات القديمة بمعهد الثقافة الإسلامية بجامعة لانتشو، ويعتقد أنها ترجمت إلى الصينية من قبل العالمين «شا تشونج» و«ما فو لو»، وهما اثنان من الأئمة الصينيين البارزين والخطاطين للغة العربية في مقاطعة «قانسو»، بحسب صحيفة الشعب اليومية الصينية.

ومن جانبه قال دينج شي رن، رئيس المعهد: «إن العالمين «شا» و«ما» بدأا ترجمة القرآن في عام ١٩٠٩م، وانتهيا من أعمال الترجمة في عام ١٩١٢م»، موضحاً أن الإمام «شا» قام بنسخ النص الصيني في ثلاثة كتب أخرى بخط اليد، استخدمت بشكل واسع في منطقة لانتشو، فيما تم كتابة نسختين أخريين للقرآن باللغة الصينية في قانسو في القرن العشرين».

وأضاف إن الدراسات المقارنة لنسخ القرآن الكريم الثلاث باللغة الصينية، لا تزال تجري حتى الآن؛ لافتا النظر إلى أن ترجمة كل من: «شا» و«ما» أكثر تطابقاً مع النسخة العربية؛ على الرغم من أن أجزاء من النص الصيني تستخدم لهجة منطقة لانتشو الصينية.

وأوضح أن علماء الدين الإسلامي الصينيين يشيرون إلى أن الإسلام دخل إلى البلاد في عهد أسرة تانج الإمبراطورية في الفترة من ٦١٨- ٩٠٧م، إلا أنه لم يتم ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللغة الصينية حينها، خشية الخطأ في نقل وتفسير النص المترجم.

يذكر أنه قبل العثور على هذه النسخة المترجمة من القرآن، كان الخبراء يعتقدون أن أقدم نسخة مترجمة للقرآن إلى اللغة الصينية صدرت في بكين في عام ١٩٢٧م.

وعلى صعيد مواز أعلنت المصلحة الوطنية الصينية للآثار مؤخراً أنها قررت تخصيص مبلغ مليون و٨٠٠ ألف يوان (نحو ربع مليون دولار أميركي) لإنقاذ وحماية مخطوطة نفيسة ونادرة من القرآن الكريم يعود تاريخها إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي.

والنسخة محفوظة حاليا، داخل صندوق حديدي بمسجد جيتشي بمحافظة شيونهوا الذاتية الحكم بمقاطعة تشينغهاي الواقعة شمال غرب الصين والتي يقطنها غالبية مسلمي الصين من قومية السالار إحدى القوميات العشر الصينية التي تدين بالإسلام وهي: هوي، الويغور، القازاق، القرغيز، التتار، الأوزبك، الطاجيك، دونغشيانغ، باو آن والسالار.

ووفقا لبيان أصدره فريق مشترك من ممثلي المصلحة الوطنية للآثار والمصلحة الوطنية للشؤون الدينية فإن المخطوطة القرآنية مدونة باللغة العربية ويبلغ عدد صفحاتها ٦٨١ صفحة وتضم الأجزاء الثلاثين للقرآن الكريم غير منقوصة وكل جزء مغلف بالحرير الأزرق.(٥)

رحل هافل الرئيس وبقي فاتسلاف الكاتب:

توفي الرئيس التشيكي السابق فاتسلاف هافل عن عمر ناهز عن ٧٥ عاماً، حسبما صرحت بذلك الناطقة باسمه سابينا تانسيفوفا، بعد مرض عضال، ومشاكل صحية عانى منها منذ مدة طويلة.

وكان هافل كاتباً قبل أن يصبح رئيساً، حيث حصل على جائزة فرانز كافكا التي أعادت هذا الكاتب إلى المعترك الأدبي بعد أن هجره لبضعة أعوام انصرف فيها إلى العمل السياسي رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا ثم لجمهورية تشيكيا بعد الانفصال الذي جعل الدولة دولتين.

في العام ١٩٨٩م احتل هذا الكاتب كرسي الرئاسة، وغادره عام ٢٠٠٣م، وطوال أعوام رئاسته أدى هافل دور «المثقف الفاعل» كما وصف، ونجح تماماً في الدمج بين شخصية المثقف المنشق والمعارض، وشخصية الرئيس أو «الحاكم»، واستطاع أن يجسّد فكرة الجمع بين الثقافة والسلطة، بين الهامش والحكم، كما يقول البعض.

وقد تكون جائزة كافكا حافزاً على استعادة هافل كاتباً مسرحياً طليعياً، بدأ عبثياً ثم انشق عن هذا التيار الذي أسسه صموئيل بيكيت، ليصنع مسرحه الخاص الذي أراده مزيجاً من العبثية والتمرّد الوجودي والاحتجاج والالتزام... وعلى رغم انشقاقه عن معلّمه الأول بيكيت فإن صاحب «غودو» لم ينثن عن إهدائه أحد نصوصه وعنوانه «كارثة»، وهذه كانت أجمل تحية يرفعها كاتب رائد إلى كاتب كان يعدّ نفسه بمثابة التلميذ.

أما مواطنه الروائي ميلان كونديرا فكان يصرّ على وصف حياة هذا المنشقّ الذي لم يخش البتة النظام البولشيفي وظل يواجهه تحت سقفه، بـ«العمل الفني». وهذه الصفة تمثل فعلاً جوهر التجربة التي خاضها هافل، جاعلاً منها مادة استلهامه المسرحي والأدبي. وهي كانت تجربة شخصية وجماعية في آن واحد، تجربة الفرد المضطهد والجماعة التي تحلم بـ«ربيع» آخر بعد «ربيع براغ» الشهير.

نشر هافل كتابه «رسائل إلى أولغا»، وهو يضمّ أجمل ما يمكن أن يُكتب من رسائل حب؟ في العام ٢٠٠٧م، وبعد أربعة أعوام على مغادرته الرئاسة، كتب هافل مسرحية عنوانها «المغادرة»، وهي كما يدل العنوان تدور حول «هجر» السلطة. هذا الموضوع الذي تجلّى في مسرحية شكسبير «الملك لير» ومسرحية تشيخوف «بستان الكرز». إلا أن هافل شاء مسرحيته هذه هزلية وعبثية وساخرة بمرارة، وقد عمد فيها إلى فضح آلية «التسلط» والمكائد التي تحاك سراً وعلانية، و«الافخاخ» التي تُنصب للإيقاع بـ«الآخرين» وأوهام اقتصاد السوق وأخلاقياته السلبية.

ثم نشر هافل نصوصاً هي أشبه باليوميات أو المذكرات، أرفقت بحوار شامل كان أجراه معه كارل هفيزدالا وحمل الكتاب عنوان «للحقيقة»، وهذه النصوص تلقي ضوءاً ساطعاً على مسار هافل المسرحي والفكري والسياسي، وتنمّ عن

براعـة في كتابة مثل هـذه النصوص التي تخترق تخوم الأصناف والمدارس.[٦]

سنغور... ملهم السنغاليين:

بعـد عشر سنوات على وفاته لا يزال ليوبولد سنغور الشاعر صاحب الشهـرة العالمية والرئيس الأول للسنغال، مصدر إلهام لسياسيين ومثقفين في بلاده إلا أن محبيه يدينون محاولات طمس ذكراه.

سنغـور كان أحـد أبـرز شخصيـات حركة الزنوجة الأدبية المرتبطة بالنضال ضد الاستعمار والتي تبرز الهوية السوداء وثقافتها. وقد ولد العام ١٩٠٦م وتوفي في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١م في فيرسـون «فرنسا» بعدما قاد السنغال من العام ١٩٦٠ عند استقلالها إلى العام ١٩٨٠.

ويقول الكاتب السنغالي أمادو الأمين سال «اسم السنغال مرتبط ارتباطا عضويا بسنغور أينما كان في العالم. سنغور هو تأشيرة دخولنا العالمية»، ويؤكد مـودي نيانغ وهو صاحب كتاب عن إرث سنغور أن الرئيس الأول للسنغال ساهم في جعل البلاد «دولة حديثـة مستقرة وديمقراطية نسبيا. فلا قطاع في البـلاد لا يحمل بصماته أكان اقتصاديا اجتماعيا ثقافيا أو آخـر»، أما مسؤول الحـزب الاشتراكي عثمـان تانور ديينغ فيقـول: إن هذا الحزب الذي أسسـه سنغور العـام ١٩٤٨م «لا يـزال يستشهد بسنغور الذي سلحه بدرع إيديولوجي وعقائدي».

وفي الجامعات السنغالية يزيد عدد أطروحات الطلاب التي تتناول فكر سنغور «كثيرا منذ وفاته» على ما يقول عمر سانخاري حامل شهادة دكتوراه دولـة والذي يعمـل في جامعة الشيـخ أنتا ديوب في دكار، لكـن الكاتب أمادو علـي ديينغ يعتبر أن «السنغاليين ينسون سنغور. من يدافع عن الزنوجة ومن يجرؤ علـى ذلك؟» ويعتـبر المعارض السابق لسنغـور أن «أتباعـه لا تأثير لهـم» على الصعيد الأدبي وأن الشاعـر ورجـل الدولـة الذي دخل الأكاديمية الفرنسية «كان في خدمة فرنسا».

وتظهر شهادات أن سنغـور غير معروف لدى الكثـير من السنغاليين الذين كانوا صغاراً أو ولدوا بعد حكمه. ويرى الصحافي بارا ضيوف الذي كان أحـد المقربين من سنغور «أتى ذلك نتيجة نواقص في النظام التربوي السنغالي».

وفي الذكرى العاشرة لرحيله نظمت مؤتمرات ومعارض في دكار وسـان لوي «شمـال» من قبل الحـزب الاشتراكي ومؤسسة سنغـور التي أسست العام ١٩٧٤م ومقرها في دكار وتهدف إلى الترويج للتعليـم العـالي والثقافة والبحث. لكـن التكريم الوطني غائب.

وبـدأ الاهتمام بسنغور العام ٢٠٠٦م في مئوية مولده عندما أطلق عبدو ضيوف اسم سنغور على الكثـير من الأماكن في دكار من مطار وجادة وأكبر ملعب رياضي في البلاد.

ويقـول البروفسور عمر سانخـاري ان عبدو ضيوف نفسـه كان قبل ذلك «في أساس طمس أثر سنغور»، ويضيف «إن معاونيه ضايقوا كثيراً سنغور بعـد تركه السلطة لمحو أثره من نفوس السنغاليين مع حملات على شخصه وأقاربه والمؤسسات التي شكلها»، ويشـير إلى أن الرئيس عبدالله واد الذي وضع انتخابه العـام ٢٠٠٠م حداً لأربعين سنة من

حكم اشتراكي «مفتون بسنغور ويحاول تقليده رغم انتقاده له».

يشار إلى أن السلطات السنغالية اشترت أخيراً منزل سنغور في دكار لتحويله إلى متحف، ومع ذلك كان الرئيس السنغالي الراهن قد قال العام ٢٠١٠م «لم يكن يسعني الاتفاق مع سنغور. فلم يكن واقعيا البتة».(٧)

أسرار علاقة سارتر بدوبوفوار:

يستعيد كتاب «علاقة خطرة»، تأليف كارول سيمور جونز، العلاقة الغريبة والبالغة الخصوصية والأقرب للشراكة الاستثنائية على مدى أكثر من ٥٠ عاماً بين جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار.

في الكتاب -الذي صدر بالإنجليزية ويقع في ٢٢٠ صفحة- تكشف المؤلفة عن عديد من الوقائع الدالة منذ اللقاء الأول بين جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار عام ١٩٢٩م، عندما كانا في بداية الدراسة العامة للفلسفة ورغم أن سيمون كانت أصغر طالبة بين الخريجين فإنها جاءت التالية بعد سارتر وسعت لإقناع نفسها بقبول أسبقيته وهو شعور استمر داخلها طوال ما تبقى من حياتها.

وعلى مدى نحو خمسة عقود، انتهجا أسلوب الشراكة المفتوحة بما أتاح لهما الشروع في علاقات عابرة وعرضية مع آخرين؛ فيما تذهب كارول سيمور جونز في كتابها إلى أن هذا النهج كان الإجابة الجذرية على ما اعتبر تقاليد الزواج البالية.

ويتناول الكتاب الانخراط المبكر لجان بول سارتر وسيمون دو بوفوار في دوامات الأفكار والفلسفات وكسر المحاذير المتعارف عليها في الأجيال القديمة. وبسرد مشوق حافل بالنوادر والحكايات الطريفة والفضائح المخزية أحيانا الأمر الذي يبرر عنوان الكتاب «علاقة خطرة».

ورغم أن سيمون دو بوفوار اعتبرت علاقتها بسارتر قصة نجاح غير قابلة للشك في حياتها؛ فإن كارول سيمور جونز سعت في كتابها لتمحيص هذه المقولة واختبار ما هو قابع تحت السطح البراق لهذه الكلمات؛ لتقول إن «هذا المظهر المثير للإعجاب باندماج شخصين طواعية في كائن إنساني واحد وحلول كل منهما في الآخر، إنما كان على حساب سيمون دوبوفوار كامرأة لم تتزوج سارتر طوال حياتها وعاشت كخليلة له مهما بدت كلماتها براقة».

ويقال إذا كانت سيمون دوبوفوار – كفيلسوفة- قد توحدت مع جان بول سارتر، فإنها كأنثى عانت من الكرب ونهشتها الغيرة والخوف المستمر من أن يتركها سارتر ويتخلى عنها دون رجعة ليستقر مع أنثى شابة أكثر جمالا وفتنة، وفيما كانت سيمون دو بوفوار راديكالية التفكير والتصرفات؛ فإنها لم تخل من جنوح في بعض تصرفاتها مثل ميلها لركوب مترو باريس وهي ثملة للتقيوء بين الركاب؛ فإن جان بول سارتر لم يخل بدوره من غرابة الأطوار والممارسات الخارجة عن المألوف كما يروى هذا الكتاب الجديد.(٨)

كروتو يفوز بمسابقة خوان رولفو للقصص:

فاز الكاتب الأرجنتيني ماركوس كروتو بوينس أيرس ١٩٨٠م، بجائزة المسابقة الدولية للقصص خوان رولفو في العاصمة الفرنسية باريس عن قصته «مشاركة».

واستلم كروتو الجائزة خلال حفل أقيم في «بيت أمريكا اللاتينية» في باريس، بحضور المشرفين على رعاية المسابقة، وهم كل من إذاعة فرنسا الدولية، والمعهد المكسيكي، ومعهد سرفانتس في باريس، وبيت أمريكا اللاتينية في باريس.

وقد وقع اختيار لجنة التحكيم المؤلفة من أنتونيو كابالييرو (كولومبيا)، وغريسيا كاسيرس (بيرو)، وألبيرتو فيتال ديّاز (المكسيك)، ومارغو غلانتز (المكسيك)، وإدواردو راموس إسكيبردو (المكسيك)، وألن بولس (الأرجنتين)، وألين شولمان (فرنسا)، على الكاتب الفائز من بين ١٦ متسابقاً، قامت لجنة القراءة الخاصة بالمسابقة بفرزهم من بين ٢٢٠٥ قصص شاركت في المسابقة.

وقال عضو لجنة التحكيم إدواردو راموس إسكيبردو في إشارة إلى القصة الفائزة «إنها عبارة عن عمل غني ومتباين تدور حول عالم الرحلات».

من جانبه، وصف ألن بولس قصة كروتو، بأنها عبارة عن «قصة حذقة، كتبت ببراعة، اتسمت بلهجة صادقة جداً، جافة وملحة في آن واحد، بغية سرد مشكلة قديمة حول ثقافة أمريكا اللاتينية، وبأسلوب جد عصري، ألا وهي مشكلة المستعمر والشعوب المستعمرة».

وقال الكاتب الأرجنتيني عن قصته الفائزة: «إنها هي واحدة من بين القصص السبع التي يضمها كتاب، يسعدني أن أقوم بنشره، يحمل عنوان (تضحية). هنالك شخصيات تظهر في أكثر من قصة أحياناً، وأخرى على العكس من ذلك، وأن كل قصة ليس بالضرورة أن تكون لها علاقة بعنوان الكتاب المذكور. وأنا على أمل أن أنشر الكتاب بعد فوزي بهذه الجائزة».

يشار إلى أن ماركوس كروتو، محام يبلغ ٣١ عاماً، يقوم بالتحضير لشهادة الماجستير في العاصمة الفرنسية، حل محل غوستافو دانييل الكاتب الأرجنتيني أيضاً، الفائز بجائزة خوان رولفو الدولية للقصص في دورتها السابقة. وأضاف كروتو مازحاً: «إلى كل من يحب الكتابة، أن الفوز بجائزة تحمل اسم خوان رولفو يعد أمراً عظيماً. ولو علم المسكين رولفو، المعروف بكتاباته الرائعة. إنهم سوف يمنحونني جائزة...».[٩]

قبعة شارلي شابلن:

بيعت القبعة السوداء التي اشتهر بها نجم السينما الصامتة تشارلي شابلن مقابل أكثر من ١٨ ألف دولار، وحققت القبعة التي تعود إلى عام ١٩٠٩م وساهمت في تجسيد شخصية «ذا ترامب» الشهيرة لشابلن مبلغ ١٨٧٥٠ دولاراً بالمزاد مع العلم أنه كان من المتوقع أن تحقق مبلغاً أكبر، وكان شابلن اعتمر القبعة في إنكلترا وحين قام بجولة بالولايات المتحدة، وأرفقت مع القبعة رسالة من الممثل بيرت بايلي الذي كان شابلن قد قدم له القبعة.

ولم يقبل أحد على شراء فيلم قصير كان منسيا للممثل الكوميدي الراحل تشارلي شابلن في مزاد أقيم في لندن رغم التوقعات ببيعه مقابل أكثر من ١٠٠ ألف جنيه إسترليني.

وعثر على «تشارلي شابلن في زيبد» CHARLIE CHAPLIN IN ZEPPED الذي يعتقد أنه فيلم دعائي صنع في بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى داخل علبة أفلام قديمة اشتراها موراسي بارك مقابل ٣.٢٠ جنيه إسترليني من مزاد عبر الإنترنت على موقع اي - باي.

ويعرض الفيلم الذي تستغرق مدته سبع دقائق شابلن وهو يركب طائرة ألمانية من طراز زيبلن وتظهر به بعض من الرسوم المتحركة الأولى في تاريخ السينما.

وقال بارك «في البداية لم أعرف ما حصلت عليه. زرت خبراء أفلام في أوروبة والولايات المتحدة وكان هناك رد مشترك.. لم ير أحد منهم هذا النوع من الأفلام من قبل».

وقال ديفيد روبنسون الناقد السينمائي والمؤرخ لسيرة حياة شابلن: إن شابلن ربما لم يعلم قط بوجود هذا الفيلم، وأضاف إن الصانع المجهول للفيلم جمع مشاهد من ثلاثة أفلام سابقة لتشابلن وضم مقاطع رسوم متحركة ومؤثرات أخرى.(١٠)

إحالات

١- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

٢- وكالة أنباء الإمارات WWW.WAM.ORG.AE

٣- أنباء موسكو/ نوفوش AR.RIAN.RU

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG

٥- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

٦- موقع ميدل إيست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٧- موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM.

٨- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

٩- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM

١٠-موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.CO.

كتاب الشهر

شعرية أبي تمام

*
عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

الحديث في الشعرية العربية، يستلزم قراءة متأنية في تزامنها التاريخي. وبالتالي رؤية حركة تطور هذه الشعرية، وفق حركة الشعر خاصة والفكر عامة. فالشعر العربي منذ بداياته في الشعرية العربية قبل الإسلام وحتى موضوع دراستنا هذه، يمتح وجوده من خلال النظر إليه على أنه ابن البيئة الطبيعانية. وكذا ابن البيئة الفكرية، يضاف لذلك تأثره بالمحيط الفكري الوافد.

قراءة الشعرية لدى شاعرنا (أبو تمام) تقف ضمن هذا المنظور. يضاف إلى ذلك أنَّ (أبا تمام) من المجددين في حركة الشعر العربي. ولعلَّ في تقديمنا لهذا الكتاب من تأليف (ميادة كامل أسبر) وإصدار وزارة الثقافة السورية، ما يفي بالغرض ويضعنا أمام حركة التطور هذه، وبالتالي حركة التجديد والإحياء.

---

* باحث سوري.

اللغة الشعرية عند أبي تمام

هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي شاعر شامي الأصل. اختلف في تاريخ ولادته، كما في نسبه، عاش حداثته في مصر يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم منهم، يحب الشعر، نبهاً، حتى قاله، فأجاد، وبلغ شعره المعتصم، فأهداه بعضه، فأجازه، وقدمه على شعراء وقته. قال عنه الشريف الرضي «ربُّ معان، شهد له بكل معنى مبتكر.. فمن حفظ شعره، أطاعته أعنة الكلام» كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، جمع شعره أبو بكر الصولي، ورتبه على الحروف، ثم جمعه ابن حمزة الأصبهاني، ورتبه على الأنواع.

درج مؤرخو الأدب على تقسيم الشعراء المحدثين إلى طائفتين: طائفة حافظت على المنهج القديم، وأخرى مالت إلى التجديد. وأظهر ما يكون ذلك في القرن الثالث الهجري. «فالسابقون من المجددين قريبون من القدماء، فأما الذين جاؤوا بعدهم كأبي تمام وابن المعتز، فقد بعدوا كثيراً عن الصياغة التي جرى الشعراء عليها في الجاهلية والإسلام». ولم يكن غريباً وسط مظاهر الزخرفة والترف أن تأتي القصيدة العباسية -لاسيما عند أبي تمام- مرصعة بأشكال الجناس والطباق، والأشكال المتنافرة والمتآلفة. وجملة القول إن خصائص هذا العصر تركت أثرها الواضح في شعرية أبي تمام، حتى صار فيها صاحب منهج خاص، أثار خصومة نقدية أغنت النقد الأدبي في عصره. وقد تباينت نظرة النقاد إلى حركة التجديد في شعرية أبي تمام، فمنهم من استحسن شعره، ومنهم من استهجنه. لذا فإن معيار الجديد يكمن في الإبداع، وبهذا تنصرف دلالة التجديد في الشعر إلى «طاقة التغيير التي يمارسها بالنسبة إلى ما قبله وما بعده».

إن التغيير الذي جاء به أبو تمام، لم ينته بوفاة صاحبه، وشمل فئات واسعة من علماء العربية والكتاب والمصنفين الشعراء. بدأت هذه الحركة الشعرية شفوية تناقلها الرواة عن مواقف اللغويين والنقاد الأوائل، ثم اتسعت لتشمل الشعراء، ومنهم البحتري وابن الرومي. واستمرت حتى القرن الحادي عشر الهجري. هناك مؤلفات كثيرة تناولت مذهب أبي تمام الشعري، منها الشروح كما لدى المرزوقي والمعري والصولي، ومنها انتصار له لدى الآمدي وابن الاثير. ومنها في سياق الكتابة النقدية كما لدى البديعي في كتابه (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام). عُدَّ «قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع» واعتبره الجاحظ أحد جهابذة الكلام ونقاد المعاني. هذا ما دفع إلى ظهور حركة شعرية تجديدية كما لدى البحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري. ومن هنا عدته النظرية الحديثة شيخ الشعراء جميعاً في أوائل القرن الثالث. وشاعر المعاني الأول. وقد تناول شاعرنا الأغراض الفنية القديمة، فوقف على الأطلال، ومدح ورثى، ووصف، واستعمل الغريب من اللغة. أحدث في شعره انقلاباً تغير فيه نظام الدلالة والمعنى ونظام التعبير والفهم. وكان الشعر عنده حصيلة بصر وتأمل، وثقافة نظر واختيار.

شعرية التضاد والتوازي عند أبي تمام

لقد كان إلحاح أبي تمام في طلب المجانس والمطابق وبعيد الاستعارات من أبرز الأسباب التي أثارت حوله خصومة نقدية. فالطباق عند أبي تمام ليس مجرد تقابل في المعاني، بل هو طريقة في التعبير عن العلاقات التي تحكم الوجود. وتأسيساً على ما تقدم نستطيع القول: إن التضاد هو شكل من أشكال الاختلاف، وهو المبدأ الناظم للوجود، ومن ثم فهو المبدأ الناظم للفكر، وبوصفه شكلاً من أشكال الاختلاف فهو ينتظم اللغة أيضاً.

لقد استحال الطباق عند أبي تمام طريقة توليد المعنى. إذ إن من أهم سمات العقل الإنساني أنه «يتحرك من الشيء إلى نقيضه بحثاً عن وحدة كلية من شأنها أن توحد بين هذه النقائض وتؤلف بينها».

قطبَ الخشونة والليان بنفسه

فغدا جليلاً في القلوبِ لطيفا

فإذا مشى يمشي الدُّفَعي أو سرى

وصل السُّرى أو سار سارَ وجيفا

يغدو التضاد هنا طريقة فنية لإبراز العلاقة القائمة بين الدهر والممدوح. وتبدو القصيدة ملتقى الأضداد.

يرتبط التضاد بفكرة الطلل، الذي يستمد من صلته بالتحول والزمن قدرته على إغناء الفكر بالدلالات والمعاني المتضادة، والتي تشكل البنية الفنية للطلل. وقد تظهر الإشارة صريحة إلى ماضي الطلل بوصفه بحثاً «عن عناصر الحياة».



أما الرسوم فقد أذكرنَ ما سلفا

فلا تكفنَ عن شأنيك أو يكفا

في مفهوم التوازي يمكن الكشف عن الأنساق المتناظرة في النص. ويختزل مفهوم التوازي جلّ ما درسته المباحث البلاغية العربية القديمة تحت أبواب المساواة وحسن التقسيم، وصحة المقابلات، وردّ الأعجاز على الصدور. وأبو تمام شاعر تبدو في شعره «روح التشكيل الإسلامي المتكرر والمتناغم والمزخرف» إذ يبني أنساقه الشعرية وفق نطاق نحوي متناظر قائم على التماثل والاختلاف.

في أوانٍ من الربيع كريم

وزمانٍ من الخريف حسيبِ

أما وظائف التوازي فتتوزع بين: إبراز الشكل والتماسك الدلالي. وخرق ذلك يعد تنسيقاً جمالياً للاستخدام الخاص للغة.

والخطُ يعطاه غيرُ طالبه

ويحرزُ الدرَّ غيرُ محتلبه

ويظهر اعتماد أبي تمام على التوازي في الرثاء، أكثر من المديح، نوعاً من وحدة الموقف الانفعالي الذي تكشفه اللغة

ألله إني خالدٌ بعد خالدِ
وناس سراجَ المجد نجمَ المحامدِ

أما أشكال التوازي فهي متعددة، نذكر منها: التوازي البسيط. والتوازي المركّب والتوازي المعقد

جوى ساورَ الأحشاءَ والقلبَ واغلهُ
ودمعٌ يضيمُ العينَ والجفنَ هاملهُ

إن تتبع حركة المعنى عند أبي تمام لم يكن إلا نتيجة وعي بطاقة النحو في إثراء الدلالات وتغيير وجهاتها

دموع أجابت داعيَ الحزن همّعُ
توصلُ منا عن قلوبٍ تقطّعُ

ooo

شعرية النفي والتكرار والجناس

تبرز شعرية النفي من خلال: حركة المعنى من خلال النفي. النفي في مستوى التركيب. وظائف النفي. وهو عند أبي تمام يتجاوز كونه إيجاباً للمعنى أو سلباً له، إذ يتحول إلى مبدأ شعري يتحكم في مسار الدلالة. وشعرية أبي تمام كامنة في الطرق والمسالك التي سلكها إلى تلك المعاني. وقد يتحول النفي من عنصر شعري متفاوت البروز في نصوص أبي تمام، إلى قانون جمالي يحكم مسار المعنى. مما يجعلنا نؤكد أن أبا تمام لا يلجأ إلى استحضار أوجه التشاكل والتماثل في النسيج اللفظي فقط، بل يتعمد الإشارة إلى أوجه التباين ونقاط الاختلاف.

فأنت لديه حاضرٌ غيرُ حاضر
جميعاً وعنه غائبٌ غيرُ غائب

أما قضية النفي والعلاقة بين النصوص فتبرز من خلال: حركة الثنائيات. الشاعر والتراث. وهو ما يبرز من خلال المحاور الدلالية في نصوص أبي تمام، وقد برز ذلك في قصائد المديح. ففي إحدى قصائد أبي تمام التي يمدح فيها المعتصم والأفشين، يشكل الفعل الماضي مرتكزاً أساسياً من مرتكزات النص:

غدا الملكُ معمور الحرا والمنازلِ
منور وحف الروض عذبُ المناهلِ
بمعتصمٍ بالله أصبحَ ملجأً
ومعتصماً حرزاً لكلِّ موائلِ

مايعني ذلك، أن تجاوز الطائي للموقف القديم ليس ثورة أو تمرداً، ولكنه تطوير، وفتح لمسارب التجربة الشعرية.

أمّا شعرية التكرار فتبدو من خلال: الشكل والبنية المضمرة. التكرار وتماسك النسيج.

وفي القصيدة الدالية التي يمدح فيها أبو تمام المأمون، يظهر الطباق والجناس والتكرار درجة رفيعة من درجات تفاعل الأدوات الشعرية.

كشفَ الغطاءُ فأوقدي أو أخمدي
لم تكمدي فظننت أن لم يكمد
يكفيه شوقٌ يطيلُ ظماءهُ
فإذا سقاه سقاه سمُّ الأسودِ

شعرية الجناس تبدو عند أبي تمام من خلال:

الجناس واللغة. الجناس وتوليد الدلالة. الجناس وشعرية الاختلاف. لما كان الجناس يمثل المستوى الـذي يلتقـي فيه المستـوى الصـوتي والمستوى الـدلالي، في نسيج النص، فإن الطباق هو علاقة ترتبط فيهـا المدلولات، بصرف النظر عن بنيتها الصوتيـة. وحين يأتلف الجميـع في بنية واحدة، فنحـن أمام بنية يتنازعها بـروز الدال والمدلول. يقـول أبو تمام في قصيدة يمـدح فيها أبا سعيد الثغري:

لا أنـتِ أنـتِ ولا الـديـارُ ديـارُ
خـفَّ الـهـوى وتـولـت الأوطـارُ

كـانـت مجـاورة الـطـلـول وأهـلـهـا
زمـنـاً عِـذابَ الـورد فـهـي بـحـارُ

* * *

الخاتمة..

تـرى الباحثـة المؤلفة أن البحـث انتهى إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

١- لقـد انطلق أبو تمام في تجديده من اللغة التي أتاحت له الكشف عن عالم غريب من المعاني المتجددة.

٢- إن البديـع في شعر أبـي تمام هو عنصر منتج للمعنى.

٣- إن أبـرز الملامـح الشعرية عند أبي تمام مردها إلى علاقات التناظر والتقابل والتماثل.

٤- تتيـح دراسة أشكال التوازي في المستوى النحـوي الكشف عـن عناصر الوحـدة والتنوع والتباين.

٥- النفي عامل لساني محض يشحن العلامات بمدلولات أضدادها.

٦- يتحول التكـرار والجناس بوساطة النفي إلى عناصر قائمة على الاختلاف.

٧- إن علاقة الشاعـر بتراثه تتجاوز مسألة السرقة إلى الائتلاف والاختلاف.

٨- إن الشعرية الحديثة بما قدمته من أدوات تؤكـد النضج الفني والنقدي الـذي وصلت إليه العقلية العربية في أزهى عصورها.

آخر الكلام

ثورات حضاريّة؟!

رئيس التحرير

قال محدثي: من خلال عملك المديد في حقول الآثار والمتاحف، هل بالإمكان الإشارة إلى «ثورة الحضارة» الأولى في تاريخ البشرية، التي نقلت الإنسان من عبد للطبيعة إلى سيّد لها، وكيف أخذت مجراها في مكان ما من بقاع المشرق القديم في مرحلة مفقودة من مراحل العصور الحجرية؟!

قلت: المكتشفات الأثرية التي تمت في سورية وبلاد الشام، في العقود

الماضية، أثبتت بما لا يقبل الشك، أن هذه البقعة الرائعة من العالم، كانت دون غيرها التي حقق فيها الإنسان القديم ثورات عديدة، وليس ثورة واحدة فقط، فقد قام منذ مليون سنة خلت، بصناعة سلاحه وأداة حرفته من حجر الصوان، فقد شذب وصقل وجوّف وحدّب الصوان في موقع «ست مرخو» بالقرب من السرير الأعلى للنهر الكبير الشمالي في ساحلنا السوري الجميل، وترك الكهوف والمغاور ليصنع من الطين المدكوك، والطوب المسكوب نواة المسكن الأول الذي وجدت بقاياه في تل المريبط وتل الشيخ حسن و«أبو هريرة» وتل بقرص وغيرها.. وبعد أن كانت الثمار والحبوب البريّة غذاء الإنسان، أهّل إنسان سورية منذ الألف التاسع قبل الميلاد الدواب والهوام وجعلها داخل حظائر وزرائب، بعد أن كانت هائمة في كل مكان، وكانت الثورة الزراعية، وعمليات الاستقرار، وتشكّل القرية الأولى في التاريخ، وتبادل المنتوجات الزراعية والأدوات النفعيّة، وكانت النواة الأولى لتشكل المدن وممالك المدن، وقيام العقود وإنشاء القوانين والدساتير والأعراف الاجتماعية والاقتصادية التي تنظم حياة البشر وتضمن حقوقهم.

قال محدثي: أنت دائماً تنظر إلى هذا الموضوع بعين المحب، والمعجب الولهان، والعاشق المتيّم؟!

قلت: وكيف تريدني أن أنظر إليه، وقد خبرته وعشت مراحل اكتشافات مواقعنا الأثرية الرائعة منذ عام ١٩٧٠م وحتى وقتنا الراهن.. بالمناسبة الأوساط العلمية والثقافية في شتى أرجاء العالم تعلم عن هذه الاكتشافات، أكثر مما نعلمه نحن، فالمراجع والدراسات العلمية في العالم هي التي أكدت نشأة أوّل قرية على ضفاف نهر الفرات في «تل المريبط»، وكان إنسان المريبط، أوّل من نثر البذار، وأوّل من دجّن

الحيوانات، وأوّل من صنع من الطين «الإلهة الأم» وأوّل من قدّس الأموات من الآباء والأجداد.. والتنقيبات الأثرية في سورية، غيّرت مفاهيم كثيرة في علم الآثار وأحدثت ضجة على نطاق عالمي واسع، فاكتشافات إيبلا «تل مرديخ» وضعت العالم أجمع أمام «تاريخ جديد» ولغة جديدة، وحضارة جديدة غير مسبوقة في الألف الثالث قبل الميلاد، وثبت أنّ هذه اللغة كانت مع الأكادية، أمّ اللغات التي تعاقبت على بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين كالبابلية والآشورية والأوغاريتية والآرامية والعربية الجنوبية، كما تبين أن لغتنا العربية قد ورثت جميع المفردات التي استخدمتها إيبلا في وثائقها..

قال محدثي: وما هو دور أوغاريت في هذه «الثورات»؟

قلت: صحيح أن سكان الفرات والبادية السورية كانوا صنّاع «الثورة الزراعية» ولكنهم بعد فترة انتقلوا ليقيموا على الساحل السوري، بعد أن أتقنوا الزراعة والبناء والتدجين، وكانت مستوطنة «أوغاريت» منذ الألف السابع قبل الميلاد، التي طورت البناء وأبدعت أفضل أنواع الفخار الملوّن والمزخرف وجعلته مادة تجارية جابت البحر المتوسط، وإذا كانت أوغاريت قد صدرت الأبجدية أو «ثورة المعلوماتية» الأولى للعالم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فإن مستوطنة ما قبل أوغاريت في رأس الشمرا، قد صدرت الثورة الزراعية أيضاً إلى مختلف أرجاء المعمورة، كما دلّت على ذلك المكتشفات الأثرية الحديثة.